صفحة الغلاف

تاريخ الدولة العثمانية

خطوات نحو الإنصاف

تأليف

الأستاذ الدكتور/ السيد الدقن

الدكتور/ محمود زايد

الطبعة الأولى – القاهرة –1337هـ -2016م

أعده إليكم نسخة

Pdf

فادي شحاته

ص1

الفصل الأول

الدولة العثمانية ..

من القبيلة إلى السلطنة

ص2

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رقم الإيداع: 4805 /2016م

الترقيم الدولى

978-977-968745-3

الطبعة الأولى

القاهرة2016م

ص3

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين ... وبعد:

فإن دراسة تاريخ الدولة العثمانية أمر يجب أن يؤخذ بعين الاهتمام. ويتطلب موضوعية منصفة. وتجردًا تامًا من أى هوى أو تحيز. وذلك لأن الدولة العثمانية كدولة إسلامية كبرى تعرضت لحملات تشهير عنيفة، ومغالطات كبرى من قِبَل الكثيرين، وعلى رأسهم الصهيونية العالمية وأنظمة الحكم فى الدول الغربية الكبرى، بهدف النيل منها عن طريق المراكز البحثية، وما أنتجوه من مؤلفات تاريخية مشوهة، ومن نشر وثائق منتقاة وذات اتجاه واحد لخلق صورة ذهنية سيئة فى العالم عن الدولة العثمانية وتاريخها.

وقد نجحت الصهيونية العالمية والدول الغربية فى عملها هذا فى نواح عديدة. وساعدهم فى ذلك قيام مؤرخين وباحثين عرب بتبنى حملات التشويه تلك، ورصدها فى كتاباتهم باللغة العربية حتى تستقر الصورة الذهنية السلبية عن الدولة العثمانية لدى الأجيال العربية والإسلامية المتعاقبة. ودللوا على ذلك بإبراز وتضخيم مظاهر التأخر الذى أصاب الدولة العثمانية بدايةً من القرن التاسع عشر الميلادى مقارنة بالتقدم الذى كان الأوربيون ينتهجونه فى المجالات المختلفة العلمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية وغير ذلك من الأمور. إضافة الى ما كتبوه تحاملًا وزورًا على الدولة العثمانية وليس له أصل على أرض الواقع.

ص4

ومن ناحية أخرى، هناك مَنْ مجّد وعظّم فى تاريخ الدولة العثمانية، وبرر للكثير من قرارات وسياسات سلاطينها وولاتها وهى لم تكن فى صالح الدولة العثمانية ولا فى صالح المسلمين عمومًا.

وقالوا: إن للدولة العثمانية إيجابيات وخدمات جليلة أسدتها لمجموعة كبيرة من شعوب العالم روحيًا وماديًا خاصة فى أوربا الشرقية التى دخلت فى الإسلام أفواجًا بسبب فتوحات العثمانيين لبلادهم. كما ان لها فضل كبير على البلدان العربية وتصديها لحملات الاحتلال الغربى الذى بدأ منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حاملة "شعار الصليب أو المدفع". حيث لم تنجح هذه الحملات إلا بعد إضعاف الدولة العثمانية بعد أكثر من300سنة.

والحق. إن الدولة العثمانية بشكل عام كأى دولة فى التاريخ، من حيث إن القائمين عليها بشرٌ. والصواب والخطأ حالتان متلازمتان للبشر. فيكون لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم. وواجبنا أمام الأجيال الحالية، ووسط حملات التشويه الكبرى ذات الأبعاد السياسية المتغيرة، أن نكون منصفين حيال تاريخ الدولة العثمانية وغيرها من الدول وفق منهج علمى أكاديمى تأريخى، بذكر ما لها من إيجابيات وما عليها من مآخذ وسلبيات. مع الأخذ فى الاعتبار تفسير ظروف وتوقيت كل حدث من حيث المحلية والإقليمية والعالمية.

وفى ظل إجحاف عدد من الباحثين ضد تاريخ الدولة العثمانية، مع مبالغة آخرين فى إيجابياتها. جاء سعينا لهذا الكتاب كرؤية مبسّطة منصفة لتاريخ هذه الدولة، فى تركيا وأوربا الشرقية والبلدان الكردية والعربية والإفريقية والهندية وغيرها. ولسنا أول من يسعى لانتهاج هذا النهج الموضوعى؛ فقد سبقنا مؤرخون كبار فى هذا المجال. ويأتى على رأسهم المؤرخ المصرى الكبير أد. عبد العزيز الشناوى (رحمه الله)

ص5

فى كتابه " الدولة العثمانية دولة مفترى عليها" [1]. حيث يُعد مرجعًا أساسيًا لكل من يريد أن يكتب عن الدولة العثمانية.

وبما أن تاريخ الدولة العثمانية متعدد الجوانب، وذاخر بالأحداث، فإننا سوف نعمل فى هذا الكتاب (وفق طبيعته والهدف منه) على الإلمام بالجوانب الرئيسية فى تاريخ الدولة العثمانية، وإجلاء ما يكتنف بعضها من غموض، وتبيان بعض الإيجابيات والسلبيات فى تاريخها، والرد على تحامل بعض الباحثين عليها نتيجة خطأ فى النقل، أو تلمذة فى الغرب، أو حقد من بعض المؤرخين الأوربيين الذين كرسوا جهدهم لتشويه تاريخ هذه الدولة العثمانية الإسلامية التى قهرت أوربا فى عقر دارها.

وسنوضح فى هذا الكتاب أصل الأتراك العثمانيين، ومتى وكيف أقاموا دولتهم فى آسيا الصغرى (تركيا حاليا) فى الركن الشمالى الغربى من العالم الإسلامى. وأثر العاطفة الإسلامية فى نفوسهم. وكيف مزجوها بالروح العسكرية المتأصلة فى كيانهم حتى أسسوا أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ الإسلامى فى قرونه المتأخرة. امتدت فى ثلاث قارات هى آسيا وأوربا وإفريقيا. متخذين من القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية (بعد القضاء عليها عام1453م) عاصمة لهم تحت اسم "إسلام بول". ترفرف عليها رايتهم، وتنطلق من فوق مآذنها نداء الإسلام "الله أكبر .. الله أكبر".

هذه المرحلة الكبرى التى أزعجت أوربا وقذفت فى قلوبها الرعب. وجعلتها تَعْقِد التحالفات الصليبية أكثر من مرة لطرد العثمانيين من أوربا. ولكن الفشل كان حليفهم كلما كانت الدولة العثمانية فى قوتها ومَنعَتها.

هامش ص5

[1] صدر عن مكتبة الأنجلو بالقاهرة فى أربعة أجزاء.ظهر الجزء الأول منه فى عام1978م. والأخير فى عام1984م. وبعد ذلك صدرت منه طبعات عديدة.

انتهى الهامش.

ص6

ومع ضعف الدولة العثمانية من داخلها ومن خارجها ظهر فى أوربا ما عرف بـ"المسألة الشرقية" التى كانت تعنى فى بدايتها ضرورة تكاتف أوربا لمواجهة خطر العثمانيين. ومع استمرار ضعف الدولة العثمانية، تغيَّرَ مفهوم "المسألة الشرقية" لدى الأوربيين. وأصبح يعنى ضرورة طرد العثمانيين من أوربا وتقسيم ممتلكاتهم، وقد كان.

أما فى الشرق الأوسط، فقد بسط العثمانيون سيطرتهم على الإمارات الكردية، والبلدان العربية فقضوا على دولة المماليك البُرجية، التى كانت تحكم مصر والشام ولها السيادة على الحجاز، كما ضموا العراق واليمن والمغرب العربى (عدا مراكش) الى ممتلكاتهم، فأصبح البحر المتوسط بحيرةً إسلاميةً تجوب الأساطيل العثمانية والمغربية التابعة لهم فى مياهه بِحُرّية تامة.

ونَعِمَ العالم الإسلامى فى ظل الحكم العثمانى بفترة من الهدوء والاستقرار امتدت حوالى ثلاثة قرون، حتى كان مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأت أوربا – منتهزة فرصة ضعف الدولة العثمانية فى الوثوب على العالم العربى. فكانت أحداث الحملة الفرنسية على مصر فى سنة1798م وما تبعها من تنافس الدول الأوربية على اقتناص أجزاء لها من العالم العربى. وتشجيع الشعوب البلقانية على الثورة ضد الدولة العثمانية ؛ التى حاولت جاهدة استعادة شبابها عن طريق الإصلاح، ولكن دون جدوى فأوروبا لها بالمرصاد، تُشَجِّع ثورات البلقان من جهة، وتذكى نار الفتنة الطائفية فى العالم العربى والإسلامى، وتساند حركة القومية العربية التى تنادى إليها فى البداية مسيحيو الشام من جهة أخرى . فكان صراع الدولة العثمانية ضد عوامل انهيارها مريرًا. وكان العهد الحميدى هو قمة هذا الصراع الذى انتهى بعزل السلطان عبد الحميد الثانى سنة1909، على يد جماعة الاتحاد والترقى الذين لم يستطيعوا المحافظة على كيان الدولة العثمانية

ص7

نتيجة سياساتهم المتعصبة لكل ما هو تركى. مما أدى فى النهاية الى تخلِّى العرب عن الدولة العثمانية، وقيامهم بالثورة ضدها سنة 1916م إبان الحرب العالمية الأولى (1914-1918م). فكانت نهاية تلك الدولة الإسلامية الكبرى بإلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924م على يد مصطفى كمال أتاتورك.

هذا، وقد اعتُمد فى المادة العلمية لهذا الكتاب على مصادر أصلية من وثائق ومخطوطات وكتب معاصرين. هذا فضلًا عن العديد من المراجع الأجنبية المُعرَّبة، والمراجع العربية الحديثة. وقد رُصدت فى ثبت المصادر والمراجع فى نهاية الكتاب.

وأخيرًا، نرجو أن نكون قد وُفِّقنا فى رسم صورة موضوعية عن تاريخ الدولة العثمانية. داعين المولى عز وجل أن ينفع به القراء عامة، وطلبة العلم خاصة. وأن يجعل ذلك فى موازين حسنات أستاذنا الدكتور السيد محمد الدقن (رحمه الله)، الذى له الباع الأصلى والأكبر فى هذا الكتاب. مع تقديم كل الشكر لمن عاوننا فى إخراج هذا الكتاب على هذا النحو.

وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. فهو - جل شأنه – من وراء القصد وهو يهدى السبيل.

القاهرة – فبراير 2016م

ص 11

مدخل:

تعد الدولة العثمانية أطول الدول الإسلامية عمرا، فقد عاشت ما يقرب من ستة قرون ونصف، منذ مراحل نشأتها في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي وحتى سقوطها تماما في عام1923م على يد مصطفى كمال اتاتورك. وقد بدأت كقبيلة، ثم إمارة، ثم سلطنة، حتى حمل حكامها لقب خليفة المسلمين. وحكمها سبعة وثرثون من سلالة واحدة (سلالة آل عثمان)، ومنهم من تولى أكثر من فترة متفرقات.

وقد كان مركزها الأصيل آسيا الصغرى في أقصى الركن الشمالي الغربي من العالم الإسلامي. وقد دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من القبائل التركية(1) التي كانت تنزح – على فترات متقاربة حينا ومتباعدة حينا آخر- من مناطق الإستبس في آسيا متجهة غربا نحو الأناضول(2).

وقد بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م)، والذي وصفت فترة حكمه بـ "العهد الذهبي" للدولة العثمانية، فبلغت الدولة العثمانية أقصى اتساع لها (حوالي 23مليون كم2)(3). وامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاثة: أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث

هامش ص 11

(1) ينتمي الأتراك العثمانيون إلى قبيلة قابي إحدى قبائل الأتراك الغز (أي القركمان) بنظر محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة الدكتور أحمد سعيد سليمان، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة1967م. ص118 – ص126.

(2) عبد العزيز الشناوي: أوروبا في مطلع العصور الحديثة جـ1. دار المعارف، القاهرة1969م. ص 518.

(3) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ1، ص431.

انتهى الهامش

ص 12

وصل عدد ولاياتها إلى 29ولاية، وسيطرت على ثلاثة بحور هي: البحر الأحمر، والبحر المتوسط، والبحر الأسود.

أسماء الدولة العثمانية:

ذكرت الدولة العثمانية في التاريخ بمسميات عدة، مثل: "دولت عليه". أي "الدولة العلية"، و"سلطنت سنية". أي السلطنة السنية"، و "دولة آل عثمان". وبعد اتساع مساحة الدولة العثمانية أطلق عليها "امبراطور لقي عثمانلي"، أي "الامبراطورية العثمانية". وكان العثمانيون يفضلون استخدام: "دولَتِ عَلِيه عُثمانيه"، وتكتب باللغة التركية الحالية: "Yuce Osmanh Devleti" و في المصادر العربية كثر استخدام اسم: "الدولة العثمانية"(1).

وكان العثمانيون يعتزون بوصف الفرد منهم بأنه "عثماني"، بل كانوا يعدون اطلاق وصف "تركي" على واحد منهم من باب الإهانة، إذ كان يطلق على غير الأسوياء من الشعب(2). ويلاحظ أنه لم يتم إطلاق اسم "تركيا" على الدولة العثمانية إلا في العصر الحديث، وأن الأوروبيين هم من قاموا بذكل لتقليص ممتلكاتها، وانفكاك الأجناس غير التركية المنضوية تحت لوائها.

نشأة الدولة العثمانية:

تكتنف مرحلة النشأة الأولى للدولة العثمانية حالة من الغموض: نظرا لكثرة الروايات المتضاربة حول نشأتها، ووصف بعض المؤرخين لهذه الروايات بالأساطير، وإن كان بعضها قد تم اسيياقه من الحوليات

هامش ص 12

(1) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. جـ1، مكتبة الأنجلو – القاهرة1984م. ص 11.

(2) المرجع نفسه. ص 12- ص13.

انتهى الهامش

ص 13

العثمانية القديمة. إضافة إلى عدم الرصد المعاصر لأحداث النشأة، فم يكن أحد منهم يتوقع أنه سيكون لهذه القبيلة التركية، ثم الإمارة العثمانية هذا الشأن العظيم في العالم.

ومن روايات المؤرخين، نذكر روايتين فقط لمحاولة استخلاص فكرة عامة حول نشأة الدولة العثمانية:

الرواية الأولى: تقول إن الأمير سليمان – جد السلطان عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية، والذي سميت الدولة بالعثمانية باسمه – كان أميرا في بلاد "ماهان" قرب "بلخ"، وعندما اكتسح جنكيز خان ملك المغول هذه البلاد وخربها، وقضى على مملكة خوارزم، وتفرق أهلها – هاجر سليمان البلاد مع من هاجر سنة616هـ - 1220م. وقصد بلاد الروم حيث الدولة السلجوقية، التي كان قد سمع عن عظم شوكتها، وكثرة غزوها بلاد غير المسلمين.

وتبع سليمان خلق كثير من ماهان. وصار يضرب في الأرض هو من معه حتى وصل إلى كردستان، وتابعوا السر غربا حتى وصلوا نهر الفرات أمام قلعة جعبر شرقي حلب حاليا. ولما لم يعلموا معبرا للنهر خاضوه، فغلبهم الماء فغرق سليمان، ودفن بجوار قلعة جعبر، فاشتهر ضريحه بعد ذلك باسم "ترك مزاري"، أي "مزار الترك"(1).

وكان لسليمان ثلاثة أولاد، هم سنقور زنكي، وكون طوغدي، وأرطغرل(2). فواصلوا السير، وعندما وصلوا إلى موقع يقال له "باسين

هامش ص 13

(1) لا يزال هذا المزار موجودا حتى الآن، وظلت رفات سليمان في هذا القبر حتى نقلته السلطات التركية في فبراير2015م، خوفا من اعتداءات داعلش عليه بالهدم، حيث يقع المزار شرق الرقة (معقل داعش) بحوالي55كم فقط.

(2) يذكر ابراهيم بك حليم في كتابه: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط1، مطبعة ديوان عموم الأوقاف. القاهرة 1323هـ/1905م، ص 34: أن الأمير سليمان كان له أربعة أولاد. ويضيف إلى الأبناء الثلاثة المذكورين ابنا رابعا يسمى "دندان".

انتهى الهامش

ص 14

أوه سي". رجع سنقور وكون طوغدي إلى خراسان، بينما تخلف أرطغرل – جد السلاطين العثمانيين – مع أولاده الثلاثة (كوندز ألب، وصاروبني، وعثمان). ومن معهم من أهله وعشيرته في ذلك المكان، ثم أرسل ابنه صاروبني إلى السلطان علاء الدين كيقباذ السلجوقي ملك قونية وسيواس يستأذنه في الدخول إلى بلاده، ويطلب منه موضع يستوطن فيه هو وعشيرته، فعين له في غرب الأناضول جبال طومانيج وجبال أرمناك ولاسهول التي بينهما. فنزل أرطغرل ومن معه، وكانوا نحو أربعمائة أسرة في مكان يدعى "قرة جه طاغ".(1)

الرواية الأخرى: تتفق مع الرواية الأولى حتى وصول القبيلة التركية لحدود آسيا الصغرى وغرق سليمان ورجوع أخوي أرطغرل إلى خراسان. وتضيف أنه في أثناء ترحال أرطغرل في بلاد الأناضول هو وعشيرته – تصادف في سنة1232م، أن شاهد جيشين يقتتلان، فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحل من القبائل الحربية، ولما رأى ضعف أحد الجيشين وتحقق انكساره وخذلانه، دبت فيه النخوة الحربية وهو لا يدري شيئا عن طرفي القتال، فنزل هو وفرسانه لنجدة الجيش الضعيف، واستطاع بشجاعته ان يحرز نصرا سريعا لصالح الجيش الأضعف.

كم كانت مفاجأة لأرطغرل وعشيرته حينما علموا أنهم تدخلوا لنصرة بني جلدتهم، وعشيرتهم حينما علموا أنهم تدخلوا لنصرة بني جلدتهم، وهم الأتراك السلاجقة، فقد كانت تلك المعركة بين جيش السلطان علاء الدين السلجوقي (1219-1225م) سلطان

هامش ص 14

(1) ابن الوكيل (يوسف أفندي بن محمد الملوي) تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج تحت رقم28تاريخ الورقتان 49-50القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي) أخبار الدول وآثال الأول طبع حجر مطبعة المبرزا عباس التبريزي، بغداد سنة1282هـ ص295- ص296.

انتهى الهامش

ص 15

قونية(1). وجيش الخان أوكاطاي بن جنكيز خان الذي عهد إليه استكمال غزو آسيا الصغرى.

إن قضية مساندة أرطغرل الجيش الأضعف دونما يعلم هويته ولا أهدافه أمر لا يقبله العقل، فليس ممكنا أن يرمي إنسان او مجموعة بنفسها في ساحة قتال دون علم ودراية وأهداف. والرواية الأقرب في هذا الأمر أن أرطغرل وهو بالمنطقة الحدودية سمع أن حربا ضروسا من جيش غير مسلم ضد السلاجقة أبناء عقيدته الدينية. فتقدم أرطغرل بمن معه لإنقاذ إخوانه في الدين، فكان ذلك سببا في النصر العظيم(2).

وعلى أية حال فنتيجة لموقف أرطغرل وجماعته، أقطعهم السلطان علاء الدين السلجوقي قطعة جغرافية من دولته في غرب الأناضول مساحتها2000كم2، وهي المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج وأرمناك يقضون فيها فصل الصيف، وسهول سكود يقضون فيها فصل الشتاء(3). وكانت تلك الأراضي هي النواة الأولى للدولة العثمانية وهناك من يقول(4) إن السلطان علاء الدين السجوقي كافأ أرطغرل وقبيلته اتقاء لشرهم. واستثمار لقوتهم في الصراع مع الدولة البيزنطية المرابطة على الحدود.

هامش ص 15

(1) وهي أحدى الإمارات السلجوقية التي أسست عقب إنجلال دولة آل سلجوق بموت السلطان "ملك شاه" في15شوال سنة 485هـ/18نوفمبر سنة1092م. فعندما سقطت دولة السلجوقيين تجزأت أملاكهم في بلاد الأناضول إلى عشر إمارات صغيرة وهي قره سي. وصاروخان وآيدين، وتكة، والحميد، والقرمان، وكرميان، وقسطموني، ومنتشا، وقونية ثم ضمت بالفتح إلى مملكة آل عثمان.

(2) محمد على الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ج1. مكتبة حسن العصرية – بيروت، الطبعة الأولى 2010م، ص 49.

(3) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجبل بيروت1977م، ص 39- ص 40.وينظر إبراهيم بك حليم، المصدر السابق، ص 34.

(4) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق. ص 34.

انتهى الهامش

ص 16

أيما كان الأمن فإن القبيلة التركية بقيادة سليمان قد هاجرت من وسط آسيا الصغرى مرورا بكردستان، فرارا من الغزو المغولي، وبحثا عن موارد اقتصادية أوسع. واستقرت مبدأيا على الحدود الغربية للدولة السلجوقية، وقدمت العون العسكرى للسلاجقة الذين كانت دولتهم في ذلك الوقت في طور الاضمحلال. هذا العون من جانب أرطغرل. والاضمحلال من جانب السلاجقة كان إحدى مظاهر خلق حالة جديدة في المنطقة بل وفي العالم.

وبناء على ما سبق فإن أرطغرل لم تتوقف طموحاته على ما منحه السلطان علاء الدين السلجوقي، بل شرع في تلبية مطالب الأخبر. وبخاصة في مقاتلة قوات الدولة البيزنطية والسيطرة على ممتلكاتها واحدة تلو الأخرى.

ففي سنة 685هـ - 1286م نجح أرطغرل في فتح كوتاهية بناء على تكليفات السلطان علاء الدين، الذي كان منشغلا بصد الهجوم التتاري. فازداد أرطغرل من السلطان قربا ومنزلة(1)، وظفر بلقب "أوج بكي" أي "محافظ الحدود". حيث جرت العادة لدى دولة سلاجقة الروم أن تمنح هذا اللقب كل رئيس من رؤساء العشائر الكبار، ويلتحق به عدد محدد من العشائر الصغيرة(2).

لكن أرطغرل لم يقف عنده هذا اللقب فقط، وإنما أخذ يهاجم باسم السلطان علاء الدين ممتلكات الولة البيزنطية، بل صار يشترك مع السلطان نفسه في كل حروبه ضد الدولة حتى لقبت قبيلة أرطغرل بـ "مقدمة السلطان"، لوجودها دائما في مقدمة الجيوش

هامش ص 16

(1) ابن الوكيل: مصدر مخطوط سبق ذكره ورقة رقم 50. القرماني، المصدر السابق، ص296.

(2) عبد العزيز الشناوي، مرجع سبق ذكره، ص519.

انتهى الهامش

ص 17

وإحراز النصر على يديها(1). وفي أثناء ذلك استطاع أرطغرل أن يضم إلى المنطقة التي بحكمها مدينة "اسكي شهر". ومعناها المدينة القديمة(2).

وظل أرطغرل على هذا المنوال حتى توفي سنة 687هـ/1288م. وعمره يناهز الثلاثة وتسعين عاما. وسلم ابنه الإمارة ومساحتها 4800كم2فقط(4).

الأمير عثمان (1288-1326م):

ولد عثمان بن أرطغرل سنة 656هـ/1258م، أي في العام الذي سقطت فيه عاصمة الخلافة العباسية (بغداد) على يد المغول، وكأن الأقدار تقول: إن ذهاب دولة يواكبها ميلاد دولة أكثر فتوة، وأوسع مجالا.

فعقب وفاة أرطغرل، خلفه في حكم الإمارة ابنه "عثمان" الذي سميت الدولة فيما بعد باسمه (الدولة العثمانية)، وكان عمره حينئذ ثلاثة وعشرين عاما.

هامش ص 17

(1) محمد فريد بك، المصدر السابق ص 40.

(2) أسكي شهر من المدن الشهيرة التي تقع في شمال غرب تركيا حاليا، وتبعد 233كم عن العاصمة أنقرة من ناحية الغرب. و330كم عن إسطنبول من ناحية الجنوب الشرقي.

(3) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة. منشورات المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي – القاهرة 1994م، ص 10.

انتهى الهامش

ص18

لقد ولد عثمان في أجواء مضطربة، والأمة الإسلامية في حالة ضعف واضطهاد وتسلط من أعدائها، فتفتحت عيناه على مآسي المسلمين وزوال هيبتهم وضياع خلافتهم، وتفتحت أيضا على عدو صليبي عنيد مرابط على ثغور إمارته، فنشأ "عثمان"محبا للجهاد مشحونا بالإيمان، لذلك كان "عثمان" ملازما لأبيه أرطغرل في جهاده ضد الصليبيين، فاشتعلت رغبة عارمة في استعادة أمجاد المسلمين وحمايتهم من أعداء الإسلام.

أما السلطان علاء الدين، فبمجرد علمه بوفاة أرطغرل أقر تأمير عثمان خلفا لوالده، وأرسل إليه الراية السلطانية والخلع السنية. وعندما ضربت طبول تنصيب بين يدي الأمير عثمان نهض واقفا إجلالا للسلطان علاء الدين، وظل واقفا حتى فرغوا. ومن هذا الموقف استن العسكر العثماني الوقوف عند سماع طبلة السلطنة تعظيما لسلطانهم، ويبدو أن وقوفنا حاليا عند سماع السلام الجمهوري او الملكي مأخوذ مما قام به الأمير عثمان.

وقد استطاع الأمير عثمان – في السنة التالية لتوليه الإمارة688هـ/1289م – أن يفت ح قلعة "قرة حصار"، فمنحه السلطان علاء الدين لقب "بك"، وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها، وأجاز له ضرب العملة باسمه، وذكر اسمه في الخطب على المنابر(1)، وتوالت إنجازات الأمير عثمان الحربية حتى توطدت تحت يديه أركان إمارته العثمانية(2). وصار يتصرف في الأمور وكأنه ملك، لا ينقصه سوى اللقب رسميا(3).

هامش ص 18

(1) يذكر ابن الوكيل: الورقة 50، والقرماني، ص196 –297 أن عثمان لم يخطب باسمه على المنابر إلا في سنة699هـ/ 1300م بعد هزيمة السلطان علاء الدين أمام التتار.

(2) ينظر الخريطة في الفصل الأخير.

(3) محمد فريد، المصدر السابق، ص40.

انتهى الهامش

اسلامية الدول العثمانية منذ قيامها:

يتفق المؤرخون على اعتناق العثمانيين الإسلام منذ بداية حكمهم، لكنهم يختلفون في توقيت اعتناقهم الإسلام.

فهناك من يقول إن العثمانيين كانوا يعتنقون الإسلام قبل هجرتهم إلى آسيا الصغرى، بدليل أن بلادهم الأولى (خراسان) قد دخلها الإسلام في عصور الإسلام المبكرة، وأن العثمانيين هجروها فرارا من الهجمات التتارية التي كانت تبيد حرث ونسل المسلمين، ففر العثمانيون من أمامهم بأنفسهم ودينهم. ولما تعاملوا مع السلطان علاء الدين السلجوقي لم يستغربهم، فهم أبناء ديانة وجنسية واحدة، لذا اشتركوا معه بحماسة في محاربة البيزنطيين.

وهناك من يقول إن العثمانيين اعتنقوا الإسلام بعد استقرارهم في موطنهم الجديد في آسيا الصغرى. ويدللون على رأيهم بروايتين تم ذكرهما في الحوليات العثمانية القديمة:

الرواية الأولى: ترجع إسلام العثمانيين إلى أرطغرل والد الأمير عثمان فتقول: إن أرطغرل قضى ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين، وقبل أن يأوي إلى فراشه، جاء الزاهد بكتاب ووضعه على الرف، فسأله أرطغرل عن هذا الكتاب، فأجابه الزاهد بأنه القرآن الكريم فاستفسر منه عن محتواه، فقال له الزاهد: إنه كلام الله، أنزله للناس على لسان محمد صلوات الله وسلامه عليه، فحمل أرطغرل الكتاب، وأخذ يقرأ فيه واقفا حتى الصباح. ثم نام، فرأى فيما يرى النائم أن ملاكا يبشره

بأنه وذريته سيعلو قدرهم جيلا بعد جيل على مدى القرون والأدهار لقاء احترامه القرآن(1).

الرواية الأخرى: تشير الى الملابسات التي أدت الى اعتناق عثمان الإسلام قبل أن يصبح أميرا. وتحكي هذه الرواية : أن عثمان كان محبا للعلماء وكان كثير التردد على منزل أحد هؤلاء العلماء المتعمقين في الدراسات الدينية واسمه " اده بالي" القرماني الذي تطلق عليه المراجع العربية "أدب عالي". وكان هذا العالم يقيم في قرية مجاورة لمدينة "أسكي شهر". وفي أثناء تردد عثمان على بيت هذا العالم رأى ابنة الأخير، وتدعى "مال خاتون". فوقع حبها في قلبه. وطلبها من أبيها الذي رفض لما كان بينهما من فوارق اجتماعية. ومع ذلك لم يقطع عثمان زياراته لـ "أدب عالي" لما كان يلمسه فيه من العلم والفضل، أو لما كان يشعر به من عزاء وسلوى في

التردد على البيت الذي يضم بين جنباته فتاته التي شغف بها حبا. وفي إحدى الليالي التي قضاها عثمان بمنزل العالم رأى فيما يرى النائم. أن قمرا صعد من صدر هذا العالم فدخل في صدره، ثم خرجت من سرته (أي عثمان) شجرة عظيمة، نمت في الحال وتفرعت أغصانها حتى سدت الآفاق وتحتها جبال راسيات. ومن جذور هذه الشجرة انسابت المياه فى أنهار دجلة والفرات والنيل والدانوب. ثم هبت ريح شديدة حولت أوراق الشجر الى سيوف مشروعة. حولتها الريح صوب القسطنطينية. وعندما استيقظ عثمان من نومه، قص رؤياه على العالم حيث كان عارفا بتأويل الأحلام، فتفائل العالم "أدب عالي"، وبشر عثمان بأن أسرته ستحكم العالم، ووافق على زواج عثمان من ابنته "مال خاتون". وقام تلميذ من تلاميذ "أدب عالي" بعقد قرآن عثمان ومال خاتون. وتكريما لهذا التلميذ شيد له عثمان (بعدما

الهوامش:

محمد فؤاد كوبريلي: المرجع السابق ص13. عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق ص522.

انتهت الهوامش.

ص 21

أصبح أميرا) تكية، وأوقف عليها أوقافا عظيمة من القرى والأراضي الزراعية.

وقد ولد للأمير عثمان من "مال خاتون" أولاد منهم أورخان الذي سيصبح سلطانا للدولة العثمانية فيما بعد(1) .

ويضيف محمد فريد بك تكملة لهذه الرواية : ان "كوسة ميخائيل "أمير "أسكي شهر" كان قد طلب الزواج من "مال خاتون". فرفض والدها طلبه ومن ثم حنق كوسه ميخائيل على عثمان لما تزوجها، ومن ثم حنق عليه لما تزوجها وأراد أن يفتك بهن فهاجمه في قصر أحد مجاوريه وطلب من صاحب القصر أن يسلمه إلبه فأبى. ثم خرج عثمان ومن كعه على "كوسه ميخائيل"، ورده على عقبه، وأسره ولشدة اعجاب كوسه ميخائيل بشجاعة عثمان، تعلق به وصار من أخصائه، ثم أسلم وبقيت ذريته المشهورة في تاريخ الدولة العثمانية باسم عائلة "ميخائيل أوغلي"(2) .

ويرى جيزة (وهو أحد المؤرخين الألمان المتخصصين في الدراسات التركية): ان هاتين الروايتين محاولتان لدعم مشروع حكم العثمانيين لسائر القبائل التركية بآسيا الصغرى بتدخل الهي. وقد شن المؤرخ التركي المعاصر الأستاذ محمد فؤاد كوبرولي –وهو من أعلام الدراسات التركية- حملة عنيفة على هاتين الروايتين، وحاول ارجاع اعتناق الأتراك العثمانيين للإسلام الى عصور سابقة على قدومهم الى آسيا الصغرى. بل وحاول أيضا نفي وقوع هجرة القبيلة التي ينتمي اليها عثمان فرارا أمام غزو جنكيزخان. وإثبات أن قبيلة عثمان كانت

الهوامش:

(1) ابن الوكيل: مصدر مخطوط سبق ذكره، ورقة50، القرمانين: المصدر السابق: ص296. محمد فؤاد كوبريلي: المرجع السابق ص13. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ص521 – 522.

(2) محمد فريد بك: المصدر السابق ص40.

انتهت الهوامش.

ص 22

من القبائل التي وفدت على الأناضول مع السلاجقة الفاتحين او بعد الفتح بقليل(1).

ومهما اختلفت الروايات حول اسلام العثمانيين فإن الذي لا شك فيه أن الدولة العثمانية كانت اسلامية منذ نشأتها. وعادة ما كانت تعلن في أغلب سياساتها أن فتوحاتها وتحركاتها الداخلية والخارجية تسير وفق أحكام الشريعة الإسلامية فيما يعم به الخير للجميع ويوفر الأمن ويحقق العدالة بين أبناء الأمة. وتأصيلا لذلك أوجدت من المؤسسات الدينية ما يمكن الرجوع اليها لأخذ مشورتها ورأيها الديني في أي تحرك ينتوي المسؤولون العثمانيون القيام به، فكان منصب "شيخ الإسلام". وقد أحسن السلاطين العثمانيون

استثمار هذه الهيئة الدينية، خاصة في أوقات قوة وصلابة الدولة العثمانية. أما في مراحل ضعفها واضمحلالها فقد استغل السلاطين المرجعية الدينية في تحقيق أطماعهم. وتبرير أخطائهم، والتدليس على الناس. حتى وقر في نفوس العامة أن "شيخ الإسلام" اصبح "شيخ السلطان".

عوامل نمو الدولة العثمانية:

قبل أن نتحدث عن فتوحات العثمانيين وتوسعهم، يجدر بنا أن نلقي بعض الضوء على العوامل التي ساعدت العثمانيين على هذا التحول السريع من نظام القبلية المتنقلة الى نظام الإمارة المستقلة التي تطورت سريعا الى دولة كبرى مترامية الأطراف امتدت أقاليمها في آسيا وأوروبا وافريقيا، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ.

الهوامش:

(1) بنظر محمد فؤاد كوبريلي: المجع السابق ص ص12 – 19.

انتهت الهوامش.

ص23

أولا – استثمار العقيدة الدينية:

لقد كان لاعتناق الأتراك العثمانيين الإسلام أثر واضح في حياتهم. فقد أصبح الإسلام عقيدة دينية رسمية لهم منذ عهد الأمير عثمان الذي كان متحمسا لعقيدته الدينية. فاتخذ من مبادئ الإسلام نبراسا له في حكمه. فكان يستشير الفقهاء المسلمين ويتحرى العدل بين رعيته. هذا فضلا عما أثاره الإسلام في نفوس العثمانيين من وحدة العقيدة. وتعبئتهم بشعور ديني فياض، جعل قلوبهم تشتعل بعاطفة دينية متأججة لنشر الإسلام والذود عن بيضته(1). وهذا ما جعل المؤرخين الأوروبيين يعترفون في كتاباتهم بتلك الحقيقة. وبعد أن اعترتهم الدهشة من تمكن الأتراك العثمانيين –في بدايتهم المبكرة وهم لا يزالون مجرد جماعة بدائية قليلة العدد ضئيلة المورد- من إنزال الهزائم الساحقة بالدولة البيزنطية المسيحية العريقة في حضارتها، فنرى مؤرخهم الشهير "ستافريانوس" يؤكد أن نصر أرطغرل ومن بعده عثمان ومن جاء من بعده لم يكن بالامكان تحقيقه لولا عظمة الإسلام، وما غرسه في قلوبهم من حب عميق للقتال في سبيل الله ورغبة صادقة في نشر رسالة محمد بن عبد الله (صلعم)، التي تهون دونها النفس والنفيس. انه يضعهم في مرتبة الفتوح مثل الأسكندر الأكبر وجنكيزخان بل ويميزهم عنهم، لأنهم أبطال الحروب في التاريخ قد أسسوا امبراطورياتهم الشاسعة مستعنيين بالجيوش الجرارة والإمكانيات الهائلة التي لم يتحقق مثلها لأي من السلاطين العثمانيين الأوائل- ويضيف هذا المؤرخ قوله: "لقد كان الدين عاملا مهما، لقد استمد عثمان ومن خلفوه

الهوامش:

(1) عبد العزيزالشناوي: مرجع سبق ذكره ص521.

انتهت الهوامش.

ص24

قوتهم من الفيض المتدفق من الغزاة والمقاتلين في سبيل الله. الذين وفدوا من كل أنحاء الأناضول ليقاتلوا ضد أعداء الإسلام(1).

وهذه حقيقة فلقد تكونت في كل أنحاء الأناضول جمعية الإخوة الإسلامية التي كانت تدعو للجهاد في سبيل الله. وتتعاون من أجل اعداد المجاهدين لإعلاء كلمة الإسلام متخذين شعارهم الدائم "فضّل أخاك عن نفسك". وقد تحدث عنهم الرحالة الإسلامي ابن بطوطة حين زار آسيا الصغرى عام1333م، فوصف معيشتهم وتعاونهم وأثنى على كرمهم وسمو أخلاقهم (2). هذا فضلا عن إقبال كثير من المسيحيين لاعتناق الاسلام نظرا لما رأوه من سماحته التي تمثلت في معاملة الأتراك العثمانيين لهم، بل وصار منهم كبار القادة في جيش العثمانيين، وتولى كثير منهم أهم المناصب في الدولة(3).

ثانياً – الروح العسكرية القوية:

كما أوضحنا وما سوف يتضح بعد ذلك. تمتع الأتراك العثمانيين بالروح العسكرية القوية التي غدت سمة بارزة في تاريخهم. والتي استمدوها من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا. وعمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم، فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل. إن اجتماع

الهوامش:

(1) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية. دار الثقافة للطباعة والنشر-القاهرة 1976م، ص ص 14-15.

(2) زار ابن بطوطة هذه الجمعيات – التي اطلق عليها اسم " الإخوة الفتيان"- في مدن الناضول الرئيسية مثل: " انطاليا – بوردور – كلحصان – لاديق – ميلاس – يارجين – قونية – نيكدة – آقسراي – قيصرية – سيواس – كوموش - أرزنجان – أرضروم – بركي – ثيرة- مغنيسيان – باليكسي – بووسة – كره دي – كيوة – بنجة – مودورني – بولي – قسطموني – سينوب" وتحدث عن زواياهم، وقال: انها توجد في كل قصبة وقرية من قرى التركمان – ينظر رحلة ابن بطوطة، طبعة وزارة المعارف-بولاق 1934من ج 1ص ص224 –277. – محمد فؤاد كوبريليك المرجع السابق، ص156.

(3) محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق، ص15.

انتهت الهوامش.

ص25

العاطفة الدينية الجياشة مع الروح العسكرية القوية. يفسر السر وراء نجاح العثمانيين السريع في توسعاتهم. واسقاطهم للإمبراطورية البيزنطية العتيقة.

ثالثاً – استثمار الأوضاع السياسية وقتذاك:

لقد ساعدت الأوضاع السياسية في المناطق المحيطة بالعثمانيين على نجاح وسرعة الفتوحات و التوسعات العثمانية، إذ كان هناك فراغا سياسيا نتج عن الاعياء الشديد الذي أصاب الدولتين اللتين كانتا لهما كيان سياسي حينئذ في آسيا الصغرى، وهما : الدولة البيزنطية ودولة الروم السلاجقة؛ وذلك نتيجة للصراع الطويل والمرير الذي خاضته كل منهما ضد الأخرى من جهة. ونتيجة لتعرض دولة الروم السلاجقة للغزو المنغولي الذي أنهكها وتعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتيني(1). وانشغالها بالفتن والقلاقل في العاصمة وفي البلقان من جهة أخرى(2). وبذلك كانت الظروف في شبه جزيرة الأناضول مهيأة لظهور دولة فتية تملأ هذا الفراغ السياسي على أنقاض هاتين الدولتين المتداعيتين.

ص26

رابعاً – الحنكة الإدارية والسياسية للأمير عثمان :

عُرف عن عثمان (مؤسس الدولة العثمانية) الإخلاص والحكمة والشجاعة والصبر والإيمان والقوى والعدل. إضافة الى حنكته ومقدرته التي استثمرت هذه الظروف التي تمر بها امارته والبلدان المحيطة بها؛ فقد أظهر قوة خارقة في وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطا بعيدا على طريق التحول من قبيلة متجولة الى إمارة مستقرة. الأمر الذي ساعد على توطيد مركزها وتطورها تطورا سريعا الى دولة كبرى، كما انه لم يعمل على استعداء الإمارات المسلمة المجاورة له؛ وانما سالمها ضمانا لتعاونها للاتحاد ضد العدو الحقيقي للمسلمين وهو الدولة البيزنطية.

خامسا – العامل الجغرافي:

يجب الا نغفل العمل الجغرافي وأثره في نمو الإمارة العثمانية. ذلك أن تلك الإمارة قد نشأت في الجزء الشمالي الغربي لشبه جزيرة الأناضول على الحدود بين العالمين المسيحي والإسلامي. وقد فرض عليها ذلك الموقع اتباع سياسة حربية معينة وهى التوسع لحفظ كيانها بين القوى المحيطة بها. وهذا بعكس الامارات الداخلية التي لم يتوفر لها عوامل التطور والنمو؛ لأنه لم يكن باستطاعتها أن تتطور وتنمو بالسرعة التي تطورت ونمت بها امارات الحدود.

وفعلا استطاع الأمير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين الأمر الذي جعله موضع تقدير عند علاء الدين كيقباذ الثالث سلطان دولة الروم السلاجقة، فمنحه تقديرا لخدماته لقب

"عثمان غازي حضرتلري مرزبان عاليجاه عثمان شاه"، أي "حضرة عثمان الغازي حارس الحدود العالي الجاه عثمان شاه"(1).

سادسا – عِظم فريضة الجهاد لدى المسلمين:

جدير بالذكر أن تلك السياسة التوسعية تجاه ما يعرف بدار الحرب - أي "بلاد الكفر" حسب تعبير ذلك الزمان- كانت تضفي على أعمال العثمانيين صبغة الجهاد. الأمر الذي كان يرفع مكانتهم في أنظار المسلمين ويقوي تيار المتطوعين للانظمام اليهم من مختلف الامارات التركية الاسلامية. التي قامت على أنقاض الدولة السلوجقية. وكان سلاطين آل عثمان يزكون تلك الروح الاسلامية بحرصهم الشديد على نشر أخبار انتصاراتهم في مختلف البلاد الاسلامية. فقد كانوا كلما انتصروا على دولة نصرانية او فتحوا مدينة في البلاد الاوروبية يرسلون وفودا خاصة لإبلاغ الأمر الى ملوك المسلمين وأمرائهم ومن جملتهم سلاطين المماليك في مصر. وقد حفظت التواريخ العثمانية طائفة من هذه المكاتبات(2) .

على أن الأمر الذي لاشك فيه أن انتصارات العثمانيين كانت تضفي عليهم مكانة معنوية رفيعة في نفوس الشعوب الاسلامية، الأمر الذي ساعد بشكل كبير على سيطرة العثمانيين على البلاد العربية وعلى استمرار حكمهم مدة طويلة لهذه البلاد دون عناء شديد.

الهوامش:

(1) عبد العزيز الشناوي: مرجع سبق ذكره، ص523.

(2) ابن الوكيل: مصدر مخطوط سبق ذكره، ورقة57، القرماني. المصدر السابق ص310. ابن أياس (محمد بن أحمد بن أياس الحنفي المصري): بدائع الزهورفي وقائع الدهور-ثلاثة أجزاء. ج2ط1، مطبعة بولاق 1311هـ.ص ص44 –54 –122 –132. ابن تغري بردي (جمال الدين ابو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج16، تحقيق د. جمال الدين الشيال. فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة1972، ص ص70 –71. و ساطع الحصري: المرجع السابق، ص ص20 –28.

انتهت الهوامش.

سابعا – انهيار دولة السلاجقة:

هناك عامل مهم ساعد العثمانيين على الانطلاق بإماراتهم نحو التوسع وتدعيم كيانها كدولة مستقلة. فقد حدث ان أغار المغول سنة 699هـ/1300م على دولة الروم السلاجقة فى آسيا الصغرى فلم تصمد دولة السلاجقة هذه المرة لهذا الزحف المغولي فانهارت وقضي عليها تماما. وتوفي سلطانها علاء الدين الثالث(1). الأمر الذي نتج عنه استقلال الأمراء الخاضعين لتلك الدولة -ومنهم الأمير عثمان- بإماراتهم. واتجاه كل منهم الى تأسيس دولة مستقلة على أنقاض الدولة السلوجقية.

ونتيجة لهذا التطور تلقب عثمان بلقب "سلطان". وأُعلنت على الملأ "الدولة العثمانية" ، يحكمها السلطان عثمان. وأخذ يعد العدة لتوسيع رقعة امارته بما يتفق ومركزها الجديد، فرسم سياسته الجديدة على أساس مصاهرة حكام الدول المجاورة. والاستعانة بالمغامرين الذين يبغون الشهرة في ميدان القتال(2). وقد نجحت سياسته تلك في تحقيق إنجازات كبيرة لصالح دولته.

ومضى السلطان عثمان يوسع رقعة دولته في مختلف الاتجاهات حتى آخر لحظة من حياته، حتى تمكن من إحراز عدة انتصارات رائعة ضد المسيحيين وحلفائهم من التتار، وسيطر على عدة مدن وقرى اهمها "أسكي شهر"(3)، و"أينونو"، وقلعة "عك لحصار" التي بسيطرته عليها أصبح العثمانيون يطلون على البسفور. كما سيطر

الهوامش:

(1) قيل انه قتل أثناء المعارك، وقيل قتله ولده غياث الدين طمعا في الملك، وقد قتل غياث الدين على أيدي التتار أيضا. انظر محمد فريد بك، المصدر السابق، ص41.

(2) عبد العزيزالشناوي: المرجع السابق ص523 – 524.

(3) اتخذها عثمان عاصمة لملكه. ويطلق عليها المؤرخون المتقدمون "يكي شهر". ابن الوكيل: مصدر سبق ذكره ورقة51. القرماني، المصدر السابق: ص297.

انتهت الهوامش.

ص29

العثمانيون في عهده على الطريق المائي الموصل بين القسطنطينية وبروسة.

وكان السلطان عثمان على فراش الموت عام726هـ/1326م. حينما وصلته أنباء سيطرة جيوشه بقيادة ابنه أروخان على مدينة بروسة (وهى من أحصن المدن البيزنطية في آسيا الصغرى). وذلك بعد حصار لها دام ما يقرب من عشر سنوات.

وقد أوصى عثمان أن ينقل رفاته الى بروسة في كنيسة القصر التي حولت فورا الى مسجد. ومنذ ذلك الحين أصبحت بروسة عاصمة جديدة للأتراك العثمانيين، أما حاكم بروسة البيزنطي ويدعى "أفرنوس" فقد أعلن اسلامه. وأعطى لقب "بك"، وصار من أشهر القادة العثمانيين(1).

وهكذا، فقد سلم السلطان عثمان (مؤسس الدولة العثمانية) راية البلاد لابنه "أورخان" ومساحتها تبلغ حوالي16ألف كم2،بعد أن استلمها من أبيه أرطغرل4800كم2فقط (2) .

وكان مما أوصى به السلطان عثمان ابنه "أورخان" وهو على فراش الموت:

" يابني: إياك أن تشتغل بشئ لم يأمر به رب العالمين، واذا واجهتك معضلة فاتخذ من مشورة العلماء موئلا. يابني أحط من أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك، واياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

الهوامش:

(1) المصدران السابقين، نفس المكان: محمد فريد بك، المصدر السابق ص41. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ص ص523 –524. محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق ص ص14 – 15.

(2) محمد حرب: مرجع سابق، ص 11.

انتهت الهوامش.

ص30

يابنى انك تعلم ان غايتنا هى إرضاء رب العالمين وانه بالجهاد يعمُ نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضاة الله جلّ جلاله

يابنى ، لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم او سيطرة افراد فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت وهذه يا ولدى ما انت اهل له (1)

وهكذا يتضح لنا الاسس التى وضعها الامير عثمان الاول لمن بعده ومنها :

1- الإيمان العميق بالله والعمل على اتباع اوامره وشريعته فى شتى امور الدولة

2- مشورة العلماء وذوى الاختصاص المخلصين فى مجريات وامور الحكم والنزول على راى الشورى

3- تحديد الهدف الذى قامت من اجله دولة بنى عثمان وهو اعلان كلمه الله ونشر رحمه الإسلام بين الناس

4- تحديد الوسيله التى فرض من اجلها الجهاد فى سبيل الله وهى حماية الامه ونشر النور

مراحل التوسع العثمانى :

انطلق العثمانيون الى التوسع من اماراتهم الصغيرة فى الشمال الغربى لبلاد الاناضول تحدوهم الآمال فى تكوين امبراطورية واسعه وقد استطاعوا ان يءسسوا اكبر دولة اسلامية عرفها التاريخ الاسلامى فى عصورة المتأخرة فقد وصلوا فى زحفهم العسكرى الى اسوار فينا فى اوربا كما بسطوا سيطرتهم على الاناضول وعلى العالم العربى فى آسيا وافريقيا وقد مرت عمليات توسعهم هذه بثلاث مراحل :

هامش ص 30

(1) على حسون : العثمانيون والروس . المكتب الإسلامى للطباعه والنشر ص17-18محمد حرب : مرجع سابق ص 12

انتهى الهامش

ص 31

المرحلة الاولى :

امتدت هذه المرحلة من قيام الامارة العثمانيه فى الاناضول حتى وفاه السلطان بايزيد الثانى وتولى السلطان سليم الاول عرش الدولة العثمانية سنه1512م وقد اتسم التوسع فى ههذ المرحلة بالطابع البلقانى الاناضولى بمعنى ان الدولة اعثمانيه اقتصرت فى توسعها خلال هذه المرحلة على شبه جزيرة البلقان فى جنوب شرق اوربا وعلى شبه جزيرة الاناضول فى اسيا الصغرى كما شهدت هذه المرحلة تطور الدولة العثمانية من مرحلة الامارة الى مرحلة الدولة وانتقال عاصمتها من بروسة الى ادرنة ثم الى القسطنطينية حيث استقرت العاصمة بها وتغير اسمها الى اسلامبول

المرحلة الثانية :

اقتصر التوسع فى هذه المرحلة على بلاد الشرق الإسلامى فى اسيا وافريقيا كما اتسمت الدولة بالطابعين العربى والاسلامى فقد ضمت لاول مرة عدد من شعوب الامه العربية فزادت نسبه الرعايا المسلمين مما اكسبها زعامه العالم الإسلامى وتوكاب هذه المرحله عهد السلطان سليم الاول (1512-1520م) وفيها شملت حدود الدولة العثمانيه بلدانا اسيويه وافريقيه واوربيه

المرحلة الثالثه :

امتدت هذه المرحلة منذ ارتقاء السلطان سليمان المشرع عرش الدولة العثمانيه فى سنة1520م واستمرت على عهد خلفاة من بعده ، حتى توقف التوسع العثمانى عندما ضعفت الدولة

وبدات تواجه الاخطار الاوربية وفى هذه المرحلة اتجهت عمليه الغزو العسكرى العثمانى فى اوربا واسيا وافريقيا وفتحت جبهات بحرية فى كل من حوض البحر المتوسط والبحار الشرقيه (المحيط الهندى والخليج العربى) وفيها اصبحت الدولة العثمانية اوربية اسيوية افريقيه

ص 33

الفصل الثانى

عصر الفتوحات الاعظم (من اورخان الى سليمان المشرع)

ص 35

اورخان (1326-1360) م

ولد اورخان عام (687-1288م) وهى السنه التى تولى ابوة فيها الحكم وهو ثانى ابناء ابيه من حيث السن لكن يبدو انه كان اكثرهم نباهة واشجعهم فتولى السلطنة

نشا اورخان فى كنف ابيه عثمان الذى حرص على اعداده لتولى المسئولية من بعده فعهد اليه بقيادة الجيوش المرسلة الى حدود الدولة البيزنطية ومن ثم اصبح بارزا فى المجال العسكرى حيث اسس الجيش العثمانى الجديد (الانكشارى) وانهى نفوذ البيزنطيين فى اسيا الصغرى وفى عهده بدات الفتوحات الاسلامية فى الشرق الاوربى

ظهور منصب الصدر الاعظم

تولى اورخان الحكم بعد وفاة ابيه عثمان سنه726ه –1326م فقسم شؤون الدولة بين اخية علاء الدين وبين ولديه (سليمان ومراد) فجعل من اخية وزيرا يختص بالشئون الداخلية وهذه الوظيفه التى عرفت فيما بعد ب الصدر الاعظم التى تعادل منصب رئيس الوزراء حاليا فكان علاء الدين اول صدر اعظم فى تاريخ الدولة العثمانية (1)

وكانت ل علاء الدين انجازات عظيمة فى الشأن الداخلى واظهر براعته الفائقه فيها ومنها ما يلى

1- سك العملة

2- تنسيق لباس المسئوولين والعسكريين

3- تنظيم الجيش

هامش ص 35

(1) محمد فريد بك ، مصدر سابق ص 41-42عبد العزيز الشناوى مرجع سابق ص595

انتهى الهامش

ص 36

فمن ناحية سك العملة امر فى عام1328م بضرب النقود الفضية باسم اورخان وكان وجه العملة يحمل عبارة " خلد الله ملكه" ولم تكن هذه العملة تحمل ما يدل على زمان الضرب ولا مكانه

ومن ناحية الملابس اهتم علاء الدين بالازياء التى يرتديها رجال الدولة والعسكريون والمدنيون من رجال البلاط وارباب المناصب وغيرهم فخصص لكل مجموعه وظائف شكل ولون الملابس التى يرتدونها (1)

الجيش الانكشارى الجديد

اما قيما يتعلق بالجيش فقد وضع علاء الدين له نظاما جديدا يكفل له الاستقرار والدوام إذ كانت الجيوش قبل ذلك لا تُجمع إلا وقت الحرب ثم تنصرف الجنود بعدها هذا فضلا من خشيته من تحزب كل فريق من الجند الى القبيله التابعه لها مما يؤدى الى انفصام عُرى الوحدة العثمانية التى كانوا يسعون فى ايجادها ومن ثك اخذ بمشورة احدة القادة العسكريين وهو – قرة خليل (2) فانشا الجيش الانكشارى

ويقضى هذا النظام بان الجنود الجدد يختارون فى سن صغيرة من ابناء المسلمين الذين تربوا تربية صوفيه جهادية او من الاولاد الذين تربوا تربيه صوفيه جهادية او من الاولاد الذين اسروا فى الحروب ثم يتم فصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم واصلهم وتربيتهم تربيه اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم ابا الا السلطان ولا حرفة الا الجهاد فى سبيل الله

وعندما اكتمل تعليمهم وتدريبهم ارسلهم السلطان الى الحاج بكناش شيخ الطريقه البكتاشيه ليدعو لهم بالخير فدعا لهم

هامش ص36

(1) المرجع السابق هامش ص595

(2) وهو الذى صار فيما بعد وزيرا اولا باسم خير الدين باشا ، محمد فريد بك مصدر سابق ص42

انتهى الهامش

ص37

الشيخ بالنصر على الاعداء وقال فليكن اسمهم " بنى تشارى" (1) ويرسم بالتركية هكذا (بكيجارى) بمعنى الجيش الجديد ثم حرف فى العربية فصار " انكشارى"

وقد ارتقى الجيش الانكشارى فى النظام والتدريب وزاد عدده وعدته حتى اصبح لا يعول الا عليه فى الحروب التى كان شعاره فيها شهيدا او غازيا واتخذ علما له من قماشة حمراء يتوسطها هلال اسفله سيف سموه " ذو الفقار" تيمنا بسيف الامام على كرم الله وجهة (2) ولعل علم تركيا اليوم يعود الى هذا العلم غير انه لا يوجد به سيف

لذا كان الجيش الانكشارى فى فترة قوة الدوله العثمانية من اهم عوامل توسع العثمانيين وبناء امبراطوريتهم ولا صحه لما دونه بعض مؤرخى العرب فى كتبهم من ان اورخان كون الجيش الانكشارى من ابناء النصارى الذين تم انتزاعهم من بين اهليهم واحجبروا على اعتناق الاسلام فهذه فريه مكذوبة لا اصل لها روجها الغرب لتشوية التاريخ العثمانى

وقد بقى هذا النظام قائما الى ان استبدت الانكشارية بالسلطة واساءوا استعمالها واصبحوا منبع الشغب والقلاقل فى الدولة فقضى عليهم السلطان محمود الثانى سنه1241ه- 1826م

هامش ص37

(1) ابن الوكيل ، مصدر مخطوط سبق ذكره ورقه52، الفرمانى " مصدر سابق" ص299

ويلاحظ ان هاتين المصدرين جعلا نشأة الجيش الانكشارى فى عهد مراد الاول بن اورخان وانظر سليمان بن خليل بن بطرس جاويش ، التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية بيروت1887م ، ص.ص10-11

(2) على الصلابى : مرجع سبق ذكره ص87

انتهى الهامش

ص38

الفتوحات على عهد اورخان

اما اورخان فقد انصرفت اهتماماته بالفتوحات والعمليات الحربية فواصل الحرب ضد دولة البيزنطية ففتح مدينة نيقوميديا(1) سنة 1327م ونيقية (2) سنة1330م وكانت من اهم المدن البيزنطية وعهد الى ولى عهده سليمان بحكمها

وبفتح نيقوميديا ونيقية بالاضافة الى بروسة يكون اورخان قد قضى على النفوذ البيزنطى فى شمال غربى اسيا الصغرى (3) وبعد ذلك اتجه اروخان الى التوسع على حساب امارات الاناضول فضم امارة " قره سى الى مملكته سنة1336م منتهزا فرصة الشقاق و النزاع بين ولدى اميرها المتوفى

وفى سنة1355ماستنجد (جان باليولوج) امبراطور القسطنطينية بالسلطان اورخان ليساعده ضد (استيفان دوشان) ملك الصرب- الذى حشد الحشود و استولى على بلاد البلغار ثم زحف قاصدا القسطنطينية- فى مقابل زواج اروخان من ابنة امبراطور القسطنطينية فأجابه السلطان اروخان الى طلبه و عبر الجيش العثمانى الى الساحل الاوروبى لكنه لم يلبس ان عاد دون قتال نظرا لوفاة ملك الصرب المهاجم فجأة (5)

هامش ص 38

(1) هى مدينة (Ezmit)الحالية و هى عاصمة محافظة فوجه ايلى و تبعد100كم شرق اسطنبول

(2) هى مدينة (Izmik)الحالية و هى قريبة من Ezmitو تقع فى اقصى شمال غرب الاناضول

(3) ابن الوكيل مصدر مخطوط سبق ذكره ورقه 51القرمانى مصدر سابق ص298عبدالعزيز الشناوى مرجع سابق ص594-595

(4) محمد فريد بك مصدر سابق ص 43

(5) الصدر السابق ص43-44

انتهى الهامش

ص 39

ولكن نزول العثمانيين الى الشاطىء الاوربى جعلهم يدركون حقيقة الضعف الذى وصلت اليه الدولة البيزنطية الامر الذى جعل اورخان يجد فى تجهيز الجيوش سرا لاجتياز البحر وفتح بعض النقاط على الشاطىء الاوربى بحيث تكون مركزا لاعمال العثمانيين فى اوربا وتحقيقا لبشارة النبى (ﷺ) بفتح القسطنطينية ففى سنه1357م تمن ولى العهد سليمان من العبور الى الشاطىء الاووبرى بجيش يبلغ عدده ثلاثين الفا حيت فتح مدينه " غاليبولى " فكانت اول مدينة فى قارة اوربا تضم للدولة العثمانية

وهكذا انتقلت الفتوحات الإسلامية العثمانية الى القارة الاوربيه بعد ان كانت حروبها السابقة داخل اسيا الصغرى وبدات صفحة جديدة من الانتصارات العثمانية ضد الدولة البيزنطية على الاراضى الاوربية

والحق ان فترة حكم اورخان كانت ذات اثر كبير فى تزطيد اركان الدولة العثمانية دينيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا فقد اتبع اورخات فى البلاد المفتوحة سياسة اللين والرفق وهو ماجذب اليه قلوب الاهالى حيث لم يعارضهم فى اقامة شعائر دينهم وسمح لهم بحرية الحركة والتنقل ونحو ذلك كما انه اسس للنظم المدنية والعسكرية فى المدن التى يفتحها وعزز فيها الامن الداخلى وبنى المساجد والمدارس ورصد الاوقاف عليها واقام المنشات العامة الشاسعه مما يشهد بتعلق اورخان بمقاصد دينه وحكمته وبعد نظرة

وقد ادت هذه السايسة السمحة الى ان الغالبيه العظمى من الروم البيزنطين الذين كانوا يسكنون هذه المناطق دخلوا الاسلام طوعا وافتى الفقهاء الذين كان السلاطين يستشيرونهم فيما يتصل بتسريعات الدولة ونطمها بان كل من اسلم باهلة من السكان صار من اهل الدولة وهه الفتوى سهلت على العثمانيين

صفحة 40

فتح إمارة "قره سي" الواقعة على البحر سنة736هـ/1336م. وهذا سيطر الأتراك العثمانيون على الركن الشمالي الغربي لآسيا الصغرى.

ومن مظاهر عهد أورخان أيضا أن تسامع الأتراك في شرقي آسيا بانتصارات بني عمومتهم، فتوافدوا عليهم ألوفا. وانضموا إلى جيوشهم. فتضاعفت أعداد الأتراك العثمانيين مرات كثيرة.

وفي سنة1359م توفي ولي العهد سليمان يسبب سقوطه من على ظهر جواده. ودفن في مدينة "غاليبولي" التي شهدت أمجاده العسكرية. وفي العام التالي (761هـ-1360م) مات والده أورخان بعد أن بدأ الجهاد في المبدأن الأوروبي تمهيدا لجهود من سيأتي بعهده(1). مات أورخان بعد حكم دام38سنة. وقد بلغت مساحة الأراضي العثمانية في هذا التاريخ95000كم. وهي تمثل ستة أضعاف ما كانت عليه عند جلوس أورخان على كرسي الحكم.

هامش صفحة 40

(1) ابن الوكيل، مصدر مخطوط سبق ذكره. ورقة 51. الفرماني. مصدر سابق. ص298.

انتهى الهامش

صفحة 41

مراد الأول (1360-1389م):

ولد مراد الأول عام1326م. أي في سنة تولي أبيه أورخان الحكم. وتولى سلطنة الدولة العثمانية بعد وفاة أبيه سنة1360م. وفي عهد تمت فتوحات مهمة جدا. خاصة على الجانب الأوروبي في البلقان.

فتح أدرنة عام1360م واتخاذها عاصمة:

بعد أن سيطر مراد الأول على أنقرة عاصمة إمارة القرمان التي أراد أميرها أن يثير القلاقل في الأناضول(1) –اتجه في العام الذي تولى فيه إلى فتح بلدان الجانب الشرقي الأوروبي تلك البلدان التي كانت تسمى وقتها "بلاد الروملي" أو "الروم إيلي" والتي تسمي حاليا "بلاد البلقان".

ففي عام1361م فتح مراد الأول "أدرنة" ذات الأهمية الاستراتيجية العظيمة(2). إذ كانت تعد ثاني المدن البيزنطية بعد القسطنطينية في الأهمية: ومن ثم اتخذها مراد الأول عاصمة لدولته منذ عام1366م. وذلك للأسباب التالية:

1- لتكون العاصمة قريبة من ميادين الفتوحات القادمة في أوربا.

2- استغلال مناعة واستحكامات أدرنة الحربية.

3- تكون خطوة تمهيدية لفتح القسطنطينية.

هامش صفحة 41

(1) إبراهيم حليم بك. مصدر سابق. ص41.

(2) يصفها ابن الوكيل بقوله: "وهي مدينة عظيمة تجري من تحتها ثلاثة أنهار: تونجة وأرطة. ومزيج. وهي من الإقليم الخامس وبينها وين القسطنينية خمسة وتسعون ميلا" (انظر الورقة 52)

انتهى الهامش

صفحة 42

وقد ظلت أدرنة عاصمة للدولة العثمانية حتى سقوط القسطنطينية سنة1453م.

كما فتح مراد الأول "فليبة" (جنوب بلغاريا حاليا) وغيرها من المدن العظيمة. فضاق بذلك نطاق أملاك الدولة البيزنطية وأصبحت القسطنطينية محاطة من جهة أوربا بالممتلكات العثمانية(1).

التحالفات الصليبية:

أحدثت انتصارات العثمانيين على الجانب الأوروبي دويا هائلا عند حكام الممالك الأوروبية، خاصة بعد سقوط أدرنة في أيدي العثمانيين. مما دفع الأوروبيين بقيادة بابا الفاتيكان القيام بعدة تحالفات صليبية ضد الدولة العثمانية.

هامش صفحة 42

(1) المصدر السابق، ورقة 52، والقرماني مصدر سابق ص299. وابراهيم حليم بك. مصدر سابق، ص ص41-42.

انتهى الهامش.

ص43

التحالف الصليبي الأول1363م:

دعا البابا "أوربانوس الخامس" (بابا الفاتيكان) نصارى أوروبا للقيام بحرب صليبية ضد العثمانيين بهدف: إنقاذ أدرنة من أيدي المسلمين وطرد الأتراك من أوروبا. وتلبية لدعوته الصليبية. خرج ملوك البوسنة والمجر والصرب بجيش عظيم ساروا به إلى أدرنة. فخارت قواهم أمام بسالة العثمانيين. وهزموا شر هزيمة سنة1363م في معركة مارتيزا.

وكان من نتائج انتصار العثمانيين:

أولاً: فتح تراقيا ومقدونيا. ووقوع بلغاريا كلها في تحت سيطرة العثمانيين بعد مقاومة محدودة سنة1366م. وقَبِلَ ملك بلغاريا دفع الجزية للسلطان العثماني.

ثانيًا: كما ألحق العثمانيون بقوات الصرب هزيمة منكرة بالقرب من أدرنة سنة1371م. وقد فتح هذا النصر أمام العثمانيين الطريق لفتح صوفيا ونيش سنة1385-1386م. كما سمح لملك الصرب "لازار" بالاحتفاظ ببقية إمارته مقابل دفع الجزية (1).

ثالثًا: قيام بعض الممالك المسيحية في البلقان بعقد اتفاقيات ومعاهدات مع الدولة العثمانية اتقاءً من توسعاتها. مقابل دفع مبالغ للحماية.

التحالف الصليبي الثاني1389م:

عاود الفزع والاضطراب بعض إمارات أوروبا الشرقية من جديد.

فكونوا حلفًا صليبيًا جديدًا لقهر العثمانيين. وخرج إليهم السلطان

هامش ص43

(1)المصدر السابق . ص41-44 .محمد فريد بك . مصدر سابق. ص ص45-47.

انتهى الهامش

ص44

مراد الأول على رأس جيشه. وتقابل الجمعان في موقعة قوصوة (1) (791هـ / 1389). فكانت معركة مهولة. انتهت بانتصار العثمانيين مرة ثانية بالرغم من سقوط الكثير من القتلى من الطرفين.

استشهاد مراد الأول عام1389م:

لم تتم فرحة العثمانيين بانتصارهم: فقد أستشهد السلطان مراد الأول غِيلةً على يد جندي صربي كان بين الجرحى . وقصة ذلك: أنه في حين كان السلطان يتفقد القتلى والجرحى قام من بينهم هذا الجندي. متجهًا نحو السلطان. فأمسك به الحرس. لكنه قال لهم إنه يريد مقابلة السلطان ليعلن إسلامه على يديه، فمسحوا له بعد موافقة السلطان . فلما أقترب منه تظاهر الجندي بأنه يرغب في تقبيل يد السلطان. وقام بحركة سريعة بإخراج خنجر مسموم من كُمه .

وطعن به السلطان . فمات على أثره (2) ، وهو ينطق الشهادة بعد أن شكر ربه، وأوصى بالأسرى خيرًا . وبطاعة أبنه بايزيد؛ استكمالاً لرسالة الدولة العثمانية بنشر الإسلام في أوروبا . وتحرير مواطنيها من عبودية الكنيسة.

مع ذلك ، فقد بذل العثمانيون جهودًا جبارة حتى تمكنوا من أسر "لازار" ملك الصرب وعدد كبير من النبلاء. وتخلصوا منهم انتقامًا للسلطان مراد الأول (3).

يقول القرماني: "فمن ذلك سنّ العثمانيون عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك واحد من طرف كُمه وآخر من كُمه الآخر احترازًا من ذلك"(1).

هامش ص44

1- تكتبها المراجع القديمة: قوس أوه" و"قوس أو" (انظر ابن الوكيل والقرماني).

2- أبن الوكيل . مصدر مخطوط سبق ذكره. ورقة52.53 . القرماني، مصدر سابق .299.

3- عبدالعزيز الشناوي. مرجع سابق ، ص ص606-607.

انتهى الهامش

ص45

كان من أهم نتائج موقعة قوصوه1389م فتح بلاد الصرب.

ودخولها في حوزة الدولة العثمانية. وانتشار الإسلام بين الصربيين وغيرهم من مواطني البلقان(2).

ولم تكن فتوحات وتوسعات مراد الأول قاصرة على أوروبا فقط؛ وإنما توّسع أيضًا في الأناضول فضمّ أنقرة عاصمة إمارة القرمان كما سبق أن أشرنا ، كما ضم بعض القلاع الحصينة إلى ملكه عن طريق الشراء . يقول القرماني: "وفي سنة783هـ /1380م أشترى السلطان مراد خان من صاحب بلاد حميد قلاع وهي يلواج، ويكي شهر ، وآق شهر، وقره أغاج ، وسيدي شهر"(3)

عاش السلطان مراد الأول عمرًا ناهزًا ال65سنة، وحكم الدولة العثمانية29سنة، أشتُهَر فيها بالعدل رغم أن كنيسة روما أعلنته "كافرًا" . و"عدوًّا لعيسى" عليه السلام. ومع ذلك تبعه كثير من المسيحيين الذين استظلوا بحكمه، ونالوا حبّه: حيث كان مراد الأول يعاملهم وِفق مقاصد الإسلام النبيلة . وقد لمس هؤلاء المسيحيين ذلك بمقارنة معاملة مراد بمعاملة بابا روما.

يقول المؤرخ البيزنطي "هلكو نديلاس" عن السلطان مراد الأول: "قام مراد بأعمال هامة كثيرة. دخل37معركة، سواء في الأناضول أو البلقان، خرج منها جميعًا ظافرًا. وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون نظر لفروق العرق والدين".

هامش ص45

1- أبن الوكيل مصدر مخطوط سبق ذكره. ورقة53 . القرماني، مصدر سابق . ص300

2- عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق ، ص607.

3- أبن الوكيل ، مصدر مخطوط سبق ذكره، ورقة52، القرماني، مصدر سابق، ص300.

انتهى الهامش

ص46

ويقول عنه المؤرخ الفرنسي كرينارد: "كان مراد واحد من أكبر رجالات آل عثمان ، وإذا قوّمناه تقويمًا شخصيًا نجده في مستوى أعلى من كل حكام اوروبا في عهده".

وبلغة الأرقام يقوم بعض المؤرخين: إن السلطان مراد الأول ورث عن أبيه إمارة كبيرة بلغت95ألف كم2 . وعند استشهاده تسلّم أبنه بايزيد الإمارة العثمانية بعد أن بلغت مساحتها نصف مليون كم2، أي إنها زادت في فترة حكمه الـ29سنة أكثر من خمسة أضعاف المساحة التي تركها له أبوه أورخان(1).

بايزيد الأول (1389-1402م):

ولد بايزيد عام1345م. تولى الحكم بعد وفاة أبيه مراد الأول ، وهو رابع سلاطين الدولة العثمانية، واستمرت مدة حكمه ثمانية أعوام ، عُرف فيها بالشجاعة والشهامة وتحمسه للفتوحات الإسلامية ، وكان مثل البرق في تحركاته العسكرية في الأناضول والبلقان؛ لذا أطلق عليه لقب: "يلدرم"، أي "الصاعقة".

وفي عهده تم إخضاع باقي الإمارات التركية في الأناضول(2). كما وطّد أركان دولته في أوروبا ؛ حيث أقرّ ملك الصرب في حكم بلاده مقابل دفع الجزية. كما أخضع أقليم والأشيا (في رومانيا الحالية)، ثم أكتسح

هامش 46

1- محمد حرب: مرجع سبق ذكره، ص ص15-16، محمد الصلابي : مرجع سبق ذكره. ص ص97-98.

2- لمعرفة التفاصيل أنظر المصدرين السابقين. الأول ص ص53-54، والثاني ص ص300-301.

انتهى الهامش

بايزيد بلغاريا وضمها إلى الأملاك العثمانية، ولما أسلم أبن ملك الصرب عيّنه بايزيد حاكمًا لسامسون في الأناضول(1). ثم تفرغ بايزيد الأول لحصار القسطنطينية تمهيدًا لفتحها.

التحالف الصليبي الثالث1396م:

أثارت أنباء الانتصارات العثمانية التي تحقت على يد بايزيد الأول ومن سبقوه ـ أثارت الدول الأوروبية والبابا، وعمّ الهول والفزع أنحائها وقامت هَبّة دينية صليبية تحض أوروبا على المسارعة إلى التصدي لطوفان الفتح العثماني في أوروبا فتكوّن تحالف أوروبي صليبي ثالث دعا له البابا بونيفاس التاسع تحت شعار: سحق الأتراك أولاً ثم احتلال القدس".

وتزعم هذا التحالف "سيجسموند" ملك المجر، لأن الخطر أصبح قاب قوسين أو أدنى من دولته. وتحمست أوروبا كلها تقريبًا ، حيث اشتركت فيه كل من: إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، واسكتلندا، وسويسرا ولوكسمبورج، والأراضي المنخفضة الجنوبية ،وبعض الإمارات الإيطالية، وقدمت البندقية ما يلزم من الأموال والأسطول، كما انضمت إلى الحملة قوات من بولندا، وإقليم الأشيا، وإقليم ترنسلفانيا، كما أسهم أيضًا فرسان القديس يوحنا المقيمين في جزيرة رودس بأسطولهم وفرسانهم.

ولقد بلغ التجمع الأوروبي في تلك الحملة حوالي130ألف مقاتل من مختلف الجنسيات . وزحفت تلك الجموع الحاشدة حتى وصلت إلى مدينة نيكوبوليس على نهر الدانوب، وفرضت عليها حصارًا شديدًا.

هامش ص47

1- محمد فريد بك ، مصدر سابق ، ص ص48-49.

انتهى الهامش

وتجاه ذلك، رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية، ودمر أدوات الحصار الثقيلة خوفًا من استيلاء العدو عليها، وأسرع كالبرق إلى نيكوبوليس بجيش يقارب جيش الصليبيين عددًا ، ويمتاز عنه بوحدته وحسن تنظيمه، واتقاد الحماس الإسلامي بين جنوده.

وفي فجر 25من سبتمبر سنة1396م، دارت رحى الحرب عند نيكوبوليس،

حيث لقي الصليبيون هزيمة منكرة، وتفككت أوصالهم، وتشتت جموعهم، ولاذ أغلبيتهم بالفرار من المعركة، وخرج العثمانيون بغنائم كثيرة ، وعددًا ضخمًا من الأسرى الذين كان من بينهم كثير من مشاهير الفرسان والنبلاء في أوروبا، الأمر الذي جعل بايزيد يحصل منهم على فدية كبيرة.

ص49

ومما يذكر في ذلك؛ أن الكونت دي نيفر قائد قوات بورغونيا وولي عهدها قد أقسم ألا يقاتل العثمانيين مرة أخرى، وبعد إطلاق بايزيد سراحه، أراد بايزيد أن يحلله من قسمه فقال له: "أيها الكونت، لك أن تعود مرة أخرى لمحاربتي لكي تمسح العار الذي لحق بك، وأعلم أني لا أخاف من عودتك ، وإلا ما كنت أطلقت سراحك ، تعال وقتما تشاء فستجدني وجنودي أمامك؛ وذلك لأني وُلدتُ لكي أنتصر على المحاربين المسيحيين الذين أجدهم أمامي"(1).

ولقد نتج عن انتصار العثمانيين بعد هذا التكتل والتحالف الصليبي، توطيد وترسيخ أقدام العثمانيين في البلقان(2)، وانكسار هيبة المجر في نفوس الأوروبيين ، إذ فرّ ملكهم سيجسموند (قائد التحالف) مع غيره من القادة والقوات الآخرين .

كما أستبشر العالم الإسلامي بهذا النصر العظيم ، وباركه عدد من الحكام المسلمين، ومنهم الخليفة العباسي المتوكل من القاهرة، الذي أرسل للسلطان بايزيد الأول تشريفًا وخُلعًا وسيفًا، وهذا معناه الاعتراف ببايزيد سلطانًا على بلاد الروم.

وبعد واقعة نيكوبوليس، اتجه بايزيد الأول بكل جهوده نحو فتح القسطنطينية التي طالما تاقت نفسه ونفس الفاتحين من المسلمين لفتحها ، فطلب من إمبراطور الدولة البيزنطية مانويل الثاني(3) تسليم القسطنطينية وإلا جاءه بما لا قبل له به ، وبخصوص ذلك يقول القرماني:

هامش 49

1- محمد حرب: مرجع سبق ذكره، ص18. محمد الصلابي: مرجع سابق، ص103.

2- محمد فريد بك : مصدر سابق ، ص ص49-50.

3- يُذكر في المراجع العربية أسم "تكور" أنظر القرماني ، ص301، وأبن الوكيل ، الورقة 54.

انتهى الهامش

ص 50

و"أرسل إلى تكور صاحب القسطنطينية يقول له: إما أن تخرج من البلاد وتسلمها إليّ. وإما سرتُ إليك. فأتيتك فى أعز أماكنك. فخاف منه والتزم له بالخراج فى كل سنة عشرة آلاف ذهب. وأن يبنى للمسلمين فى داخل المدينة محلة يسكنون فيها. ويكون لهم فيها مسجد وجامع وقاض يفصل في الخصومات فرضي بذلك"(1).

غير أن فتح القسطنطينية كان هدفاً رئيسياً للسلطان بايزيد الأول. ومن ثم فقد ضرب نطاقاً محكماً من الحصار حول العاصمة البيزنطية. ولم تستجب أوروبا لنداءات واستنجادات الإمبراطور البيزنطي. حتى كانت إنها تتوقع استسلام القسطنطينية بين الحين والآخر.

معركة أنقرة 1402م:

وفي تلك الأثناء. جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قائد المغول يتقدم في جيش جرار لاكتساح الدولة العثمانية من جهة الشرق؛ إذ كان يؤمن بعقيدة أنه لابد للأرض من سلطان واحد كما في السماء إله واحد! فرفع بايزيد الأول الحصار عن القسطنطينية للمرة الثانية. واتجه مسرعاً لمواجهة الخطر المغولي(2).

وتذكر بعض المراجع العربية أن سبب زحف تيمورلنك على الدولة العثمانية هو استنجاد أمراء الأناضول السابقين- الذين دخلت إمارتهم تحت حكم بايزيد الأول. وفروا إلى الحدود واستنجدوا بتيمورلنك؛ الأمر الذي جعله يكتب إلى بايزيد الأول قائلا:

هامش ص50

(1) المصدران السابقان. الأول ص301. والثاني الورقة 54.

(2) عبد العزيز الشناوي. مرجع سابق. ص ص621-622.

انتهى الهامش

ص51

"إنك رجل مجاهد في سبيل الله. وأنا لا أحب قتالك. ولكن انظر أي البلاد التي كانت معك من أبيك وجدك فاقنع بها وسلم لي البلاد الباقية." وقد أثارت هذه الرسالة حفيظة بايزيد. فردّ عليه بخطاب كله تهوين من شأن تيمورلنك. وإزدراء به وبقومه. وتعريض بهم وبأصلهم. وإشادة بشجاعة العثمانين. فكتب له قائلاً: "وأين للتتار الطغام الضرب بالبتار الحسام. وما لهم رشق سوى النبال والسهام بخلاف ضراغم الأروام. وأما نحن فالحرب دأبنا. والضرب طلابنا. والجهاد صنعتنا. رجالنا باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة. فكم لضرباتهم في آذان الكفار من طنة. ولسيوفهم من قلانس الفوارس من رنة". ثم ختم خطابه بعبارات استفزازية قائلا: "وأنا أعلم أن هذا الكلام يبعثك إلى بلادنا انبعاثاً، فأن لم تأتِ تكن زوجتك طالقاً ثلاثاً، وإن قصدت بلادي وفررتُ عنك ولم أقابلك البتة. فزوجاتي إذ ذاك طوالق ثلاثاً البتة"(1).

وفي يوم الأربعاء 17ذي الحجة سنة804هـ/ 20يوليو1402م، التقى الجمعان في معركة أنقرة الشهيرة. وكانت الهزيمة من نصيب العثمانين وأُسِرَ بايزيد الأول. وبقي في أسره حتى مات كمداً بعد ذلك بثمانية أشهر وسمح تيمورلنك بنقل جثمانه إلى مقبرته في بروسة.

هامش ص51

(1) ابن الوكيل. مصدر مخطوط سبق ذكره. ورقة54. القرماني. مصدر سابق. ص ص301-302.

انتهى الهامش

ص 52

نتائج الهزية:

أدت هزيمة العثمانين في معركة أنقر1402م إلى ما يلى:

1- تأخر فتح القسطنطينية حوالي نصف قرن!!

2- نقض الإمبراطور البيزنطي للعهود. فأمر بهدم المساجد التي شُيدت فى القسطنطينية، وبطرد أئمة هذه المساجد وقاضي المسلمين، وأخرج الرعايا العثمانين من العاصمة(1).

3- إعلان بعض البلدان الأوروبية في البلقان خروجها من تحت الحكم العثماني.

4- تخريب الكثير من البنية التحتية للدولة العثمانية.

5- نشوب حروب مسلحة بين أبناء بايزيد الأول. استمر أكثر من عشر سنوات صراعاً على السلطة(2).

(صورة بها خريطة توضح مكان معركة أنقرة ذى الحجة804هـ/ يزليو1402م)

هامش ص52

(1)المصدران السابقان، الأول الورقة54. والثاني ص ص302-303.

(2) كان الأخوة المتصارعون هم: عيسى جلبي في الأناضول، وتم اغتياله عام1406م. وسليمان جلبي في الروملي، واغتيل عام 1411م. وموسى جلبي في الروملي، واغتيل عام1413م. ومحمد جلبي الذي أصبح سلطاناً حتى وفاته عام1421م.

انتهى الهامش

ص53

محمد الأول (1413-1421م):

انتهت صراعات الأخـوة علـى السلطة باعتلاء محمد بن بايزيد عرش السلطنة عـام1413م، وقد عرف في التاريخ بـ "محمد الأول". ويسمى أيضـاً "محمد جلبي" المولود عام1379م(1).

ولبيان ذلك، فقد كان للسلطان بايزيد الأول خمسة أولاد، الأول مصطفى ويبدو أنه قتل في معركة أنقرة. والثاني: موسى، وقد أسر مع أبيه في المعركـة ذاتها. والثلاثة الآخرون نجحوا في الفرار، وأكبرهم سليمان الـذي ذهب إلى أدرنة وأعلن نفسه سلطانا وعيسى ذهب إلى بروسه، وأعلن للناس أنه خليفـة لأبيه. ومحمد ذهب إلى مكان آخر، واشتعلت الحرب بين ثلاثتـهم. ثم أطلق تيمور سراح موسى ليؤجج الاحتراب أكثر، وظل الصراع مستمراً عشر سنوات كاملة!

ولم يكن للسلطان محمد الأول فتوح حربية، ولكنه أسدى للدولة العثمانية خدمة جليلة، بعمله على إزالة آثار هزيمة معركة أنقرة، وإعادة تنظيم الدولة من جديد، واستتباب الأمر فيها بالقضاء على الصراعات والنزاعات. مما مهد السبيل أمام خلفائه مـن السلاطين، ليتابعوا سياسة التوسع الإقليمي مرة أخرى في أوروبـا وغيرها. حتى أطلق عليه بعض المؤرخين أنه يعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

هامش ص53

1- التفاصيل ينظر إبراهيم بك حليم: مصدر سابق. ص ص50-51. محمد فريد بك. مصدر سابق.ص ص51-52.

انتهى الهامش

ص54

مراد الثاني (1421-1451م):

ولد السلطان مراد الثانى عام1404م. وتولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان محمد الأول عرش السلطنة العثمانية. ومنذ توليه السلطنة بدأ يواجه المكائد والمتاعب التي كرس إمبراطور القسطنطينية جهده على إثارتها في وجهه.

ومن مظاهر ذلك: أن الإمبراطور البيزنطي قام بتحريض ومساعدة أحد أمراء البيت العثماني وهو مصطفي بن بايزيد (عم السلطان مرادالثاني)(1). فقام الأمير مصطفي بمحاصرة غـاليبولي بغيـة الإستيلاء عليها واتخاذها قاعدة له. ولكن السلطان مراد الثاني استطاع أن يرفع الحصار عن المدينة. وأن يقبض على الأمير مصطفي ويعدمه. ثم حاصرالقسطنطينية تمهيداً لفتحها انتقاماً مـن إمبراطورها. ولكنـه لم يلبث أن اضطر إلى رفع الحصار عنها مرة أخـرى لمواجهة خروج أخيـه مصطفي عليه في الأناضول. وقد استطاع مراد الثاني إخمـاد هـذه الفتنة. ولقي أخوه مصطفي مصيره المحتوم بعد استسلامه.

ثم اتجه مراد الثاني إلى فتح مدينـة سالونيك. ولكـن البنادقة اعترضوا طريقه. واشـتروا المدينـة مـن الإمبراطـور البيزنطي. فوافق السلطان مراد على هذا الوضع مقابل جزيـة تدفعها لـه البندقيـة؛

هامش ص54

(1) ذكر بعض المؤرخين أن مصطفي هذا لم يكن عم السلطان مراد الثاني، بل كان شخصاً آخر انتحل شخصية مراد بن بايزيد. إستناداً إلى أن الأخير قد قتل في أنقرة إبان الحروب الأهلية التي اندلعت بين أبناء بايزيد. عبد العزيزالشناوي. مرجع سابق. هامش ص624.

انتهى الهامش

ص55

وذلك حتى يستكمل استعداته الحربيـة. وفي يوم20مـن مارس سـنة1430م سيطرت قوات مراد الثاني علـى مدينة سالونيك(1).

متاعب الحكم العثماني في ألبانيا:

بعد أن فرغ مراد الثاني من قمع حركـــات التمرد في البلقان وجّـه نشاطه الحربي في جبهتين رئيسيتين. هما: المجر وألبانيا. ففي المجـر، شن السلطان مراد الثاني هجمات متعاقبة حالفه التوفيق فيها. أما في ألبانيا، فقد استطاع مراد الثاني أن يبســط سيطرته علـى الجزء الجنوبي منها. أما الجزء الشمالي فقد خـاض العثمانيون فيـه صراعاً حربياً مريراً ضد المقاومة العنيدة التي شنها الألبانيون ضـد الجيوش العثمانية. فكان مراد الثاني يرسل الجيوش تلو الأخرى. ولكن الهزائم كانت تنتظرهم. حتى إن الحملتين اللتين قادهمـا مراد الثاني بنفسه لقيا الهزيمة المنكرة. حـتى اضـطر السلطان فى النهاية إلى الإسراع بالانسحاب خشية تعرض جيشه لخطر الإبادة من جهة، ولمواجهة الخطر الجيش المجري من جهة أخرى.

ويرجع عـدم نجاح العثمانيين في بسط سيطرتهم على ألبانيا إلى الطبيعية الجبلية لهذا الإقليم، الأمر الذي يجعله لا يصـلح إلا لحرب العصابات. أما الحرب النظامية فكانت تعرض الجيش المهاجم إلى مذابح مروعة. هذا فضلاً عن المساعدات التي كان يظفر بها الألبانيون من جمهورية البندقية عن طريق البحـر فكانت حكومة البندقية تدرك خطورة السيطرة العثمانية على هذا الإقليم المهـم بشاطئيه وموانيه المهمة. وأنه باستطاعة العثمانيين قطع خطـوط المواصلات البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر الموسـط والعالم الخارجي.

هامش ص55

(1) محمد فريد بك. مصدر سابق.ص ص54،55،56. عبد العزيز الشناوي. مرجع سابق. ص ص624-626.

انتهى الهامش

ص56

بل وحجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك. ومن ثم لم يشهد الحكم العثماني استقراراً في عهد السلطان مراد الثاني(1).

التحالف الصليبي الرابع1444م:

بعد نجاح حملات السلطان مراد الثاني على المجر هبّت أوروبا من جديد إلى تحالف صليبي رابع بقصد طرد العثمانيين من أوروبا. وقد اشترك في هذا الحلف: البابوية، والمجر، وبولندا، والصرب، ووالاشيا، وجَنَوَة، والبندقية، والإمبراطورية البيزنطية، ودوقية برجنديا. كما انضمت الى الحلف كتائب من الألمان والتشيك. واستندت قيادة جيوش الحلف إلى القائد المجري "هونياد". وقد استطاعت القوات الصليبية الثأر لهزيمتهم في واقعة نيكوبوليس، وايقاع أربع هزائم متتالية بالقوات العثمانية، مما اضطر العثمانيون إلى طلب الصلح.

معاهدة سزيجند1444م:

جاءت أغلب بنود معاهدة (سزيجند)(848هـ/1444م)، في غير صالح الدولة العثمانية، ففيها:

1- فقد العثمانيون أهم أقاليم بلاد الصرب ووالاشيا.

2- تعهد فيها كلا من السلطان مراد الثاني وفلاديسلاف ملك المجر أن يكون نهر الدانوب حداً فاصلاً لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشر سنوات.

3- تنازل السلطان مراد عن الأفلاق (رومانيا) للمجر.

4- افتداء محمود شلبي (زوج ابنة السلطان) الذي كان قائداً عامًّا للجيوش العثمانية بمبلغ60ألف دوقية.

هامش ص56

(1) المرجع السابق ص ص626-630.

انتهى الهامش

ص57

وعلى أثر ذلك رأى السلطان مراد الثاني أن يستريح من عناء الملك، لاسيما قد ازدادت حالته النفسية سوءاً بعد موت ابنه الكبير علاء الدين، فنزل عن العرش لابنه "محمد الثاني" وكان حديث السن لا يتجاوز الأربعة عشر ربيعاً.

ردّ الاعتبار من الصليبيين1444م:

اعتكف السلطان مراد الثاني متعبداً في مكان منعزل، الأمر الذي أطمع الصليبيين في الدولة العثمانية، فنقضوا عهدهم مع السلطان في العام نفسه. وزحف هونياد المجري بجيشه على بلغاريا وحاصر مدينة "فارنا" و "وارنة"، مما اضطر مراد الثاني إلى الخروج من عزلته الدينية، وقاد جيشاً كثيفاً استطاع به أن يوقع بالصليبيين هزيمة ساحقة في واقعة "فارنا" في نوفمبر1444م.

وأراد السلطان مراد الثاني بعد هذا النصر أن يعود إلى عزلته الدينية، ولكن حدث أن قام الإنكشارية سنة1445م بحركة تمرد، ورأى أن ابنه محمد أصغر من مواجهة الموقف، فعاد نهائياً إلى مباشرة سلطاته.

وقد استطاع مراد الثاني خلال السنوات الباقية من حكمه (1445-1451م) أن يخضع الصرب سلمياً عن طريق زواجه بابنة أميرها، وأن يوقع هزيمة ساحقة بالجيش المجري فى معركة قوصوة الثانية (17أكتوبر 1448م)، الذى كان يقوده هونياد الذي أراد أن يثأر لهزيمته في واقعة فارنا(1).

هامش ص57

(1) محمد فريد بك، مصدر سابق ص ص56-58. وابراهيم حليم بك، مصدر سابق ص ص58-62. عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق ص ص630-635.

انتهى الهامش

ص58

وفاة مراد الثاني ووصيته:

توفي السلطان مراد الثاني في قصر أدرنة سنة855هـ/1451م، عن عمر يناهز 47عاماً تاركاً لابنه محمد الثاني مُلكاً واسعاً ثابت الأركان. وبناءً على وصيته (رحمه الله) دُفِنَ في أحد جوانب جامع مرادية في بورصة، ووصى بأن لا يُبنَى على قبره شيء، وأن تُبنى أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفَّاظ لقراءة القرآن الكريم وأن يُدفن في يوم الجمعة، فنُفِّذَت وصيَّته.

(صورة توضح الفتوحات الاسلامية فى اوروبا)

ص59

محمد الثاني "الفاتح" (1451-1481م):

محمد الثاني هو السلطان السابع في سلسلة آل عثمان. تولى الحكم بعد وفاة أبيه في فبراير1451م وعمره 21سنة. واستمر فيه ما يقرب من ثلاثين سنة كانت خيراً وبركة على عموم المسلمين، ولذلك لُقِّب ب "الفاتح" وب "أبي الخيرات"، ففي عهده تم أعظم حدث في تاريخ الدولة العثمانية وفي تاريخ المسلمين في العصر الحديث.

نشأ محمد الثاني تنشئة دينية قامت على حب الإسلام والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام (ﷺ)، ولذلك اتصف بالتُّقى والورع وحبّ العلم والعلماء، ونشر علومهم. اهتم بمعرفة تاريخ الأمم وعلوم إدارة البلدان وأُفيد منهما، واشتهر بالحزم والشجاعة والذكاء والعزيمة والإصرار. امتاز بقوة الشخصية وتجسيد العدل وإحقاق الحقوق. عمّر العديد من المدن وزينها بالمرافق والخدمات. فبنى المدارس والمستشفيات واهتم بالصناعة والتجارة وتنظيم الإدارة وتدريب وتسليح الجيش بكل جديد. ولاعجب في ذلك، فقد شاء القدر أن يخصه ببشارة النبي (ﷺ) منذ أكثر من ثمانية قرون.

فقد استطاع السلطان محمد الثاني الشهير ب "محمد الفاتح" رغم صغر سنه أن يحقق الحلم الذي داعب خيال الفاتحين المسلمسن من قبله وهو فتح القسطنطينية.

فتح القسطنطينية (857هـ /1453م)

يعتبر فتح القسطنطينية على أيدي العثمانيين سنة 857هـ /1453م أهم أحداث القرن الخامس عشر الميلادي. بل ويعد جمهرة المؤرخين هذا الحدث نهاية العصور الوسطى في أوروبا وبداية العصر الحديث

نبذة عن القسطنطينية :

يرجع تاريخ القسطنطينية الى الإمبراطور قسطنطين الأكبر الذي نقل عاصمة الدولة الرومانية القديمة الى مدينة "بيزنطة" على شواطئ البسفور سنة 330م. وقد سميت منذ ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة الى اسم هذا الإمبراطور.

وبعد وفاة قسطنطين تم تقسيم الدولة الرومانية في سنة 395م الى دولتين:

الأولى: الدولة الرومانية الغربية. وعاصمتها روما. ولم تعمر طويلا لكثرة غارات الأمم المتبربرة عليها. فسقطت تحت أقدام القوط سنة 476م.

الأخرى: الدولة الرومانية الشرقية(1). وعاصمتها القسطنطينية. وقد لبثت حوالي ألف سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوروبية من القوط والسلاف وغيرهم. كما صدت هجمات الفرس والعرب المسلمين عن حاضرتها نفسها وعن معظم بلاد أوروبا. أما ممتلكاتها خارج أوروبا فلم تستطع الدفاع عنها كثيرا؛

الهوامش:

ويطلق عليها أيضا اسم الدولة البيزنطية نسبة الى الإسم القديم لعاصمتها وهو "بيزنطة" كما يطلق عليها أيضا اسم دولة الروم، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه التسمية الأخيرة بقوله تعالى في سورة الروم :" غلبت الروم في أدنى الأرض ..." الآية.

انتهت الهوامش.

فقد انتزع المسلمون من يدها شرقي آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر وبرقة وأفريقية، وجزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

ورغم ضعف الدولة البيزنطية، فقد ظلت القسطنطينية معقلا للمسيحية الشرقية، ووكرا للمؤامرات التي تدبر ضد الدولة العثمانية التي امتدت فتوحاتها في آسيا الصغرى والبلقان، حتى أصبح أمبراطور القسطنطينية ليس له سلطان خارج اسوارها(1).

وقبل الحديث عن أحداث فتح القسطنطينية من المهم أن نلقي الضوء على مكانة هذه المدينة، وأهمية موقعها ومدى حصانتها الطبيعية لنعرف حجم الجهود التي بذلت في فتحها.

تحتل مدينة القسطنطينية موقعا حصينا فريدا بين مدن العالم. ويكفي أن ندرك ذلك من أن نلقي عليها نظرة على الخريطة. حيث تحيط بها البحار من ثلاثة اتجاهات. وتقع عند ملتقي القارتين آسيا وأوروبا. وقد حبتها الطبيعة الى جانب ذلك بأسباب المتعة والقوة

وجودة الطقس. ولها ميناء مهم جدا يسمى "القرن الذهبي"، ويعد أوسع ميناء في العالم. كما تعتبر المدينة من أعظم المراكز التجارية في العالم إذ تأتي اليها المتاجر من كل صوب برا وبحرا، ولذا قيل: " لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها"(2).

وقد أدرك الغزاة والفاتحون منذ القدم خطورة هذه المدينة وأهمية موقعها، فحاولوا حصارها والسيطرة عليها، غير أن المدينة بمناعة

الهوامش:

سليمان بن خليل بن بطرس جاويش: التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية. ص ص5 – 10.

محمد مصطفى: فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح. ص36.

ص62

موقعها وقوة حصونها استطاعت أن تصد عنها كل من حاول الاستيلاء عليها.

وقد كان للمسلمين الأوائل نصيب كبير من محولات فتحها وأعظم محاولاتهم ما كان في عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان، وسليمان بن عبد الملك في القرن الأول الهجري (السابع والثامن الميلاديين). وبالرغم من كثرة الجنود وعظم العدة التي أعدها الخليفة معاوية الأول. ومن أتى بعده. وما أظهروه من قوة العزم والبسالة في الحصار والقتال برا وبحرا، ومع ذلك فقد ردتهم المدينة بأسوارها القوية ونيرانها الإغريقية المدمرة. ومن هنا ظلت المدينة حوالي عشرة قرون معقلا للمسيحية(1).

وقد كان من الطبيعي بعد أن استقر أمر الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ولاصقوا دولة الروم البيزنطية أن يتجهوا الى هذه العاصمة المنيعة. وقد أدرك سلاطين آل عثمان كغيرهم قيمة هذه المدينة وعظم قدرها. فحاصروها وحاولوا فتحها ولكن لم تساعدهم تطورات الأحداث ولم يكن لديهم حينذاك من القوة والعدة ما يمكنهم من فتحها ، فحاصرها بايزيد الأول والسلطان مراد الثاني لكنهما لم يصلا الى فتحها كما رأينا قبل ذلك.

وظل أمر المدينة كذلك حتى جاء السلطان محمد الفاتح الذي استطاع بما قدمه من قوة العزيمة وإحكام القيادة وحسن التظيم والمثابرة في الحصار والقتال أن يبلغ فتح هذه المدينة وبذلك حقق حلم الفاتحين الذين كانوا يحلمون به منذ نحو ألف عام.

الهوامش:

عبد العزيز الشناوي. مرجع السابق ص ص638 – 639. محمد كمال الدسوقي مرجع السابق ص ص33 – 34.

انتهت الهوامش.

ص63

مقدمات فتح القسطنطينية:

أدرك السلطان محمد الفاتح بعد أن تولى الحكم انه لن يستقر له أمن ولا طمأنينة ما بقيت مدينة القسطنطينية في يد غيره. وقد كان تصرف إمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين الحادي عشر (1448 – 1453م) وبعض الأمراء والحكام في آسيا الصغرى وفي أوروبا إزاء السلطان العثماني بما استحثه على القيام بهذا الفتح: ذلك أن السلطان الفاتح لم يكد يجلس على العرش حتى ثار ضده "امير القرمان". وأثار معه عدة أشخاص زاعما انهم أبناء الأمراء القدامى لبعض الإمارات الأخرى التي سيطر عليها العثمانيون مثل : كرميان وأيدين ومنتشا ... إلخ. ودفعهم الى هذه الإمارات ليستولوا عليها بحجة انها ميراثهم القديم.

وقد بعث السلطان الفاتح أمير أمراء الأناضول "إسحق باشا" لإخماد هذه الحركة. وسار هو في أثره، ولما فوجئ أمير القرمان ومن حذا حذوه بهذا الزحف الخاطف. وأنه أضعف من أن يناجزه تقدم الى الفاتح مستعطفا راجيا إياه الإبقاء على إمارته. فرق محمد له وأجابه الى طلبه.

وقد انتهز قسطنطين زحف الفاتح الى آسيا الصغرى لقمع حركة أمير القرمان، فغدر به ونقض معاهدة السلام التي ابرمت بينه وبين الفاتح بعد توليه الحكم(1). وليس ببعيد أن يكون ثمة تآمر بين أمير القرمان وإمبراطور البيزنطيين للإيقاع بالسلطان العثماني والقضاء عليه. على أية حال فقد فشلت هذه المؤامرة المزدوجة وذلك بخضوع أمير القرمان كما رأينا. أما قسطنطين فسنرى كيف تم التعامل معه.

الهوامش:

(1) محمد فريد بك، مصدر سابق، ص ص58 – 59ن وإبراهيم حليم بك، مصدر سابق ص ص63 – 64. محمد كمال الدسوقي، مرجع سابق ص35.

ص64

فبعد ان عاد السلطان محمد الفاتح الى عاصمة أدرنة أخذ يعد العدة لتأديب الإمبراطور قسطنطين. فقرر حصار القسطنطينية وفتحها لأنها تهدد دولته من وقت لآخر.

السيطرة على منافذ المرور:

وأول ما قام به الفاتح من استعدادات بناء قلعة منيعة على الشاطئ الأوروبي من البسفور على بعد7كم من القسطنطينية. عند أضيق نقطة من البسفور وهى قلعة "روم إيلي حصار" بإرتفاع82مترا فوقفت الى جوار أختها القلعة التي بناها بايزيد على الشاطئ الأسيوي والتي تسمى قلعة "أناضولي حصار". حيث لا يفصلهما الا660مترا، فتم التحكم في عبور السفن من شرق البسفور الي غربه. وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول الى القسطنطينية من الماطق التي تقع شرقهان مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي كانت تستطيع دعم المدينة عند الحاجة.

وهكذا أصبح العثمانيون يسيطرون على ضفتي البسفور الأوروبية والأسيوية بواسطة قواتهم وتحصيناتهم في القلعتين، وبذلك يحولون دون وصول أي مساعدة للقسطنطينية عن طريق البحر(1).

تجديد المعاهدات:

جدد السلطان الفاتح معاهدات واتفاقيات الهدنة التي كانت تربط الدولة العثمانية بالمجر والصرب ووالاشيا وجمهورية جنوا والبندقية وراجيز وأهل جنوة المقيمين في حي جلاطة بالقسطنطينية.

الهوامش:

(1) ابن الوكيل. مصدر مخطوط سبق ذكره ورقة56. محمد فريد بك. مصدر سابق ص59.

انتهت الهوامش.

ص65

وقد رحب الجميع بتلك الاتفاقيات. وكانت تلك حركة سياسية بارعة لتأمين جانب القوات العثمانية عند هجومها على القسطنطينية.

وعندما رأى الإمبراطور قسطنطين عظم القوة والاستعدادات التي أعدها الفاتح لغزو القسطنطينية. حاول إثناء السلطان الفاتح بالهدايا والعطايا. ومحاولة رشاوي بعض مسؤوليه الا أن ذلك لم يجد له قبولا فأيقن الإمبراطور ألا مناص من الحرب فبعث الى دول أوروبا مستغيثا ومستنجدا. وأعلن في رسالته الى بابا الفاتيكان أنه وافق على ما قرره "مجمع فلورنسا" بخصوص توحيد الكنيستين الشرقية والغربية (الأرثوذكسية والكاثوليكية)، وناشده الإسراع في ارسال المعونة والمدد.

ولم تفلح مساعي قسطنطين هذه أيضا. فأغلب ملوك أوروبا منشغلون بمشاكلهم الخاصة، ونزاعهم الداخلي. وقد جلب اعلان قسطنطين قبوله توحيد الكنيستين الكثير من المشاكل له، منها ظهور حركة معارضة أرثوذوكسية أعلنت عدم قبولها للكاثوليك وصرحت بأن الأرثوذوكس يفضلون وجود العمائم التركية في القسطنطينية عن وجود القلنسوة اللاتينية.

وكان أكثر الأوروبيين اهتماما بأمر القسطنطينية البابوية وجنوة والبندقية لدوافع شخصية خاصة بهم، هذا فضلا عن بعض المتطوعين الذين لم يزد عددهم عن ألف مقاتل قدموا من أسبانيا وايطاليا والمانيا، بالاضافة الى سبعمائة مقاتل قدموا من جنوة تحت قيادة ضابط ماهر اسمه "جيوفاني جستنياني". الذي لعب دورا

ص 66

أساسيا في معاونة الأمبراطور قسطنطين. وكان سببا في إطالة أمد الحصار(1).

حصار القسطنطينية:

بعد أن أتم السلطان الفاتح كل استعداداته زحف بجيشه البالغ عدده (265,000) من المشاة والفرسان المسلحين بالبنادق تصحبهم المدفعية الثقيلة(2). قاصدا القسطنطينية. وكان في طليعة هذا الجيش الشيوخ والعلماء والدراويش الذين كان لهم دور كبير جدا في الناحية القتالية وفي تحفيز الجنود وبث روح الجهاد فيهم.

وما ان وصل الجيش الى مشارف المدينة حتى خطب السلطان الفاتح في جنوده خطبة عظيمة حاثا فيها على الجهاد وصدق القتال وقرأ آيات من القرآن الكريم. والأحاديث النبوية الشريفة المبشرة بفتح المدينة.

وفي يوم 27ربيع الأول 857هـ / 6من ابريل 1453م. بدأ السلطان الفاتح في محاصرة القسطنطينية فعلا بعد أن عبأ الجيش ونظم الصفوف ووزع آلات الحصار والقتال ووضع كل شئ في موضعهم ونسقه كأحسن ما يكون التنسيق.

كما قام الأسطول العثماني البالغ عدده حوالي (400) سفينة بفرض حصار بحري على العاصمة. وان كان لم يستطع إكمال حركة

الهوامش:

(1) محمد كمال الدسوقي. مرجع سابق ص 27-28.

(2) التي صنعها أحد المهندسين المجريين المعروفين. ويدعى "أوريان" وكان في خدمة الإمبراطور البيزنطي الدي لم يدفع له مرتباته فانتقل الى خدمة السلطان الذي أجزل له العطاء. عبد العزيز الشناوي. مرجع سابق ص643.

ص 67

الحصار لتعذر دخوله ميناء القرن الذهبي نظرا لوجود سلسلة ضخمة في مدخله تحرسها بعض السفن النصرانية(1).

ولكي نوضح خطة السلطان الفاتح في حصار القسطنطينية نرى لزاما علينا أن نذكر في إيجاز وصفا لموقع المدينة وحصانتها الطبيعية وتحصيناتها المنيعة.

فالقسطنطينية مدينة مثلثة الشكل إذ هي أشبه بمثلث متساوي الساقين محاط بأسوار من كل جانب. ورأسه بارز شرقا في ميناء البسفور والضلع الشمالي يطل على ميناء القرن الذهبي. والضلع الجنوبي يطل على بحر مرمرة أما قاعدة هذا المثلث فهى الأسوار الغربية التي تفصل المدينة عن باقي القارة الأوروبية. وكان على هذا الجانب (الأوروبي) سوران عظيمان يمتدان من شاطئ القرن الذهبي الى شاطئ بحر مرمرة. وكان السور الخارجي من المتانة والقوة بحيث يكفي لحماية أكبر مدينة من مدن العصور الوسطى. وبين هذين السورين فراغ يبلغ متوسط عرضه نحو 60قدما. ويقع أمام السور

الهوامش:

ابن الوكيل.مصدر مخطوط سبق ذكره، ورقة 56.

ص 68

الخارجي سور ثالث ليس بذي خطر. وقد سمي هذا السور بالمتراس وأمام هذا المتراس خندق واسع يبلغ عرضه حوالي60قدما. ويعتبر هذا الخندق بمثابة خط الدفاع الأول عن مدينة القسطنطينية، وللسور الخارجي (الثاني) أبواب كثيرة أهمها ثلاثة(1).

أما خطة السلطان الفاتح في الحصار فقد أقام جيشه أمام السور الخارجي. وجعله ثلاثة أقسام: الميمنة والميسرة والقلب. وقد أقام الفاتح وراء هذا القلب مركز القيادة العامة للإشراف على تحركات الجند وسير القتال.

أما قسطنطين فقد أعد كل ما استطاع إعداده من جند وعتاد لمقاومة هذا الحصار. وقد شدد الحراسة بصفة خاصة على ميناء القرن الذهبي خشية أن تقتحمه السفن العثمانية، فعمد الى سد مدخله بسلسلة ضخمة لحماية السفن النصرانية ورائها. ووزع جنوده على أسوار القسطنطينية واتخذ مكانه في القلب تجاه جيوش السلطان الفاتح.

وبعد أن أحكم العثمانيون الحصار. وأخذت مدافعهم تطلق قذائفها الهائلة على أسوار القسطنطينية وسط دقات الطبول وتكبير الجنود المسلمين وتهليلهم.

الهوامش:

سليمان بن خليل بن بطرس جاويش. مصدر سبق ذكره. ص ص31، 25. ادوارد جيبسون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها. ثلاثة أجزاء جـ1، ترجمة محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة1969م. ص345.

كان عدد سكان العاصمة الصالحين لحمل السلاح يبلغ نحو35ألف. ولم يتقدم منهم للدفاع عنها سوى خمسة آلاف، انضم اليهم نحو 400رجل من سكان جنوة وألف وستمائة من جنسيات مختلفة. بالاضافة الى أعداد أخرى من المتطوعين من أوروبا حيث بلغ المجموع الكلي لقوات الامبراطور عدد يتراوح بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف. أما الأسطول فكان يتكون من23سفينة يونانية و6أجنبية. عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق. ص643 – 644.

ص 69

وفي يوم 18أبريل حاول العثمانيون اقتحام سور المدينة من الوسط كما حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة القائمة عند مدخل القرن الذهبي. ولكن باءت المحاولتان بالفشل. كما تمكنت بعد ذلك بيومين أربع سفن قادمة من جنوة تحمل المعدات والطعام والرجال من دخول المدينة رغم محاولة الأسطول العثماني منعها من توصيل الإمدادات لسكان المدينة المحاصرين. وقد اغتبط أهل القسطنطينية بنجاحهم في صد الأتراك برا وبحرا وقوى أملهم في مقاومة العثمانيين، وبدا أن المدينة ستتمكن من المقاومة لمدة طويلة(1).

خطة عجيبة!!

لم تدم فرحة أهل القسطنطينية طويلا. فبعد يومين فقط اذهل السلطان محمد الفاتح الجميع داخل المدينة بما فعله حين نفذ خطة جريئة عجيبة فريدة من نوعها في التاريخ. لقد أدرك الفاتح بفطنته وعبقريته العسكرية أنه لا أمل في فتح القسطنطينية إلا بالهجوم عليها برا وبحرا في وقت واحد وذلك لا يتأتى إلا بالسيطرة على ميناء القرن الذهبي ولكن أنى له ذلك والميناء تسده سلسلة حديدية ضخمة تقوم بحراستها السفن النصرانية. وتمنع دخول السفن العثمانية الى هذا الميناء لمهاجمة المدينة من أضعف جوانبها!!

أمام تلك العقبات لاحت للفاتح فكرة بارعة موفقة لنقل سفنه برا الى القرن الذهبي دون التعرض للسلاسل الحديدية في مدخله .. لقد أمر بتمهيد طريق على البر وفرشه بالخشب المدهون بالشحم لتنزلق عليه السفن بسهولة حتى تصل من عند البحر بالبسفور الى القرن الذهبي من الداخل عند الميناء. وبهذه الطريقة تمكن الفاتح من إدخال

الهوامش:

إدوارد جيبون، مرجع سابق. جـ3. ص ص349 – 351.

ص70

حوالى سبعين سفينة عثمانية جرها العمال على المزالق و البكر لمسافة عشرة أميال(1).

فإذا علمنا طول المسافة، و حجم السفن، و كثرة العوائق، و بساطة الوسائل، بالإضافة إلى إنجاز هذا العمل الضخم فى ليلة واحدة(21-22أبريل1453م)، لأدركنا أهمية هذا العمل التاريخى الفريد من نوعه فى تلك العصور، و قد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن هذا العمل بقوله:

" ما رأينا و لا سمعنا من قبل بمثل هذا الشئ الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار، و تعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلا من الأمواج. لقد فاق محمد الثانى بهذا العمل الإسكندر الأكبر" (2).

هامش ص70

(1) ابن الوكيل، مصدر مخطوط سبق ذكره، ورقة57، ادوارد جيبون،مرجع سابق، جـ3،ص352-353، عبد العزيز الشناوى، مرجع سابق، ص644. و هناك من يقول ثلاثة أميال فقط.

(2) محمد الصلابى : مرجع سابق، ص143.

انتهى الهامش.

ص71

و قد أثارت هذه الحادثة الفزع و الرعب فى صفوف قوات الإمبراطور البيزنطى، و فوجئ سكان القسطنطينية عندما استيقظوا صبيحة اليوم الثانى و العشرين من ابريل على صيحات المسلمين و تكبيراتهم المدوية عقب نزولهم بسفنهم من القرن الذهبى. و قد بدأت تلك السفن – فور نزولها من الميناء- فى قصف قوات المدينة و أسوارها بوابل من القذائف (1).

و بذلك أحكمت حلقة الحصار حول القسطنطينية؛ فالسفن العثمانية فى القرن الذهبى و فى بحر مرمرة و فى مدخل البسفور و الدردنيل، و الجيش البرى تحت السور الخارجى الذى يطل على أوروبا.

و فى ظل هذه الأوضاع، حاول قسطنطين أكثر من مرة إقناع السلطان الفاتح بالتراجع عن الفتح مقابل دفع له ما يشاء، لكن السلطان لم يقبل، و ردّ برسالة إلى عموم من فى المدينة قائلاً: " فليسلم لى إمبراطوركم مدينة القسطنطينية، و أقسم بأن جيشى لن يتعرض لأحد فى نفسه و ماله و عرضه. و من شاء بقى فى المدينة عاش فيها فى أمن و سلام، و من شاء رحل عنها حيث أراد فى أمن و سلام أيضاً "(2).

و فى رسالة أخرى رفض قسطنطين التخلى عن المدينة صلحاً، قائلاً: " حسناً، عن قريب سيكون لى فى القسطنطينية عرش أو يكون لى فيها قبر" (3)

و بالطبع لم يكن من الممكن أبداً- و الحالة هذه – أن تظل السفن العثمانية و السفن النصرانية قابعة فى القرن الذهبى دون صدام، كما

هامش ص 71

(1) ابن الوكيل، مصدر مخطوط سبق ذكره، ورقة57 .

(2) محمد الصلابى: مرجع سابق، ص139.

(3) المرجع نفسه، ص150.

انتهى الهامش.

ص72

شدد الفاتح هجماته البرية على سور المدينة، الأمر الذى أنهك قوى المحاصرين، و فرض عليهم عدم الراحة، حتى أصبحت نفوسهم مكدودة،و أعصابهم مرهقة من طول الحصار الذى استمر حوالى خمسين يوما، و نقص طعامهم، مترقبين هجوم العثمانيين عليهم بين لحظة و أخرى.

يوم الفتح العظيم:

أمر الفاتح بإعداد الهجوم الشامل على المدينة من البر و البحر. و فى فجر يوم الثلاثاء20جمادى الأول سنة857هـ / 29مايو سنة 1453م، دقت الطبول فى جميع أرجاء المعسكر العثمانى إيذاناً ببدء الهجوم. و انطلق بعدها الجنود العثمانيون يهجمون على سور القسطنطينية من البر و البحر، و استمر القتال بين الفريقين مريراً عنيفاً، و لتحفيز همم الجنود العثمانيين أعلن السلطان الفاتح قائلاً لهم: " الغنائم كلها لكم و تكفينى المدينة" (1).

و تحت وابل من النبال و السهام التى أمطر بها المدافعون تقدم الجيش العثمانى إلى أسوار المدينة، و فى لمح البصر، اقتحم بعض الجنود العثمانيين أسوار المدينة، و رفرفت أعلامهم على بعض أبراجهم، ثم تدفقت جموع الجند على المدينة كالطوفان يتسلقون أسوارها و يفتحون أبوابها. و رأى الإمبراطور قسطنطين نهاية الإمبراطورية البيزنطية، و هو يزفر أنفاسه الأخيرة،و قد أصيب بعدد كثير من

هامش ص72

(1) المصدر السابق، ورقة57.

انتهى الهامش

ص73

الطعنات فى وجهه و فى مؤخرة رقبته و سقط صريعاً فى ساحة الوغى (1).

و لم يقف شئ فى وجه العثمانيين بعد مقتل الإمبراطور، فدخلوا القسطنطينية ظافرين. و كان ذلك فى يوم الثلاثاء29مايو سنة 1453م (2).

و فى يوم الفتح توجه السلطان الفاتح للمدينة على ظهر جواده يحفه كبار رجاله، و ما أن بلغ منتصف المدينة حتى توقف عن السير، و خطب فيمن حوله خطبة عظيمة، حمد فيها الله، و أثنى عليه، و هنأ رجال دولته بتحقيق بشارة النبى فيهم، و نهاهم عن القتل و النهب، و حث على إعطاء الأمان لأهل المدينة، و حفظ حقوقهم، ثم ترجل عن جواده، و استقبل القبلة، و سجد على الأرض شاكراً لله على ما منحه من توفيق و نصر(3).

و قد قام السلطان الفاتح بإيفاد رسله الى جميع أنحاء العالم الإسلامى ليبشرهم بالفتح، فأرسلوا إليه وفود التهنئة(4). و كتب التاريخ المعاصرة للحدث مليئة بذكر هذه الأخبار، و بنصوص هذه الرسائل المتبادلة، و الأشعار التى قيلت، لاسيما فى مصر و بلاد الحجاز.

هامش ص73

(1) ويروى جيبون: أن الإمبراطور قسطنطين قال قبل أن يلفظ آخر أنفاسه:" أليس من بين المسيحيين من يقطع رأسى؟"، و ذلك خوفاً من وقوعه حياً فى يد العثمانيين. إدوارد جيبون، مرجع سابق، جـ3، ص361-362.

(2) عبد العزيز الشناوى، مرجع سابق، ص647-648.

(3) محمد فريد بك، مصدر سابق، ص61.

(4) ابن الوكيل، مصدر سابق، ورقة57، ابن اياس، مصدر سابق، جـ2، ص44،45،122،132.

انتهى الهامش

ص 74

أثر العامل الدينى فى فتح القسطنطينية:

لا شك أن العامل الدينى كان له أثره الفعال فى فتح القسطنطـينية، لاسيما إذا عرفنا أسلامية الدولة العثمانية منذ قيامها، و أنها اتخذت الجهاد فى سبيل الله شعاراً لها فى توسعها فى اوروبا. وأن التكتلات الأوروبية لوقف زحفها كانت صليبية بحتة، و من ثم غمر الحماس الدينى الطرفين المتحاربين، و أخذت الحرب بينهم الطابع الدينى، فاستمات البيزنطيون فى الدفاع عن القسطنطـينية باعتبارها معقل المسيحية الشرقية، كما صمم العثمانيون على فتحها و اتخاذها عاصمة لل باعتبارها معقل المسيحية الشرقية، كما صمم العثمانيون على فتحها و اتخاذها عاصمة للإسلام.

و من هنا، قام العلماء العثمانيون أهل الدين، و أفراد الطرق الصوفية بدور فعال فى تعبئة الشعور الدينى، مرددين حديثاً نُسِب الى النبى صلى الله عليه و سلم، الذى يقول فيه: " لتفتحن القسطنطـينية، و لنعم الأمير أميرها، و لنعم الجيش ذلك الجيش" (1).و كان السلطان محمد الفاتح لا يكف عن ترديد هذا الحديث آناء الليل و أطراف النهار، حتى أصبح بمثابة الشعار للجيش العثمانى، و يردده كل فرد فيه بلغته التى يفهمها(2).

أضف الى ذلك، ما رواه ابن الوكيل من أن الشيخ آق شمس الدين (ت1495م) معلم و مربى السلطان الفاتح، و الذى يعتبره العثمانيون خليفة الفقيه الكبير الشيخ البخارى- قد بشر السلطان محمد الثانى بالنصر، و قال له:" ستفتح القسطنطـينية إن شاء الله على المسلمين، و سيدخلونها من المحل الفلانى فى اليوم الفلانى من هذا العام وقت الضحوة الكبرى...". كما روى هذا الشيخ أنه رأى فى المنام.

هامش ص 74

(1)مسند الإمام أحمد، (335/4)

(2)عبد العزيز الشناوى، مرجع سابق، ص644-645

انتهى الهامش

ص 75

الصحابى الجليل أبا أيوب الأنصارى(1) يحدد له موضع قبره الذى دفن فيه على مقربة من أسوار القسطنطـينية، و يقول:" شكراً لله بسعيكم الذى خلصتمونى من ظلمة الكفر". فأمر السلطان محمد الثانى الجنود العثمانيين بحفر المكان بحضور الشيخ، فوجدوا القبر يضم جثمان هذا الصحابى الجليل(2)، فكان لهذا الكشف أثره الكبير فى إشعال نفوس الجند بالحماس الدينى الجارف لفتح القسطنطـينية، تلك المدينة التى استشهد أمام أسوارها أحد صحابة الرسول صلى الله عليه و سلم.

و فى الجانب البيزنطى أيضاً، أُذيعت نبوءات دينية استهدف منها أصحابها تثبيط همم اليونانيين و تخذيلهم عن الدفاع عن القسطنطينية بحجة أن سقوط القسطنطـينية يخفف من حدة الويلات التى يتعرض لها سكان العاصمة. و كان من بين هذه النبوءات قولهم: إنه حين يصل العثمانيين منتصرين الى مكان معين داخل العاصمة، فسوف يهبط ملاك من السماء و يضع سيفاً فى يد رجل يجلس عند قاعدة تمثال قسطنطـين، و عندئذ يقوم هذا الرجل، و بقوة خارقة للعادة، بتمزيق أجساد العثمانيين، فيصبحون أثراً بعد عين، و تلوذ قلوبهم بالهرب الى جوف آسيا(3)، و قد روّج لهذه النبوءة فئة من رجال الكنيسة الشرقية، و على رأسهم جورج سكولاريوس، و هو أول بطريرك يُعيّن لهذه الكنيسة فى ظل الحكم العثمانى الإسلامى كما سنرى بعد قليل. و قد روجوا لهذه النبوءة رغبة منهم فى إحباط مشروع الإتحاد بين كنيسة القسطنطـينية و كنيسة روما،و تفضيلا

هامش ص75

(1)كان أيوب أحد قادة المسلمين الذين ساروا لثمانية قرون خلت على رأس الجيش الأموى بقيادة يزيد بن معاوية لفتح القسطنطـينية سنة 50هـ / 670م على عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان، و قد استشهد أبو أيوب الأنصارى فى أثناء عمليات الحصار و دفن خارج القسطنطـينية على مقربة من أسوارها.

(2)ابن الوكيل، مصدر مخطوط سبق ذكره، الورقتان 57-58.

(3) ادوارد جيبون، مرجع سابق، جـ 3، ص363.

انتهى الهامش.

ص76

منهم لعمامة السلطان عن قلنسوة البابا. و قد فعلت هذه النبوءة فعلها فى نفسية البيزنطيين؛ إذ أشاعت فيهم روح التخاذل و التواكل و الاستسلام(1).

فلا غرو بعد هذا،أن نجد جيوش العثمانيين الهادرة تقتحم القسطنطينية بحماس إسلامى دامق، و هم يرددون فى صوت هادر رجت له أرجاء المدينة قولهم: " لا إله إلا الله.. محمد رسول الله ". و لا غرو أيضا أن نجد البيزنطيين واقفين فى الميدان ينتظرون حدوث المعجزة بنزول الملاك من السماء لإنقاذهم و إنقاذ مدينتهم، فاستسلموا للعثمانيين الذين شدوا وثاقهم و ساقوهم أسرى (2).

إسلام بول.. العاصمة الجديدة للدولة:

بعد أن تم فتح القسطنطينية قرر السلطان محمد الفاتح اتخاذها عاصمة لدولته، فأطلق عليها اسم " اسلامبول"، أى (دار الاسلام)، ثم أصبحت تكتب " استانبول"، و تكتب حاليا "إسطنبول".

كما حول محمد الفاتح كاتدرائية " أياصوفيا" أكبر كنائس القسطنطينية، إلى مسجد، كما حول عدد آخر من الكنائس الى مساجد.

و من ناحية التعامل مع سكان القسطنطينية، أظهر السلطان الفاتح تسامحاً عالياً تجاه سكان المدينة، فمنح أهل جنوة من سكان حى جلاطا شروط مناسبة للصلح، و أعطى لكبار رجال الدين المسيحى حرية دينية كاملة، بل أنه زاد من سلطانهم بأن وكل اليهم أمر القضاء المدنى، و الفصل فى القضايا الخاصة بالأحوال الشخصية

هامش ص 76

(1) عبد العزيز الشناوى، مرجع سابق، ص647-649.

(2) المرجع السابق ص647-648.

انتهى الهامش.

ص77

للمسيحيين من رعايا كنيستهم، و أمر بانتخاب بطريرك لهم، ففاز بهذا المنصب جورج سكولاريوس الذى كان يتزعم الحزب المعارض لانضمام كنيسة القسطنطينية الى كنيسة روما، و قد اتخذ لنفسه بعد الانتخاب اسم "جناديوس"، و أحاطه السلطان الفاتح بكل مظاهر التكريم و التبجيل. و سمح بعودة اليونانيين الذين غادروا المدينة قبل سقوطها، و قد تمتعوا فى ظل الحكم العثمانى بالحرية الكاملة.

و لا صحة لما يثيره بعض المؤرخين الغربيين من أن العثمانيين استعبدوا أهل القسطنطينية و ساموهم سوء العذاب. بل الحقيقة أن أغلب سكان المدينة دخلوا فى الاسلام أفواجاً أمام حسن معاملة الفاتحين لهم، و لما لمسوه من عدالة و مساواة افتقدوها تحت الحكم البيزنطى.

كما تدفق على القسطنطينية أعداد كبيرة من المسلمين من مختلف أنحاء آسيا الصغرى، ليستفيدوا من الموقع التجارى الممتاز للعاصمة ، و من الخدمات و الاوقاف التى رصدتها الدولة لخدمة العلم و طلابه، و سرعان ما تحولت اسلامبول لتصبح المركز الفكرى الأول فى العالم الإسلامى، و ذلك بفضل تنافس سلاطين آل عثمان على تعميرها بإقامة المستشفيا و المدارس و الفنادق و المصانع، و تشجيع العلماء، و جلب أمهر الصناع و الفنيين لها من مختلف أنحاء العالم(1).

مواصلة التوسع بعد فتح القسطنطينية:

لم يكن فتح القسطنطينية هو نهاية المطاف بالنسبة للسلطان محمد الفاتح الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة و العشرين من عمره حين أصبح حديث الجميع فى أوروبا و فى العالم الإسلامى و العالم المسيحى على السواء، لقد أعطى فتح القسطنطينية لمحمد الثانى الفرصة

هامش ص 77

(1) محمد فريد بك، مصدر سابق، ص61-71.

انتهى الهامش.

ص 78

و الرغبة فى مواصلة فتوحاته من أجل تدعيم الدولة العثمانية و توسيع رقعتها، و نشر الإسلام فى البلدان الأوروبية، حتى أنه حين توفى السلطان محمد الفاتح فى 2مايو 1481م كانت قد أصبحت الإمبراطورية العثمانية تشمل آسيا الصغرى، و بلدان اليونان، و معظم شبه جزيرة البلقان، و كان العثمانيون قد وضعوا أقدامهم فى أوترانتو عند كعب شبه الجزيرة الإيطالية، و أصبحوا على مشارف أوروبا الغربية، و عيونهم ترنو الى الارتباط مع بلاد الأندلس.

ذلك أن السلطان الفاتح بعد أن تم الله له فتح القسطنطينية وجه جيوشه نحو بلاد الصرب و البوسنة و الهرسك و المورة (اليونان حاليا)، و ألبانيا و جمهوريتى جنوة و البندقية و مملكة نابولى، و قد حالفه التوفيق فى معظم هذه الحروب، فأخضع المورة و الصرب و البوسنة و الهرسك.

أما ألبانيا فقد استطاع اسكندر بيك الألبانى أن يصد هجمات العثمانيين عليها سنة871هـ /1467م. و أما بلجراد و هى المفتاح الطبيعى لسهول المجر فقد أخفق السلطان الفاتح فى السيطرة عليها، نظرا لتصدى القائد هونياد المجرى للعثمانيين و هزيمتهم. كما أخفق فى غزو جزيرة رودس معقل فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يهاجمون منها السفن الإسلامية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط.

أما جنوة، فقد استطاع السلطان الفاتح أن يبسط سيطرته على ممتلكات الجنويين و محطاتهم التجارية فى بحر إيجة و فى البحر الأسود و فى الأناضول حيث استطاع مواصلة فتوحاته فى تلك الجهات، حيث أحكم سيطرته على مملكة طرابيزون من بقية أملاك الروم، و على إمارة أوزون حسن التركمان. كما توغل فى أملاك البندقية توغلا فزع منه البنادقة، و لم يسعهم إلا قبول الصلح فى معاهدة سنة1479م، حيث

ص79

قبلوا دفع جزية سنوية للسلطان و التنازل له عن مدن و جزر فى مقابل السماح لهم بممارسة التجارة فى الأراضى العثمانية.

أما شبه الجزيرة الإيطالية، فقد كان خيالها يداعب فؤاد السلطان الفاتح الذى كان جل أمانيه فتحها و رفع لواء الإسلام على روما فى الغرب كما رفعه على القسطنطينية فى الشرق، و من ثم وجه همه لفتح إيطاليا فأرسل جيشاً استطاع فتح مدينة أوترانتو فى مملكة نابولى سنة1480م. و اعتزم أن يتخذها قاعدة للزحف على شبه الجزيرة حتى يصل الى روما، و لكن المنية عاجلته فى الثانى من مايو سنة1481م. ثم انسحب العثمانيون من أوترانتو فى عهد خلفه.

توفى محمد الفاتح بعد قيامه بأعمال خالدة، و أمجاد عظيمة للتاريخ. و قد تنفست أوروبا الصعداء عندما علمت بنبأ وفاته، حتى إن البابا نيقولا الخامس (1447-1455) أمر أن تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام (1).

و ترك محمد الفاتح لابنه يزيد الثانى وصية مهمة جدا، يؤصل فيها أسباب إكرام الله عليه بالنجاحات و البطولات لدولته. و عليه الالتزام بها لاستكمال المشوار و الحفاظ على الأمة(2).

إن محمد الفاتح يعد نموذجا فريدا من حكام المسلمين المخلصين، و انبعثت أعماله وفق مقاصد الدين، و تحددت تحركاته فى جلب الأمن و الأمان للمواطنين، و لم يألُ جهداً فى إعمار ما يحتاج الى تعمير، معتمدا على أهل العلم و الخبرة الحقيقيين. إن شخصية محمد الفاتح التربوية

هامش ص 79

(1) محمد فريد بك، مصدر سابق، ص61-67. و ابراهيم حليم بك، مصدر سابق، ص64-67

(2) للاطلاع على الوصية و الدروس المستفادة منها ينظر: محمد الصلابى: مرجع سابق، ص209-233.

انتهى الهامش.

ص : 80

و فترة حكمه تدل على ان صلاح الأمم و الدول الأسلامية أمر ممكن فقط توجد النية المخلصة . و الخطط الوطنية ذات الهداف المدروسة و الهمم العاليه العاملة . و لا يفسح مجال للفساد و المفسدين . و لا يسند الحكم للطغاه و المستبدين .

بايزيد الثانى (1481-1512م)

تولى بايزيد الثانى الحكم بعد والده السلطان محمد الفاتح عام1481م . و قد شهدت بدايات فترة حكمه نزاعا على العرش مع اخيه الأمير جم الذى اقترح عليه تقسيم الإمبراطوريه العثمانية بينهما الى شطرين : شطر اوروبى . و اخر أسيوى . و لكن بايزيد الثانى رفض مبدأ التقسيم من أساسه . و حارب جم الذى هزم و اضطر الى اللجوء الى سلطان مصر المملوكى قايتباى (886هـ / 1481م) الذى سمح له بالخروج لمحاربة اخيه بايزيد الثانى . فهزم جم مرة أخرى . ثم فر لاجئا الى بلاد الفرنجة . فأرسل إليه بايزيد من احتال لأغتياله (1)

كان بايزيد الثانى محبا للسلم . فاهتم بإقامة المنشأت الفخمة و تعبيد الطرق . و إقامة الجسور . و تشييد المساجد . و لكن ذلك لم يشغله عن إرسال جيوشه الى اطراف الدولة لتوطيد سلطته عليها ورد غارات الأعداء عنها فقد حاول البولنديون غزو إقليم مولدافيا " البغدن " و لكن الجيوش العثمانية ردتهم على اعقابهم . بل و أتمت السيطرة على إقليم البوسنة سيطرة كاملة

هامش ص :80

(1)ابن الوكيل .مصدر مخطوط سبق ذكره الورقتان59,60السير وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ترجمة محمود عابدين و سليم حسن طـ1القاهرة1342هـ /1924م ص160

ص : 81

و قد اتخذ بايزيد من البوسنة قاعدة لشن الهجوم على ممتلكات البندقية فى دالماشيا عندما نشبت الحرب فى عام1499م بينه و بين جمهورية البندقية . و بعد حملات ثلاث عقد بايزيد الثانى صلحا مع البندقية سنة1503م . كما عقد فى العام نفسه هدنه مدتها سبعة سنوات مع المجر التى طالت احتكاكاتها بالدولة العثمانية .

و بذلك نعمت البلاد بفترة من السلم . إلى أن أعتلى ابنه سليم السلطة فى عام1512م . تحت ضغط الإنكشارية الذين التفوا حول سليم حيث اضطر بايزيد الثانى الى التنازل عن العرش لابنه (1)

و بأعتلاء ابنه سليم الأول العرش بدأت الدولة العثمانية دورا جديدا . فقد توقفت الفتوحات العثمانية فى اوروبا . و بدأت صوب الشرق ضد الدولة الصفوية الشيعية فى إيران و ضد الدولة المملوكية فى مصر و الشام . و ضد الإحتلال البرتغالى فى اسيا و إفريقيا و هذا ما سوف نرجؤه لإلقاء الضوء عليه فى الفصل التالى . بما له و ما عليه ، فى إطار الحكم العثمانى لبلدان العالم العربى

ص : 82

سليمان المشرع (1520 –1566م)

و لد سليمان المشرع او القانونى عام1495م . ويعد أحد أهم سلاطين أل عثمان . نظرا للأعمال العظيمة التى تمت فى عهده . و اطلق بعض المؤرخين على عهده بالعصر الذهبى للدوله العثمانية : حيث كانت الدولة الأقوى فى العالم و المسيطرة على البحر الأبيض المتوسط كما عرف فى الغرب بـ سليمان العظيم

كان السلطان سليمان ابلمشرع صاحب اطول مدة حكم بين سلاطين ال عثمان :إذ حكم46سنة بلغت الدولة فى عهده قمة درجات القوة و السلطان : حيث اتسعت أرجاؤها على نحو لم تشهده من قبل و بسطت سلطانها على كثير من دول العالم فى قاراته الثلاث و امتدت هيبتها فى العالم بل صارت سيدة العالم : تخطب ودها الدول و المماليك

و داخليا حافظ سليمان القانونى على هيبة دولته . و اشتد على الخارجين على الدولة من الولاة الطامحين و الطامعين امثال : جان بردى الغزالى فى الشام و احمد باشا فى مصر . و قلندر جلبى فى منطقتى قونية و مرعش ..إلخ

و ارتقت فى عهده الفنون و الأداب . و ازدهرت العمارة و البناء و تقدمت جيوشه البرية و البحريه . كما ارتقت فى عهده النظم و القوانين التى تسير الحياة وفق معايير منظمة . بدون مخالفة للشريعة الإسلامية

ص : 83

و لذلك لقب بـ " المشرع و القانونى " و هذا ما سوف يتضح فى فصل لاحق من هذا الكتاب

و خارجيا . تعددت ميادين القتال التى تحركت فيها الدولة العثمانية لبسط نفوذها فى عهد سليمان : فشملت اوربا و اسيا و افريقيا : ففتح بلجراد عام1521م و حاصر فيينا عام1529م . لكنه لم يفلح فى فتحها . و ضم الى دولته اجزاء من المجر بما فيها عاصمتها بودابست و جعلها ولاية عثمانية و فى اسيا اوضحنا دور سليمان القانونى فى ضم العراق و قصقصة اجنحه الدولة الصفوية

كما واجه العثمانيون فى عهده البرتغاليين فى المحيط الهندى و الخليج العربى . فدخلت فى عهده إمارات الخليج العربى ضمن نفوذ الدولة العثمانية و ادت هذه السياسة الى الحد من نفوذ البرتغاليين فى المشرق . و فى إفريقيا دخلت ليبيا . و القسم الأعظم من تونس و اريتريا و جيبوتى و الصومال ضمن نفوذ الدولة العثمانية

و قد بلغت قوة الدولة العثمانية ان استنجدت بها فرنسا عن طريق رسالة من ملكها عام1526م يطلب من السلطان سليمان القانونى إنقاذه من الأسر الأسبانى بعد الهزيمة المدوية التى نالتها بلاده فرد عليه السلطان سليمان برسالة يطمئنه فيها بأنه سيخلصه من الأسر و بالفعل فقد أرسل إليه قوة عسكرية حررته من الأسر ! و كان نص الرسالة كالتالى :

" الله . العلى ، المعطى ، المغنى ، المعين من السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا وصل الى اعتاب ملجا السلاطين المكتوب الذى ارسلتموه مع تابعكم (فرانقبان)و اعلمنا ان عدوكم قد استولى على بلادكم . و انكم الأن (فراقبان) و اعلمنا ان عدوكم قد استولى على بلادكم و انكم الأن محبوسون و تستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص

ص 84

الفصل الثالث

الدوله العثمانية والعالم العربى

ص 84

خلاصكم ، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكانية ، وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل ، فصار بتمامه معلوما ، فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم ، فكن منشرح الصدر ، ولا تكن مشغول الخاطر ، فإننا فاتحون البلاد الصعبة والقلاع المحصنة وهازمون أعدائنا ، وإن خيولنا ليلا ونهارا مسروجة ، وسيوفنا مسلولة ، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته ، وأما باقي الأحوال والأخبار تفهمونها من تابعكم المذكور ، فليكن معلومكم هذا ، تحريرا فى أوائل شهر آخر الربيعين سنة 932من الهجرة النبوية الشريفة ،1525من الميلاد ، بمقام دار السلطنة العلية القسطنطينية المحروسة المحمية)) (1) .

وتنفيذا لذلك ، انضم أسطول خير الدين بربروسا إلى الأسطول الفرنسي في حربه مع الهابسبورج ، وساعد الفرنسيين في استعادة مدينة نيس في عام1543م : وهذا ما أدى إلى تنازل فرنسا عن ميناء طولون الفرنسي برضاها للإدارة العثمانية ، وتحول الميناء الحربي لفرنسا إلى قاعدة حربية إسلامية للدولة العثمانية في غرب البحر الموسط .

وفاته :

لم يترك السلطان سليمان المشرع الجهاد حتى أواخر عهده ، مع أنه قد أصيب بمرض النقرس ، فكان لا يستطيع ركوب الخيل : ولكنه كان يتحامل إظهارا للقوة أمام اعدائه .

ومع بلوغه 47سنة علم بأن ملك الهايسبرج أغار على ثغر من ثغور المسلمين ، قاد السلطان سليمان بنفسه جيشا كبيرا في أبريل

هامش ص 84

(1) كان الرئيس الفرنسى السابق (نيكولا ساركوزي) في زيارة رسمية لتركيا في2011م وأحس الرئيس التركي (رجب طيب أوردغان) بنبرة استعلاء عند ساركوزي ، فقرر أوردغان كسر كبريائه وإحراجه بإهدائه نسخة من رسالة سليمان القانوني تلك ، ليعرفه بفضل تركيا على بلاده ، فما كان من ساركوزي إلا أن فهم الدرس ووعاه .

انتهى الهامش

ص 85

1566م ، مع أن الطبيب قد نصحة بعدم الخروج ، لكن جاء جواب السلطان سليمان قائلا : " أحب أن أموت غازيا في سبيل الله " .

ووصل إلى مدينة سيكتوار المجرية ، وكانت قلعة حصينة مشحونة بالبارود والمدافع ، وبعد أسبوعين من حصار سكتوار ، سيطر المسلمون على معاقلها الأمامية ، وأشتد القتال والنزال الذي أستمر حوالى خمسة أشهر ، وفي هذا الوقت ، اشتد مرض السلطان ، وشعر بدنو الأجل ، فأخذ يتضرع إلى الله تعالى ، وكان من جملة ما قاله : " يا رب العالمين : افتح على عبادك المسلمين ، وانصرهم ، وأضرم النار على الكفار ". فاستجاب الله دعاء السلطان سليمان ، فأصاب أحد مدافع المسلمين خزانة البارود في الحصن ، فكان انفجارا مهولا ، فأخذت جانبا كبيرا من القلعة ، وهجم المسلمون على القلعة ، وفتحت القلعة ، ورفعت الراية السليمانية على أعلى مكان من القلعة .

وعند وصول خبر الفتح للسلطان فرح ، وحمد الله على هذه النعمة العظيمة ، وقال : " الآن طاب الموت ، فهنيئا لهذا السعيد بهذه السعادة الأبدية ، وطوبى لهذه النفس الراضية المرضية ، من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه " ومات في5سبتمبر 1566م .

واخفى الوزير محمد باشا نبأ وفاة السلطان : حتى أرسل لولي عهده السلطان سليم الثانى فجاء وتسلم مقاليد السلطنة في سيكتوار ، ثم دخل إسطنبول ومعه جثمان أبيه الشهيد وكان يوما مشهودا وبالقدر الذي حزن فيه المسلمون أشد الحزن على موت السلطان سليمان فرح المسيحيون بالقدر نفسه وزيادة كفرحهم بموت السلطان محمد الفاتح ، وجعلوا يوم وفاته عيدا من اعيادهم ودقت أجراس الكنائس فرحا بموته .

ص 86

وهكذا تابعنا فيما سبق كيف تحولت القبيلة التركية من كونها قبيلة إلى إمارة ومن إمارة إلى سلطنة ودولة ، ثم إلى إمبراطورية كبرى ذات مساحات شاسعة في قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وخلال قرنين ونصف تقريبا مر على عرش الحكم سلاطين عظام ، استطاعوا أن يواكبوا ما اصبحت عليه دولتهم الجامعة للعديد من الأجناس والأعراق ، كما استطاعوا ان يكونوا حائط منيع تهشمت وراءه التحالفات الصليبية المتعددة التي سيرت للقضاء على العثمانيين أولا ثم احتلال بقية العالم الإسلامي ولاسيما القدس ، ولم تكن مهمة هؤلاء السلاطين بالمهمة اليسيرة ، كلا فقد كانت من الصعوبة بمكان داخليا وخارجيا ، ومع ذلك نجحوا لانهم اخذوا بأسباب النجاح ، وأعلى هذه النجاحات فتح القسطنطينية .

ص 89

أولا - العالم العربي والإسلامي إيان الحكم العثماني :

أطل القرن العاشر الهجري او السادس عشر الميلادي على العالم الإسلامي وفيه ثلاث دول كبرى وهي :

الدولة الصفوية في فارس :

قامت هذه الدولة على أساس ديني قومي ، وبعد الشاه إسماعيل الصفوي (1500 - 1524م) المؤسس الحقيقي لهذه الدولة وقد وطد العزم على أن يقيم في إيران دولة مستقلة يدين أهلها بالتشيع ، ويعمل على نشره حتى يصبح المذهب الغالب في العالم الإسلامي ، ومن ثم اتجه إلى العراق الذي كان يقاسي من اضطرابات كثيرة نتيجة صراع الدولتين المغولية والتركمانية على حكمه الأمر الذي سهل على الشاه احتلال بغداد سنة1508م (1) .

ومع ذلك لم يستطيع الشاه إسماعيل تحويل أهل العراق كلهم إلى المذهب الشعي برغم العسف الذي صبه عليهم فاستصرخوا بالقوى الإسلامية الأخرى لإنقاذهم من عسف الصفويين وكانت الدولة العثمانية بقواتها الصاعدة هي المرشحة للقيام بهذا الدور (2) .

الدولة العثمانية في الأناضول :

وهي التي أسسها الأتراك كإمارة صغيرة في الأناضول (آسيا الصغرى) منذ القرن الثالث عشر ، ثم توسعوا على أنقاض الإمارات التركية غير العثمانية في الأناضول والبلقان ولا سيما بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح في سنة1453م حيث

هامش ص 89

(1) ابن اياس مصدر سابق مجلد 1ص ص773 - 774 .

(2) ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب في أخبار من الذهب (8أجزاء) مكتبة المقدس1351ه ج 8ص 144 .

انتهى الهامش

ص90

اتخذها العثمانيون عاصمة لهم وأطلقوا عليها اسم" إسلامبول" (دار الإسلام). واستمر التوسع العثماني في البلقان وحوض نهر الدانوب، وشكلوا بذلك خطرًا شديدًا على أوروبا، حتى ظهر في عالم السياسة الأوروبية وقتذاك ما عرف باسم " المسألة الشرقية" التي كان معناها حينئذ اتقاء خطر العثمانيين الداهم على أوروبا. ولكن مفهوم المسألة الشرقية لم يلبث أن تطور عندم ضعفت الدولة العثمانية، وأصبح يعني طرد العثمانيين من أوروبا، وتقسيم ممتلكاتهم بين الدول الأوروبية الكبرى.

على أن الدولة العثمانية لم تلبث عند ظهور الصفويين أن وجهت نشاطها الحربي نحو الشرق، حيث قام صراع حربي سافر بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية، واستطاع سليم الأول (1512 –1520م) سلطان الدولة العثمانية أن يوقع الهزيمة بإسماعيل الصفوي شاه الدولة الصفوية في موقعة "تشالديران" في أغسطس1514م، ودخل تبريز عاصمة الدولة الصفوية ولكنه ارتد عنها، نظرًا لشدة القحط وقلة المونة، وتأخر وصول الإمدادات بسبب عرقلة الغوري (سلطان المماليك) لقوافلها (1). الأمر الذي جعل سليم الأول يدرك مدى خطورة دولة المماليك في مصر على الدولة العثمانية كما جعله يزحف بعد عامين على الشام لتأديب المماليك، ومن ثم جاء اصطدام العثمانيين بالدولة المملوكية في مصر.

دولة المماليك في مصر:

كانت دولة المماليك البرجية تحكم مصر والشام، ولها السيادة على بلاد الحجاز واليمن، وقد أصابت الحضارة الإسلامية حظًا كبيرًا من

هامش

المصدر السابق، ج8، ص44، الغزي (نجم الدين بن بدر الدين...ابن أحمد): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ثلاثة أجزاء، ج1، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، المطبعة الأمريكانية، بيروت،1945م، ص209، القرماني مصدر سابق ص314.

ص91

الازدهار في العصور الوسطى في مصر نتيجة رواج التجارة بين الشرق والغرب عبر الطرق التي تجتاز البلاد العربية، غير أن موارد البلاد أخذت في النضوب منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند سنة1498م، على يد البرتغاليين الذين شرعوا في احتكار تجارة الشرق وانتزاعها من أيدي المسلمين من أجل تحطيم قوتهم وتجارتهم في البحار الشرقية، فاستولى البرتغاليون على قواعد حصينة عند مداخل هذه البحار-حتى يسهل عليهم حصار المسلمين وإبعادهم عن ميدان التجارة الشرقية- كجزيرة سوقطرة بقرب مدخل البحر الأحمر وجزيرة هرمز ومسقط عند مدخل الخليج العربي.

ها، وقد تأثرت الدولة المملوكية تأثرًا ملحوظًا بهذا التحول التجاري الذي اتخذ بُعدًا صليبيًا صارخًا حين عمل البرتغاليون على تحطيم القوى الإسلامية في الهند، كما سعوا على النفاذ إلى البحر الأحمر أملا في النزول إلى الحجاز، وانتهاك أماكنه المقدسة بالتحالف مع نصارى الحبشة، وقد بذلت مصر جهود عسكرية رائعة لوقف هذا النشاط البرتغالي في البحار الشرقية، ولكن لم يقدر لها النجاح فوطد البرتغاليون أقدامهم في قواعدهم الحصينة، وأمعنوا في احتكار التجارة الشرقية، والضغط على القوى الإسلامية والعربية في تلك الجهات (1).

وهكذا، واجه الشرق العربي في السنوات الأولى من القرن السادس عشر حالات خطيرة منها:

الضغط الصفوي الإيراني لتنفيذ سياسة مذهبية معينة.

الضغط البرتغالي لحرمان الشرق العربي من أهم موارده وهو نشاطه في تجارة الشرق.

هامش

سيديو: تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعتر ط2، القاهرة1969م، ص430 – 432

ص92

بلاد المغرب العربي:

أما بلاد المغرب العربي، فقد قامت على أنقاض دولة الموحدين- التي سقطت سنة1261م، أي بعد سقوط بغداد في المشرق العربي بثلاث سنوات ، والتي وكانت تجمع عرب المغرب جميعًا من بَرْقَة إلى المحيط الأطلنطي في وحدة سياسة واحدة – قامت على انقاض هذه الدولة دول صغيرة دبَّ بينها الخلاف والنزاع، الأمر الذي أطمعَ فيها البلدان الأوروبية المواجهة لها على البحر المتوسط، ومنها جَنوَة والبندقية ومالطة والإمارات المسيحية في الأندلس التي كانت تزحف على ما بقي للمسلمين هناك.

وبسقوط غرناطة – آخر معاقل المسلمين-سنة1492م انتهى ملك المسلمين في الأندلس، ونقل الأسبان تلك الحرب الصليبية إلى شمال إفريقيا، فقد استولى عليها الأسبانيون في سنة1510م، واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط لمدة عشرين سنة، كذلك اشتدت غارات الأسبان على تونس حيث كان الحكم لأمراء بني حفص، كما حاول الأسبان الضغط على الجزائر بالاستيلاء عليها سنة1516م، ولكنهم فشلوا أمام مقاومة الجزائريين بقيادة عروج الدين بربروس.

كما لم يَسلم المغرب الأقصى (مراكش) من اعتداءات الأسبان والبرتغاليين المتكررة، ولكن قيام دولة الأشراف السعديين في أوائل القرن السادس عشر معتمدة على الحماس الديني والقومي وضع النهاية لهذه الاعتداءات، واستطاع المغرب الأقصى أن يعزز مكانته كدولة مستقلة أجبرت العثمانيين الذين كان نفوذهم قد امتد إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط على احترام استقلالهم.

ص93

ثانيًا – اتجاه العثمانيين نحو الشرق:

ذكرنا من قبل، أن تولى السلطان سليم الأول (1512-1520م) سُدة الحكم في الدولة العثمانية كان أمرًا مهمًا في تحوّل اتجاهات الفتوحات والتوسعات العثمانية من أوروبا إلى المشرق الإسلامي. وقد أثار هذا التحول تساؤلات العديد من الباحثين عن السبب وراء ذلك.

فمنهم من أرجعه إلى الوصول إلى درجة التشبع من الفتوحات في الميدان الأوروبي، ولعل ذلك مردود عليه باتجاه ابنه السلطان سليمان المشرع (1520 - 1566) إلى الفتح والتوسع في أوروبا مرة أخرى.

وهناك رأي أخر يقول إن اتجاه العثمانيين نحو الشرق يرجع إلى رغبتهم في حماية المشرق العربي الإسلامي من الخطر البرتغالي الاحتلالي الصليبي، الذي دأب على القضاء على النشاط التجاري العربي الإسلامي في البحار الشرقية، ولكن الجدير بالملاحظة أن العثمانيين إذا كانوا قد وصلوا إلى اليمن جنوب شبه الجزيرة العربية، واتخذوا منها قواعد للتصدي للبرتغاليين، ونجحوا في جعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية صرفة، فإن هذه الإجراءات من جانب العثمانيين كانت وقائية دفاعية، فضلًا عن أنهم لم يقدموا عليها إلا بعد وصولهم إلى تلك المناطق، وأصبح من الواجب عليهم حمايتها والدفاع عنها بعد أن صارت ممتلكات عثمانية.

هامش

جلال يحي: العالم العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة1967، ص35 – 49.

ص94

وهناك رأي ثالث يقول: إن اتجاه العثمانيين نحو الشرق يرجع إلى رغبة السلطان سليم الأول في إخضاع العالم العربي الإسلامي، والأماكن المقدسة الإسلامية في دولة واحدة تحت سيادته: حتى يعطي للدولة العثمانية الصبغة الإسلامية السُّنية في مواجهة أوروبا المسيحية من جهة، ودولة الصفويين الشيعية من جهة أخرى (1). غير أنه يمكن القول أن السلطان سليم وإن كان قد استطاع تحقيق هذه النتائج فعلًا، إلا أنه لا يمكن القول أنها كانت في مخططه وهو يتجه بجيوشه نحو الشرق، فكثيرًا ما تتمخض الأحداث عن نتائج لم تكن في الحسبان قبل وقوع هذه الأحداث، إذ أن الثابت من التاريخ أن السلطان سليم الأول عندما توجه لمحاربة المماليك في الشام لم يمكن يفكر جديًا في الاستيلاء على مصر؛ بل كان الهدف هو تأديب المماليك لعرقلتهم وصول قوافل المؤن إليه أثناء عملياته الحربية ضد الصفويين (2)، بدليل أنه بعد هزيمة المماليك في موقعة مرج دابق سنة1516م، واستيلائه على الشام، حاول التوصل إلى صلح مع المماليك مكتفيًا بالجزء الشمالي من الشام تاركًا بقية الشام ومصر في حوزتهم في ظل السيادة العثمانية، ولكن رفض المماليك بالإضافة إلى تحريض "خاير بك" و" جان بردي الغزالي" للسلطان سليم هو الذي دفعه إلى السير في حروبه حتى دخل مصر عام1517م.

وهناك دليل يؤكد ذلك، وهو أن السلطان سليم الأول جاء على لسانه في حديث له مع طومان باي بعد هزيمته الأخيرة والقبض عليه: " ياطومان باي... إني أرسلت لك من الشام أن تجعل السَّكة والخطبة باسمي، وأنت مُقيم على ملك مصر، وأنا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك الأرض، فأبيت ذلك... والله ما كان قصدي إذيتك، ونويت الرجوع

هامش

عبد العزيز الشناوي/ مرجع سابق ص582 – 585

ابن العماد، المصدر الأول، ج8، ص144 – 145

ص95

من حلب، ولو اطعني من الأول وجعلت السَّكة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دُستُ أرضك" (1).

وهناك دليل أخر وهو انه عندما اشتدت المقاومة الشعبية المصرية بقيادة طومان باي للعثمانيين بعد واقعة الريدانية (يناير1517م). وألحقت بالعثمانيين خسائر فادحة، ندم سليم الأول على مجيئه إلى مصر أكثر من مرة، وهم بالبطش بخاير بك الذي زَيَّن له الزحف على مصر (2).

التفسير الأقرب إلى المنطقة والأرجح لدينا حول ترك السلطان سليم الأول الميدان الأوروبي واتجاهه إلى المشرق، هو أن الأحداث التي كانت تجري وقتئذ في تلك المنطقة حتمت عليه أن يوجه جهوده الحربية لهذه الوجهة، فقد كانت تجاور دولته في الشرق دولتان إسلاميتان (الصفوية في فارس، والمملوكية في مصر والشام) بما يحمل وجودهما في طياته من خطر على دولته، ويجعل الصدام أمرًا محتمًا.

فالدولة الصفوية التي قامت على أساس قومي ديني دأبت على نشر مذهبها الشيعي الفوضوي المسمى بـ" قزل باش" أي الرأس الأحمر بين رعايا الدولة العثمانية في الأناضول، حيث استجابت بعض الرعايا له، فكان من الطبيعي أن تهب الدولة العثمانية السُّنية لمواجهة هذا الزحف الشيعي الذي يهدد كيانها سياسيًا ودينيًا، فاتجه السلطان سليم الأول إلى الولايات الكردية والعراق، ومنها إلى فارس حيث أنزل هزيمة بالشاه إسماعيل الصفوي في موقعة تشالديران سنة1514م، ودخل تبريز العاصمة، ثم عاد إلى عاصمته بعد أن اطمان إلى

الهامش

ابن زنبل (الشيخ أحمد الرمال): آخر المماليك واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة1962م، صـ136،134.

ينظر كتاب عنوانه: " السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني" للمرحوم أد. السيد محمد الدقن.

ص96

زوال الخطر عن دولته، ولكن هذه الحرب كان لها نتيجة أخرى، وهي أنه باستيلاء العثمانيين على بعض الجهات من الصفويين أصبحت الدولة العثمانية مجاورة لدولة المماليك في الشام، فضلًا عن توفر أسباب الخصومة بين الدولتين، الأمر الذي أوقع الصدام بينهما (1).

ثالثًا- الغزو العثماني للعالم العربي.

الشام ومصر:

تأرجحت العلاقة بين الدولة العثمانية الفتية، وبين دولة المماليك البرجية، بين الود وحسن الجوار والتكريم المتبادل بينهما الذي وصل إلى حد تبادل الهدايا والتهاني بالانتصارات العسكرية حينًا، والبين النفور والشقاق والنزاع الذي وصل إلى حد الصدام العسكري على الحدود بين الدولتين حينًا آخر(2).

وقد وصل العداء بين الدولتين إلى درجة شديدة تنذر بقرب الصدام الحاسم بينهما في عهد السلطان قنصوة الغوري ومعاصره السلطان سليم الأول العثماني؛ فقد توفرت أسباب النزاع بين هذين السلطانيين مثل:

الخلاف على الحدود بين الدولتين.

إيواء الغوري لبعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم، واتخاذهم أداة لإثارة المتاعب والقلاقل للدولة العثمانية.

موقف الغوري غير الودي من العثمانيين أثناء حربهم ضد الصفويين.

الهامش

عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص ص577-678.

لمعرفة التفاصيل ينظر: " السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرة للغزو العثماني" للدكتور السيد الدقن.

ص97

وهو موقف لم يتسم بالحكمة، ذلك أن الغوري لم يقف على الحياد بين الطرفين المتحاربين، ولم ينضم صراحة إلى جانب الصفويين. ولقد كان بوسعه في هذه الحالة أن يقدم مساعدة فعالة للصفوين أثناء توغل الجيش العثماني في الأراضي الفارسية، وذلك إما بالزحف في أثره وإيقاعه بين شقي الرحى، الجيش الصفوي من الأمام والمملوكي من الخلف مما يعرض الجيش العثماني لخطر الإبادة، وإما بقطع خط الرجعة على الجيش العثماني إلى بلاده، وإما بالتوغل في الأراضي العثمانية أثناء غياب الجيش العثماني عنها ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، واكتفى الغوري بالتأييد الشكلي للصفويين، وذلك بمنعه الهدايا التي كانت مرسلة من الهند إلى استانبول، وعرقلته وصول قوافل المؤن للجيش العثماني مما أعاق تقدمه، وجعل سليمًا يدرك خطر الدولة المملوكية ويصمم على الانتقام، وقد كان ذلك.

ففي طريق عودة السلطان سليم الأول إلى بلاده – بعد انتصاره على الصفويين ودخوله عاصمتهم تبريز- استولى سليم على المناطق التي كانت تفصل بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية شرقي الشام وغربي الفرات، فأصبحت الدولة العثمانية بحدودها الجديدة في مواجهة دولة المماليك بتلك المنطقة، وبات الخطر وشيكًا.

ولم تلبث أن اشتعلت الحرب بين الدولتين، بعد أن فشلت محاولات الصلح بينهما، واستطاع العثمانيون إنزال هزيمة ساحقة بالجيش المملوكي في موقعة مرج دابق شمالي حلب (25رجب 922هـ/ 24أغسطس1516م). وسقط السلطان الغوري من فوق حصانه من هول الصدمة، وضاعت جثته بين آلاف الجثث، وقيل إن بعض أتباعه – عندما وجدوه قد سقط على الأرض- قطعوا رأسه والقوها في جب حتى لا

يجده العدو فيجهزون عليه، ويأخذون رأسه يطوفون بها جميع أنحاء الدولة العثمانية. (1)

عقب هزيمة المماليك في مرج دابق، وسّع سليم الأول نطاق عملياته الحربية، فتساقطت تباعًا وبسهولة في يده المدن الشمالية الكبرى، مثل حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وسابق أمراء البلاد وأعيانها إلى إعلان الولاء للحكم الجديد، وخطب باسم السلطان العثماني في المسجد الأموي، ثم أرسل سليم الأول إلى طومان باي (سلطان مصر الجديد) يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بالسيادة العثمانية، وهمّ طومان باي بالموافقة على ذلك، ولكن أمراء المماليك صمموا على القتال وقتلوا رسل السلطان العثماني، فزحفت القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول قاصدة مصر، فالتقت مقدمة جيشه بمقدمة جيش المماليك عند غزة، حيث هزم الجيش هزم الجيش المملوكي، وواصل سليم الأول زحفه إلى مصر، فدخل العثمانيون القاهرة بعد هزيمة الجيش المملوكي في موقعة الريدانية (29ذي الحجة922هـ/22يناير 1513م) (2)

ومع ذلك، لم يستسلم السلطان طومان باي، وإنما ظل يجمع الأنصار ويوحد الصفوف استعدادًا للمقاومة، وظل يناوئ العثمانيين زمنًا طويلًا في حماسة منقطعة النظير، وفي شهامة بالغة، ووقعت بين الفريقين وقائع مروعة في بولاق والصليبية وفي الجيزة وغيرها،

الهامش

ابن إياس، مصدر سابق، ج3، ص ص45، 46، 47، 56، 58، الإسحاقي (محمد عبد المعطي بن أبي الفتح الإسحاقي): لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، القاهرة1315هـ ص ص128 –129، ابن زنبل، مصدر سابق، ص31.

ابن الحمصي (أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري الشافعي): حوادث الزمان وأنباؤه ووفيات الأعيان وأبناؤه، ج3، مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج تحت رقم293، ومنها نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم الفيلم (480)، ص ص 119 –120، ابن اياس، مصدر سابق، ج2، ص ص85 –100.

وشهدت هذه الأماكن ملاحم عسكرية لهؤلاء المماليك وهم يدافعون عن ملكهم، كما شهدت ضروبًا من الخيانة وخسة الضمير من بعض العربان ومن الغزالي.

وأخيرًا، لجأ طومان باي بعد هزيمته في موقعة وردان (10ربيع الأول923هـ) إلى صديقه حسن بن مرعي شيخ عربان البحيرة الذي سلمه إلى السلطان سليم الأول، فشنقه على باب زويلة يوم الإثنين (21ربيع الأول923هـ/ 23أبريل1517م). وطويت بذلك دولة المماليك البرجية وانتقلت من مسرح التاريخ إلى كتب التاريخ (1).

الحجاز:

ترتب على سقوط دولة المماليك في مصر أن دخل الحجاز سليمًا تحت السيادة العثمانية؛ فقد بادر شريف مكة بإعلان ولائه للعثمانيين؛ إبقاءً على الروابط الاقتصادية التي إقليم الحجاز بمصر، فأرسل ابنه إلى القاهرة يحمل التهاني ومفاتيح الحرمين الشريفين، فأكرمه سليم الأول وأعطاه تفويض بحكم والده، وقرئ التفويض في مكة وخطب باسم سليم الأول، واحتفظت الدولة العثمانية بنظام الشرافة كما كان أيام دولة المماليك، وأنشئت منجقية عثمانية في جدة.

وقد ترتب على بسط السيادة العثمانية على إقليم الحجاز، ظهور العثمانيين في البحر الأحمر، ومحاولتهم استكمال سيطرتهم عليه بالسيطرة على اليمن، وإنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالي الزاحف عليه من المحيط الهندي، بعد أن أصبحت لهم ممتلكات تقع على

الهامش

المصدر السابق، ج3، ص ص101 – 115، ابن زنبل، مصدر سابق، ص ص43 – 50.

ص100

شاطئيه. وأصبح الدفاع عن هذه الممتلكات واجبا تفرضه كرامة الدولة العثمانية ومصلحتها(1).

وقد أخذ العثمانيون يتوغلون بعد ذلك شرقا وغربا وجنوبا ويفرضون سيطرتهم على البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى. بحيث لم يمض على موقعة مرج دابق1516م أربعون عاما حتى كان العثمانيون قد سيطروا على كل البلاد العربية ، عدا المغرب الأقصى من جهة وقلب الجزيرة العربية من جهة أخرى (2).

اليمن:

اتجه العثمانيون - بعد سيطرتهم على الحجاز- إلى اليمن وقد تمكنوا من بسط سيادتهم عليه سلميا فى بادئ الأمر، وذلك بتثبيت واليه إسكندر الشركسي مثلما كان فى عهد المماليك. غير أن استمرار النزاع بين القادة الجراكسة فى اليمن أدى إلى زعزعة النفوذ العثماني. الأمر الذى دفع العثمانيين إلى تجريد حملة بقيادة (سليمان باشا الخادم) سنة1538م. دخلت عدن بترحيب من حاكمها (عامر بن داوود الطاهري). الذى كان فى نزاع مع الزيدية باليمن. وقد غدر سليمان باشا بحاكم عدن الذى ساعده فى دخولها. كما قامت قواته بنهبها. بينما فشل فى الإيقاع بإمام الزيدية.

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى التفاهم مع إمام الزيدية عام1551م مستثمرين نجاحهم فى بسط نفوذهم على الساحل الشرقي لأفريقيا (سواكن ومُصَوَّع). إلا أن سوء الحكم العثماني أدى إلى تجدد النزاع بين العثمانيين والزيديين الذين نجحوا فى طرد العثمانيين من عدن ومن معظم جهات اليمن. الأمر الذى اضطرت معه الدولة العثمانية.

هوامش ص100

عبد العزيز الشناوى. مرجع سابق . ص582.

ساطع الحصري. البلاد العربية والدولة العثمانية ص ص9-10 . 40 .

نهاية الهامش.

ص101

إلى إرسال حملة كبرى لإعادة السيطرة على اليمن من جديد بقيادة سنان باشا(1568–1569م) . الذى استولى على عدن. ثم دخل فى حرب عنيفة ضد الزيدية. حتى توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بأن يبقى إمام الزيدية مع إعترافه بالسيادة العثمانية. غير أن

النزاع لم يلبث أن تجدد بعد ذلك. ونجح الزيديون فى تخليص صنعاء وعدن وتعز ، وأخرجوا العثمانيين من اليمن كله سنة1636م. وعلى الرغم من عودة الحكم العثماني إلى اليمن مرة أخرى إلا أن الأمور لم تستقر للعثمانيين فيه نتيجة الاضطرابات والثورات المستمرة(1).

الخليج العربي:

أما منطقة الخليج العربي فقد توالت حملات العثمانيين البحرية إلى البحار الشرقية. فانتزعوا مسقط من البرتغاليين. ونفذوا إلى الخليج العربي حيث بسطوا سيادتهم على عُمَان والأحساء والبحرين والكويت. ولكنها كانت مجرد سيادة إسمية فقط، فقد احتفظ الأمراء والمشايخ العرب فى هذه المناطق بإستقلالهم.

ان اتجاه العثمانيين إلى البحار الشرقية جعلهم يصطدمون بالنفوذ البرتغالي. فأرسل السلطان سليمان المشرع (1520 –1566م) عدة حملات بحرية بُغية التصدى للبرتغاليين. وقد وصلت بعض هذه الحملات إلى ساحل الهند، ولكن التوفيق لم يحالفها فى النهاية. وعجز العثمانيون عن تحطيم القوة البرتغالية فى البحار الشرقية (2).

هوامش ص101:

محمود صالح منسي: حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوي. دار الفكر العربي. القاهرة1972م. ص25-26 .

محمد فريد بك. مصدر سابق.ص ص100 –101 . وساطع الحصري. مرجع سابق. ص9.

نهاية الهامش.

ص102

كردستان:

أما كردستان أو الإمارات الكردية حسبما كانت موجودة فى ذلك الوقت . فإنها قد دخلت سِلمًا تحت السيادة العثمانية الإسمية فقط منذ معركة تشالديران (أغسطس1514م). إذ أن الكرد كانوا من القوات المهمة التى ساندت الجيش العثماني ضد الصفويين. وبعد انتصار العثمانيين قَبِل الكرد الدخول تحت السيادة الإسمية للدولة العثمانية مع بقاء كل أميرعلى إمارته.متمكنًا من تصريف شؤونها بحرية تامة. وليس للسلطان العثماني إلا الدعاء له فى الخطبة ، وإمداده بالجنود فى حالات الحرب إذا طلب السلطان ذلك.وظل الأمركذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر، إذ فرضت الدولة العثمانية حكمها المباشرعلى المناطق الكردية.

العراق:

وقع جنوب ووسط العراق تحت الإحتلال الصفوي مرة أخرى بعد هزيمتهم فى تشالديران. فجرّد السلطان سليمان المشرع جيشا قاده بنفسه. واستطاع القضاء على تمرد بعض أمراء الحدود الذين تواطأوا مع شاة الفرس. ثم اتجه إلى تبريز ففتحها وترك بها حامية عثمانية. ثم قصد بغداد ففتحها سنة1534م. وقد أقام بها السلطان العثماني مدة أربعة أشهر. رتب خلالها الإدارة الداخلية. وترضية للشيعة زارقبور أئمة آل البيت بما فيهم قبرالإمام على بن أبى طالب فى مدينة النجف.وقبر سيدنا الحسين فى كربلاء (1). وقبل أن يغادر السلطان سليمان بغداد بعث إليه حاكم البصرة العربي بابنه راشد يحمل إليه

هامش ص102

محمد فريد بك. مصدر سابق. ص90

نهاية الهامش.

ص103

مفاتيح المدينة رمز الخضوع والولاء.وبذلك ضُمت البصرة إلى الممتلكات العثمانية. وأصبح كل العراق خاضعا للحكم العثماني(1).

غير أن الإيرانيين فى عهد الشاه عباس استطاعوا دخول بغداد بالتواطؤ مع رئيس شرطتها الذى ثارعلى واليها وقتله وسلم المدينة للإيرانيين. فأرسل السلطان مراد الرابع (1624 –1640م) عدة حملات لإسترجاع بغداد بائت كلها بالفشل. فخرج بنفسه على رأس جيش كبير. واسترد عاصمة الرشيد بعد حصارلها دام أربعين يوما (15نوفمبر- 25ديسمبر1638م)(2). ولم ينته الصراع بين إيران والدولة العثمانية إلا فى عام1747م حين خلص العراق للحكم العثماني (3) فى عهدالسلطان محمود الأول (1730 – 1754).

المغرب العربي (ليبيا- تونس – الجزائر):

بالنسبة للمغرب العربي، فإننا نود أن نقررحقيقة مهمة. وهى أن التوسع العثماني فى المغرب العربي قد اختلف فى شكله ووسائله عن التوسع فى المشرق العربي، فبينما اتخذ التوسع فى المشرق شكل الغزو العسكري. واتخذ اسلوب القهر والقتل سبيلا لبسط السيادة والنفوذ فى بعض الأحيان. الأمر الذى نتج عنه اعتبارالعثمانيين غزاة. ومن ثم كانت المقاومة الشديدة والعنيدة لهم. كما حدث فى مصر بصفة خاصة – نجد أن سيطرة العثمانيين على المغرب العربي قد اتخذت شكلا آخر تماما. ووجد الأتراك العثمانيين ترحيبا من أهل هذه البلاد. بل كان ذهابهم إليها بدعوة من أهلها. وذلك كما يلى:

هوامش ص103

محمود صالح منسى. مرجع سابق. ص28

محمد فريد بك. مصدر سابق. ص ص125 – 128

عبد العزيز الشناوى. مرجع سابق. ص593 .

نهاية الهامش.

ص104

لما استكملت أسبانيا وحدتها السياسية سنة1492م بسقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين فى الأندلس. لم يكتفِ الأسبانيون بطرد المسلمين من الأندلس وتخيير الباقين بين التنصير أو القتل. وإنما قاموا بمطاردة المسلمين الفارين بدينهم فى عرض البحر المتوسط. فقتلوا الرجال وبقروا بطون النساء . واستولوا على ما حمله المسلمون معهم مما خف حمله وغلا ثمنه. بل تمادى الإسبان فى قرصنتهم فهاجموا موانيء الساحل الشمالي لأفريقيا. واستولوا على بعض القلاع فتصدى لهم المغاربة.

ولمعاونته فى طرد الإسبان استعان حاكم الجزائر بالأخوين عروج وخير الدين بربروسّا اللذين كانا قد كوّنا أمارة مستقلة فى جزيرة جربة. واتخذ منها قاعدة بحرية لجميع المتطوعين والسفن. فتمكن عروج من خلع حاكم الجزائر وحل محله.ولكنه لم يلبث أن مات فى أحد معاركه ضد الإسبان. فخلفه أخوه الأصغر خير الدين المعروف (بربروسا)أى ذو اللحية الحمراء.

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها بربروسا، فلم يستطع مواجهة الإسبان بجيوشهم وأساطيلهم فطلب مساعدة السلطان العثماني الذى لبّى مطلبه. فمنحه لقب "بك بكوات أفريقيا" ونَصّبَه قائدا للأسطول العثماني فى غرب البحر المتوسط. وتدفقت عليه التعزيزات العثمانية التى بفضلها تمكن بربروسا من طرد الإسبان من قلعة "بنون" الساحلية. كما سيطرعلى "بيزرته " ثم تونس التى كان ملكها الوطني (مولاى الحسن) تحت سيطرة الإسبان الذين استطاعوا بفضل المعونات الأوروبية أن يستردوا تونس لفترة.

ص105

وقد استطاع "دارغوث" الذي خلف بريار وسا بعد وفاته أن يحرر طرابلس، ويطرد منها فرسان القديس يوحنا سنة1551م. أما تونس فقد بقيت فترة من الزمن يتعاقب عليها العثمانيون والأسبان، حتى استطاع "سنان باشا"أن يخلص تونس من الاحتلال الأسباني. وقضى نهائياَ على الدولة الحفصية سنة1574م(1). وبذلك أصبح الشمال الإفريقي جميعه-ما عدا الغرب الأقصى (مراكش)- تحت سيادة الدولة العثمانية.

هامش ص105

محمود صالح منسي.مرجع سابق ص ص45-48.

ص106

رابعاً- طبيعة العلاقات العربية التركية:

نتج عن الغزو العثماني والسيطرة السياسية على البلاد العربية، ووصول العثمانيين إلى البحار الشرقية أن وقع على كاهلهم واجب الدفاع عن ممتلكاتهم في هذه المناطق ضد الخطر البرتغالي الزاحف من المحيط الهندي، كما سبق أن رأينا، كما اكتسبت الدولة العثمانية صبغة عربية لم تكن لها من قبل، ولا غزو فقد أصبح العرب يكونون نسبة كبيرة من سكانها، كما تدعم مركزها كدولة إسلامية ، بعد ضم الأماكن المقدسة الإسلامية إليها، وانتقال الخلافة الإلامية إلى آل عثمان مما دعم زعامتها للعالم الإسلامي

أما عن طبيعة العلاقات التي قامت بين العرب والأتراك العثمانيين. فقد حددتها لفترة طويلة حقيقتان مهمتان:

الحقيقة الأولى: أن الأتراك العثمانيين بعد سيطرتهم العسكرية والسياسية على البلاد العربية احتفظوا بالبناء الاجتماعي والاقتصادي الذي كان سائداً في تلك المنطقة قبل دخولها في حوزتهم، إلا ماكان يتعارض مع السيادة العثمانية على البلاد الداخلة تحت لوائهم(1). فاكتفوا بفرض سيطرتهم العسكرية والسياسية عليها. وتركوا لشعوب هذه البلاد مؤسساتهم القديمة وحرية الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليد لغتهم.

ويقرر الأستاذ محمد شفيق غربال أن الباحثين قد اعتادوا أن ينسبوا كل شر أصاب العرب لخضوعهم للحكم العثماني ، والواقع أنه بالنسبة لمصر وسوريا لا نجد أن التغيير الذي أصاب تلك الأقطار نتية للغزو العثماني مش شيئاً أساسياً من مقومات المجتمع، فبقيت

هامش ص106

محمد علي رفعت:علي بك الكبير، دار الفكر العربي، القاهرة/د ت د ص8.

ص107

عناصره كما كانت: فلاحوه وبَدْوه. وصُنّاعه،وتُجاره،وعلماؤه، وأجناده. وأصحاب المناصب. ومابين تلك العناصر من علاقات بقي كما هو ، ونم حيازة الأرض ونظم الجيابة هي هي، والواقع الذي يحدث كل يوم هو هو والمثل الأعلى هو هو (1).

ولكن هناك فارق كبير بين مصر وبلاد الشام، فقد حافظ العثمانيون على وحدة مصر إدارياً، فظلت ولاية واحدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ويحكمها باشا معين من قِبَل السلطان، أما بلاد الشام، فقد انقست إدارياً إلى عدة ولايات منذ أن دخلها العثمانيون، وظلت التقسيمات الإدارية تتغير من وقت لآخر.

وقد بدأ القرن التاسع عشر وسوريا مقسمة إلى أربع ولايات تحمل أسماء عواصمها ، وهي : حلب ، ودمشق، وطرابلس ، وصيدا غلا أن عكا كانت هي العاصمة الفعلية لولاية صيدا (2)، كما ترك العثمانيون لهذه الشعوب حرية ممارسة شعائرهم الدينية بصورة علنية وحرية التقاضي في الشؤون الشخصية والمدنية لدى رؤسائهم الدينيين مكتفين بفرض الجزية على المسيحيين منهم كبدل إعفاء من الخدمة العسكرية(3).

كما أبقى العثمانيون على نظام الطوائف التي كان ينقسم إليها أصحاب الحرف، وكانت الائفة بمثابة منظمة اجتماعية واقتصادية لها دستورها غير المكتوب من العادات والتقاليد الموروثة ولها شيخ

هامش ص107

محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة1961،ص130.

عبد الكريم غرابية سوريا في القرن التاسع عشر (1840-1876م) معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة1961-1961م،ص71.

توفيق علي برو: العرب والترك في العهد الدستوري (1908-1914) معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة1960.ص3.

ص108

يتولى شؤونها وتنظيم علاقتها بالحكومة فيما يختص بالضرائب وحفظ النظام داخل الطائفة ورعاية مصالحها، وقد أبقت الدولة العثمانية على هذا الوضع لكي يساعدها على حفظ النظام بين السكان والاتصال بالأهالي عن طريق شيوخهم(1).

وقد ساعد هذا الوضع على احتفاظ العرب في ظل الحكم العثماني بمقوماتهم الأساسية من لغة وثقافة وعادات وتقاليد، كما أن العثمانيين- نتيجة لانعزالهم واستعلائهم- لم يحاولوا تتريك أو عثمنة الشعب العربي وصبغه بالصبغه العثمانية. لذلك فقد " ظلوا غرباء في المناطق العربية التي أصبحت جزءاً من إمبراطوريتهم والذين توطنوا منها البلاد العربية كانوا قلة" (2).

الحقيقة الثانية: أن العثمانيين منذ دخولهم البلاد العربية ارتبطوا بسكانها بوشيجة الإسلام فكان الدين هو القاسم المشترك بينهما وظل الأمر كذلك حتى مطلع القرن العشرين فكان العرب"يعتبرون أن الدولة دولتهم فهي دولة الإسلام وأن السلطان المسلم هو الوارث الفعلي لرئاستهم وحامي حمى الإسلام ورافع لواء الجهاد ضد الكفر والكفار"(3).

وترجع هذه النظرة إلى ما قبل الغزو العثماني للبلاد العربية حينما اندفع العثمانيون في موجات فتوحاتهم في أوروبا فقد كان المسلمون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يعتبرون هذه الحروب

هامش ص108

عبد العزيز الشناوي: الوحدة العربي في التاريخ الحديث والمعاصر مجلة مرآة العلوم الإجتماعية المجلد السابع العدد الأول ديسمبر 1963م .ص16. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي1514 –1914م. الأنجلو المصرية ، القاهرة1963م. ص ص147- 148.

زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية من دراسة تاريخية في العلاقات العربي التركية دار النهار.ط2.بيروت1972. ص ص 19-19.

توفيق علي برو. مرجع سابق ص4زين نور الدين مرجع سبق ذكره ص25.

ص109

جهاداً في سبيل الله وتوسيعاً لرفعة الإسلام . الأ/ر الذي كان يرفع مكانة العثمانيين في أنظار المسلمين ويقوي تيار المتطوعين لخدمتهم(1).

فلا غزو أن اعتبر السلطان سليم الأول سيطرته على مصر وسوريا " إنقاذاً لها من جور المماليك(2). ولا غزو أيضاً أن يبادر شريف مكة وأميرها بتقديم مفاتيح الكعبة إلى السلطان سليم كدليل على حركة بسط السيادة العثمانية على الحجاز(3).

وهناك حادثة تدل دلالة عميقة على عمق العاطفة الإسلامية، وعلى أن مجتمعات ذلك الوقت كانت مجتمعات إسلامية بعيدة عن مفهوم القومية ، وهي : أن السلطان طومان باي طلب من المغاربة المقيمين في مصر أثناء غزو سليم الأول لها (في يناير1517م) أن يشكلوا فرقة قوامها ألف مقاتل لمحاربة العثمانيين، فأجمع المغاربة على موقف واحد واجهوا به السلطان طومان باي بكل شجاعة، وهو انهم لا يحاربون إلا المسيحيين ، أما الأتراك العثمانيون فهم مسلمون وليس من الإسلام أن يشهروا سلاحهم في وجوه إخوانهم في العقيدة وأصروا على رفض محاربة الأتراك العثمانيين على الرغم من تهديد طومان باي لهم بالسجن(4).

هامش ص109

ساطع الحصري ، مرجع سابق،ص16.

توفيق علي برو، مرجع سابق ص4.

كان الدافع الأساسي للشريف بركات في قبول السيادة العثمانية ه رغبته في الإبقاء على الروابط الاقتصادية التي تربط مصر بالحجاز الذي كان يعتمد عليها في إيراد أوقاف الحرمين الشريفين وتتمثل في أموال سائلة تسمى الصلرة ، وترسل مع قافلة الحج كل عام لتوزع على الأشراف وإصلاح الحرمين الشريفين وفقراء الحجاز كما تتمثل في الغلال والحبوب الي كانت تشحن على مدار السنة إلى جدة وينبع.

ابن إياس مصدر سبق ذكره ج3ص91.

ص 110

مما يتضح لنا أن الإسلام كان أهم عامل جمع الأتراك والعرب في رابطة متينة طيلة أربعة قرون . وجد العرب أنفسهم خلالها جزاً من أعظم وأقوى إمبراطورية إسلامية عرفت منذ ظهور الإسلام . وأما كون هذه الإمبراطورية عثمانية فلم يكن ذلك في نظر العرب المسلمين حتى مطلع القرن العشرين ـ وبعد أن أصبحوا يشعرون سياسيا بقوميتهم العربية ـ أمرًا ذا بال ما دامت هذه الإمبراطورية التي يعيشون في كنفها إمبراطورية إسلامية فقد كان الجميع (عرباً وتركاً) يشعرون أنهم أعضاء في أمة إسلامية عظيمة يربط بينهم دين واحد ويدينون بالولاء لحاكم مسلم هو السلطان العثماني .

يقول في هذا الصدد أحد الباحثين العرب : (كانت الإمبراطورية العثمانية دولة إسلامية يحمل سلطانها لقب خليفة ، ويطبق أحكام الشرع الإسلامي على المسلمين ، ولا يفرق بين عربي وتركي وكردي ما دام الإسلام قد وحد بينهم ، ولم يشعر العرب المسلمون السُّنيون أنهم أقلية محكومة لأنهم لم يكونوا كذلك ، وارتاح المسلمون واطمأنوا إلى حكم سلطان السلاطين) (1) . الذي كان ينظر إليه على أنه خليفة المسلمين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحامي القدس الشريف وحاكمها . وقد استبدل العثمانيون باسم عاصمة إمبراطوريتهم القسطنطينية اسم آخر هو (إسلامبول) أي (دار الإسلام) ، أي حيث يذخر أو يغزر الإسلام (2) .

هامش ص 110

(1) : عبد الكريم غرايبة ، مرجع سبق ذكره . ص17

(2) : زين نور الدين زين ، مرجع سبق ذكره ، ص ص26 . 25، هامش رقم25ص 179 . أما كلمة الأستانة فهي فارسية بمعنى دار السعادة العربي يطلق عليها أيضا في الدواوين والمراسلات السلطانية ، محمد عزة دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة، طبعة منقحة وموسعة للقسم الأول من الجزء الأول من كتاب حول الحركة العربية الحديثة ، المكتبة العصرية ، بيروت1971م. ط2 . ص157 .

انتهى الهامش

ص 111

وجدير بالذكر أن لفظة (عرب) لم تكن تطلق على السكان المسلمين الذين هم من أصل عربي في الوثائق والكتب والمعاملات ، وإنما كانت تسميتهم الشائعة هي كلمة (مسلمين) ، هم والترك على حد سواء في وقت كان الدين هو الفارق المميز بين الجماعات (1)، أو كلمة (تركي) التي كانت تشمل جميع المسلمين القاطنين في الإمبراطورية بغض النظر عن أصلهم العرقي ، أما (عربي) كانت تطلق على البدو الرحل في الصحراء بنوع خاص (2) .

خامسا ـ إشكالية انتقال الخلافة إلى العثمانيين :

اختلف الباحثون وأثاروا جدلاً طويلاً حول انتقال الخلافة العباسية إلى العثمانيين عقب سيطرتهم على الشام ومصر سنة1517 .... فذهب المؤرخ الروماني (قسطنطين دوسون) في كتابه (صورة عامة للإمبراطورية العثمانية) إلى أن الخليفة المتوكل على الله قد قدم تنازلا عن الخلافة إلى السلطان سليم الأول ، بعد دخوله مصر ، كما اعطاه شعائر الخلافة التي كانت موجودة بالقاهرة ، وهي بردة النبي (ص) ، وبعض شعرات من لحيته الشريفة ، وسيف عمر بن الخطاب . هذه الشعائر التي أرسلها سليم الأول إلى الاستانة ولا زالت موجودة بها إلى اليوم . ومنذ ذلك الوقت انتقلت الخلافة إلى آل عثمان في رأي هذا المؤرخ ، وإن كان لم يذكر الوثائق أو المصادر التي استند إليها في تحقيق هذا

هامش ص 111

(1) : توفيق علي برو . مرجع سابق ، ص 4 .

(2) : زين نور الدين زين ، مرجع سبق ذكره ، ص26، هامش رقم26ص 179 . محمد بديع شريف ، زكي المحاسني ، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، الإدارة الثقافية بجامعهة الدول العربية ، الأنجلو المصرية ، د.ت ص139 .

انتهى الهامش

ص 112

الموضوع الخطير (1) . وعن هذا المؤرخ أخذ معظم الباحثين يرددون فكرة التنازل .

غير أن أستاذنا الدكتور عبد العزيز الشناوي ينفي هذه الفكرة ، ويرى أن الخليفة المتوكل ـ الذي كان قد خرج مع السلطان الغوري إلى الشام ـ عاد إلى مصر في ركاب الجيوش العثمانية ، وقد حاول سليم استغلاله في استمالة المصريين إلى حكمه ، فأعطاه بعض النفوذ ، فداخله الغرور ، وبدت منه تصرفات أغضبت السلطان ، فأرسله إلى العاصمة إسلامبول مع بعض ذويه سنة1517م ، وعندما عاد سليم إلى استنابول وجد الخليفة يعيش حياة يملؤها المجون والاستهتار والتكالب على جمع المال ، فاضطر إلى حبسه ، حيث ظل في محبسه حتى توفي سليم عام1520، وخلفه سليمان المشرع فأفرج عنه وسمح له بالعودة إلى مصر ، فظل بها محتفظا بلقب خليفة حتى وفاته سنة1543 .

يؤيد ذلك أنه عندما ثار أحد باشوات مصر ، ويدعى أحمد باشا على السلطان بغية الانفصال بحكم مصر أصدر له المتوكل تفويضا بذلك على غرار ما كان يفعل الخلفاء العباسيون في مصر إبان حكم المماليك ، ورغم أن السلطنة العثمانية قضت على تلك الثورة إلا أنها لم تلحق بالمتوكل سوءاً ، واكتفت بتركه يعيش خامل الذكر حتى وفاته التي انتهت بها الخلافة العباسية في مصر .

أما نقل شعائر الخلافة إلى الأستانة ، فلا يعتبره أستاذنا الدكتور الشناوي ـ دليلا على حدوث التنازل ، لأن سليم الأول الذي انتزع رخام المساجد ونقل المخطوطات مع العمال المهرة إلى عاصمته ، لم يكن

هامش ص 112

(1) : عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص591 . حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، دار المعارف القاهرة1970ط 3ص 177 . محمد أنيس ، مرجع سبق ذكره ص144 .

انتهى الهامش

ص 113

يستعصى عليه نقل شعائرالخلافة إلى الاستانة أيضا ، فبمجرد النقل لا يعني حادثة التنازل قد وقعت بالفعل ، ولا سيما وأن مؤرخًا مصرياً معاصراً للغزو العثماني ـ كابن إياس ـ رغم ذكره لتفصيلات كثيرة عن الخليفة المتوكل في الشام ومصر والآستانة ـ لم يذكر شيئا عن مسألة التنازل هذه ، يضاف إلى ذلك أن السلطان سليم في رسائله التي كان يبعثها إلى ابنه سليمان عند فتوحاته في مصر والشام لم يذكر شيئا فيها عن حادثة التنازل (1) .

على أن الرأي الراجح ـ لدى أستاذنا الدكتور الشناوي ـ هو أن سلاطين آل عثمان لم يهتموا بعد غزوهم لمصر بلقب خليفة ، لأن ذلك اللقب كان قد فقد مكانته منذ فترة طويلة سابقة ، إذ لم يكن يعطي لحامله سلطة فعلية ، وإنما أصبح مجرد رمز للتبرك . ولم يكن سليم ـ الذي حثث مجدًا عسكرياً بانتصاراته المذهلة ـ بالشخص الذي يهتم بأن يرث لقب خليفة القاهرة الضعيف الهزيل . أما اللقب الذي كان يستهوي سليم الأول ويعتز به بعد فتحه لمصر ، فهو لقب (خادم الحرمين الشريفين) الذي كان يتلقب به سلاطين المماليك بحكم تبعية الحجاز لمصر ، فورثه سليم الأول بعد خضوع الحجاز له كما أوضحنا سلفا (2) .

غير أن اهتمام سلاطين الدولة العثمانية بإبراز لقب خليفة ضمن ألقابهم المتعددة لم يبدأ إلا من منذ القرن الثامن عشر الميلادي نتيجة لظروف الدولة السياسية ، حيث حيث بدأت تواج ضغطاً أوروبياً يستهدف اقتطاع ممتلكاتها ، ومن ثم كان تمسك سلاطين آل عثمان بالخلافة كوسيلة لمقاومة هذا الضغط بتهديد الحكومات الأوروبية ، بتحريك رعاياها المسلمين الخاضعين للحكم المسيحي من ناحية ، أو فرض

هامش ص 113

(1) : عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة . ص ص588-589 .

(2) : المرجع السابق . ص590 .

انتهى الهامش

ص 114.

سلطة روحية على المسلمين جميعا بما فيهم الواقعين تحت سيطرة الدول المسيحية من جهة أخرى . وقد ظهرت آثار ذلك في معاهدة كيتشك كينارجي (1774م) المبرمة بين روسيا والدول العثمانية ، والتي بمقتضاها استولت روسيا على بلاد القرم الإسلامية ، فقد نُصَّ في هذه المعاهدة على جعل المسلمين في بلاد القرم خاضعين لسيادة السلطان العثماني الروحية ، فأصبح من حقه تعيين المفتي والقضاء في هذه البلاد (1).

على أننا نجد أحد الباحثين من دعاة القومية العربية ، وهو الأستاذ ساطع الحصري ، لا يكتفي بإنكار واقعة التنازل هذه ، بل يطلق عليها " أسطورة " اختلقها رجال الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليم الأول بفترة كبيرة بهدف تقوية نفوذ الدولة العثمانية وتسهيل حكمها ، ويسوق العديد من الأدلة على ذلك – كسكوت ابن اياس ويوميات فريدون بك التي سجلت أعمال السلطان سليم منذ خروجه للغزو حتى عودته إلى العاصمة ، وتاريخ التواريخ الذي ألفه ابن شيخ الإسلام الذي رافق السلطان سليم خلال غزوه مصر – عن ذكر واقعة التنازل (2).

كما أنكر واقعة التنازل هذه المستشرقان الأوروبيان : توماس أرنولد الإنجليزي ، وكارلو الفونسو نلينو الإيطالي . وخلاصة دراستهما أن واقعة تنازل الخليفة المتوكل عن الخلافة للسلطان سليم الأول لم تحدث ، إلا أنهما يقرران من جهة أخرى أن سلاطين آل عثمان قد اتخذوا لقب الخلافة بين ألقابهم العديدة قبل الغزو العثماني لمصر بنحو قرن ونصف ، وأن هؤلاء السلاطين لم يكونوا يهتمون كثيرًا بلقب "خليفة" بعد سيطرتهم على مصر، فلم يستعملوه إلا قليلا بغير نص . إذ كانوا

هامش ص 114.

(1) المرجع السابق، ص590-591 .

(2) ساطع الحصري، مرجع سبق ذكره. ص ص42-46 .

انتهى الهامش.

ص 115.

يؤثرون عليه لقب "خادم الحرمين" ، غير أن مسألة الخلافة العثمانية قد اتخذت صبغة سياسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لمواجهة الضغط الأوروبي من ناحية ، ولكسب عطف العالم الإسلامي وجمعه حول عرش الخلافة من ناحية أخرى (1) .

على أننا نجد أن الدكتور حسن عثمان يلقي ظلالا من الشك على كافة الآراء السابقة المؤيدة لفكرة التنازل والمعارضة، وذلك بالتشكيك في مصادر هذه الآراء وظروف تدوينها.

فسكوت ابن اياس عن ذكر الواقعة – في رأيه – لا يستلزم أنها لم تقع ، بل يجوز وقوعها لأن سكوته عن ذكر الواقعة ربما يكون كراهية في العثمانيين الذين قضوا على دولة المماليك ، الذي هو أصلاً ينتسب إليهم . وشعورا منه بالعزة المصرية أو العربية ، وهي كراهية طبيعية .

كما أن آراء الأستاذين أرنولد ونلينو، ليست - في رأيه - قاطعة لأنهما اعتمدا في إثبات آرائهما على الناحية الفقهية التي تعتبر نظام الخلافة الإسلامية الصحيحة منتهٍ بانتهاء عصر الراشدين ، كما أنهما اعتمدا أيضا على بعض النماذج المختارة المطبوعة من مراسلات السلاطين العثمانيين التي نشرها فريدون بك ، والمحتوية على ألقابهم ، والتي لا تعنى بلقب الخلافة العناية الكافية، وهذا ليس دليلاً على عدم اهتمام العثمانيين بلقب الخلافة في العهد التالي أو القريب من غزو مصر، كما أنه ربما أن يكون هذان الأستاذان قد قاما ببحوثهما بهدف الوصول إلى نتيجة سياسية معاصرة معينة، وهي تنفير الشعوب الإسلامية من الخلافة العثمانية ، تحقيقاً لمصلحة بلديهما اللتين كانتا في حرب مع الدولة العثمانية ، حيث أنهما قاما بهذه البحوث إبان

هامش ص 115.

(1) حسن عثمان ، مرجع سبق ذكره ، ص177-178 ، عبد العزيز الشناوي ، مرجع سبق ذكره، ص ص591-592 .

انتهى الهامش .

ص 116.

الحرب العالمية الأولى (1914-1918م) ، التي جعلت من المعتذر عليهما من ناحية أخري الحصول على وثائق أرشيف الأستانة، ومن ثم كانت آراؤهما غير دقيقة (1) .

مما سبق ، يمكن القول بأن واقعة التنازل عن الخلافة لا يزال يكتنفها الغموض حتى الآن ، إذ لم يرد دليل قاطع ينفي أو يؤكد وقوعها ، وكل الذي نستطيع أن نؤكده هنا أن اهتمام سلاطين آل عثمان بلقب الخلافة كان بعد سيطرتهم على مصر بوقت قصير ، وبالتحديد منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، وفي عهد سليمان المشرع ، وفي وقت كانت فيه الدولة العثمانية في أوج عظمتها، حيث لم يكن هناك ما يدعو إلى اجتذاب المسلمين إليه تحقيقا لغرض سياسي.

فهناك مخطوطة تركية بمكتبة جامعة القاهرة تحمل رقم (4848) ، وهي صورة لمجموعة من المجموعات القانونية التي أصدرها السلطان سليمان المشرع (1520-1566م) في أوروبا ، وتحتوي على بعض ألقاب السلطنة ، ومنها ما يلي نصه : " خليفة رسول رب العالمين، وحايز الإمامة العظمى ، ووارث الخلافة الكبرى " .

كما توجد مخطوطة أخرى في أرشيف فيينا التاريخي ، وتحتوي على لقب الخلافة ، وهي عبارة عن رسالة من السلطان أحمد الأول (1603 –1617م) إلى الإمبراطور ماتياس النمساوي ، وتحمل تاريخ القسطنطينية في2جمادى الآخرة1026هـ - 26يونيو 1617م ، ومنها ما يلي نصه : " ظهر الله تعالى في الأرض المتمكن على المقام الشريف إني جاعل في الأرض خليفة... حامي وحاكم السلطنة العلية ومقر الخلافة السنية..." (2) .

هامش ص 116.

(2) حسن عثمان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص178-179 .

(1) المرجع السابق ، ص ص179-180 .

انتهى الهامش.

ص 117.

وأيضاً كان ملوك أوروبا يخاطبون السلاطين العثمانيين في تلك الفترة المبكرة (أواخر القرن السادس عشر) بلقب الخلافة ، مما يدل على شيوع هدا اللقب ، ففي رسالة مؤرخة بسنة1593م من ملك فرنسا هنري الرابع إلى السلطان مراد الثالث (1574 – 1595م) ، يتوسل فيها إليه ألا يلقي آذاناً مصغية لمن يجيئه من قبل ملك اسبانيا ، الذي كان يشن حرباً ظالمة ضد ملك فرنسا ،

نجده يخاطبه بقوله : " إلى السلطان ، خليفة المسلمين ، مراد خان ، السلطان المعظم ، القادر الفاضل الكريم ، الظافر الذي لا يقهر ، صاحب المجد والفضيلة ، صديقنا العزيز الودود ..." (1) .

ويمكن تفسير اهتمام سلاطين آل عثمان بلقب خليفة في أوقات قوتهم ، أنه بعد سقوط بغداد على أيدي المغول سنة656هـ - سنة 1258م ، شاع استخدام كلمة خليفة بين حكام المسلمين في مناطق مختلفة في العالم الإسلامي، استناداً إلى كونهم يعتبرون أنفسهم خلفاء الله في الأرض ، ولذلك فهم يستمدون سلطانهم من الله مباشرة ، وهو ما عرف في أوروبا بالحق الإلهي أو المقدس للملوك ، وكان سلاطين آل عثمان قبل دخولهم مصر يتلقبون بلقب خليفة ، كمراد الأول ، وبايزيد الصاعقة ، ومحمد الأول ، كما لقب سليم الأول بهذا اللقب قبل أن يلي العرش (2) ، فإذا كان سليم ـ الذي لقب بهذا اللقب قبل توليته كما لقب به غيره من سلاطين آل عثمان الذين سبقوه ـ قد أنف بعد غزوه مصر أن يرث هذا اللقب من قبل خليفة القاهرة فما المانع أن يتلقب به سلاطين آل عثمان بعد وفاة المتوكل على الله سنة1543م ، وانتهاء الخلافة العباسية من الوجود ، لاسيما وقد شملت الدولة العثمانية في عهد سليمان المشرع جميع العالم الإسلامي السني ، بعد أن ابتلعت الدولة المملوكية ، وانتزعت العراق من الدولة.

هامش ص 117.

(1) زين نور الدين زين ، مرجع سبق ذكره ، ص181هامش رقم 11 .

(2) عبد العزيز الشناوي، مرجع سبق ذكره ، ص589-590 .

انتهى الهامش.

ص 118.

الصفوية، التي أصبحت ضعيفة أمام القوة العثمانية التي أصبحت ترفع علم الجهاد ضد أوروبا وتمثل الواجهة الإسلامية، والقوة الإسلامية الناهضة.

نقول ما المانع في ذلك؟ والعالم الإسلامي بدون خليفة ، وهل كان سلاطين آل عثمان يحتاجون إلى تنازل رسمي ليتلقبوا بألقاب الخلافة؟ إن العالم الإسلامي عاش فترة من الزمان كان فيه ثلاث خلفاء في وقت واحد، أحدهما عباسي، والثاني فاطمي، والثالث أموي بالأندلس، وذلك خلال القرن الرابع الهجري بدون أن يتنازل أي منهم للآخر عن لقب الخلافة، وكان اثنان منهم في أوج قوتهما.

ص 119

الفصل الرابع

خصائص الحكم العثماني

(المزايا والعيوب)

ص121

شهدت فترة الحكم العثماني للبدان الإسلامية الكثير من المزايا المهمة . والعديد من العيوب السلبية التي تطورت وجعلت بعض المؤرخين يعتبرونها من خصائص الحكم العثماني على وجه العموم .

ونحن هنا سنتناول الجانبين من باب الإنصاف في تناول الأحداث التاريخية .

أولاً : مزايا الحكم العثماني :

في الواقع فإن الدولة العثمانية قد قدمت الكثير لبلدان العالم الإسلامي فينواحٍ عديدة في السياسية والاقتصاد والعلوم والعمران ونشر الإسلام وحماية العديد بلدانها من الاحتلال الأوروبي المبكر .. إلخ .

وفي كتابنا هذا يصعب حصر مزايا الدولة العثمانية ، ولو حتى فر رؤوس أقلام . وذلك سوف نشير إلى جانب منها باختصار .

1ـ إن الدولة العثمانية جعلت البحر الأحمر بحراً إسلامياً مغلقاً ، بمعنى تحريم الملاحة في هذا البحر على السفن أوروبا المسيحية . وكان التبرير لها الإجراء . أن البحر الأحمر تطل مياهه على الأماكن المقدسة الإسلامية فيجب ألا تدنس تلك المياه بوجود سفن مسيحية فيه . فكانت تلك السفن تدخل البحر الأحمر حتى ثغر مخا في اليمن ، حيث تفرغ شحناتها ، ثم تعود إلى المحيط الهندي من حيث أتت ، ثم يعاد شحن تلك البضائع على سفن إسلامية ، وبحارتها مسلمون ، وتبحر في البحر الأحمر إلى جدة أو ينبع أو السويس .

ويرجع السبب في هذا التشريع الوقائي إلى أن البرتغاليين بعد أن وصلوا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح سنة1498م ، بدأوا يمارسون سياسة صليبية عنيفة ضد البدان الإسلامية ، فهاجموا منطقة الخليج والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، وتعاونوا مع الحبشة (إثيوبيا حالياً) في هذه المشروعات الصليبية ، التي كان من أخطرها محاولة البرتغاليين إرسال حملة بحرية إلى جدة للإستيلاء على

ص122

هذا مينائها ، والزحف منه براً للإستيلاء على الأماكن المقدسة الإسلامية(1) ، وخاصة المدينة المنورة لنبش قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وسرقة جثمانه الشريف ليكسروا به شوكة المسلمين ، ويفاوضونهم بالجثمان الطاهر ، ولكن من فضل الله ، أن هذه الحملة فشلت بسبب الريح العاتية التي سخرها الله عليهم قبل وصولهم إلى جدة .

ثم حاول البرتغاليون مرة أخرى الهجوم على ميناء السويس ، فرأت الدولة العثمانية إغلاق هذا البحر كليةً في وجه الملاحة المسيحية دفاعاً عن ممتلكاتها ، وقد ساعدها على تنفيذ ذلك وقوع اليمن تحت الحكم العثماني ، وقد ظل هذا التشريع العثماني نافذ المفعول حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي حين طُرد العثمانيون من اليمن ، وعندئذ فتح حكامها الجدد ثغر مخا للسفن المسيحية ، ثم فتح ثغر جدة خلال القرن الثامن عشر الميلادي لهذه السفن على عهد علي بك الكبير الذي أعلن استقلاله بحكم مصر في الفترة (1768ـ1771م) . ولكن المنطقة الواقعة بين جدة والسويس ظلت محرمة على تلك السفن(2).

2ـ أن الدولة العثمانية حفظت لشمال أفريقيا عروبته وإسلامه ، ذلك أن الحكم المسيحي الصليبي الذي سيطر على الأندلس عقب سقوط الحكم الإسلامي في هذه البلاد(3) سرعان ما انتهج سياسة صليبية مسرفة في عدائها للمسلمين ؛ إذ أجبروا المسلمين الموجودين في الأندلس بين التنصير أو شق البطون الذي كان أبسط عقوبة ، الأمر الذي دفع المسلمين إلى الهرب بدينهم قاصدين شمال أفريقيا كأقرب دار إسلام لهم ، ولكن اساطيل الأسبان كانت لهم بالمرصاد تتعرض

هامش ص122

1ـ صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ، الأنجلو المصرية القاهرة1965م ، ص13ـ19، د. محمد بديع شريف وزميلاه ، مرجع سبق ذكره ص192

2ـ عبد العزيز الشناوي :الوحدة العربية ص17

3ـ كانت غرناطة آخر معقل إسلامي في الأندلس ، وقد سقطت سنة1492م .

إنتهى الهامش

ص123

لهم في البحر المتوسط فتستولي على ما معهم وتلقي بهم في البحر .

وإمعاناً في هذه المطاردة البحرية أنشأ الأسبان قواعد بحرية أو محطات عسكرية على طول الساحل الشمالي لأفريقيا حتى بني غازي لتمويل سفنهم ، عندئذ أسرع السلطان سليمان المشرع بإرسال الأسطول العثماني إلى الحوض الغربي من البحر المتوسط لمنع السفن المسيحية من التعرض للمسلمين ، وفي الوقت ذاته عملت القوات العثمانية على تطهير ساحل أفريقيا الشمالي من الجيوش الصليبية ؛ وبذلك يكون الفضل للدولة العثمانية التي حفظت لشمال أفريقيا عروبته وإسلامه(1).

3ـ أن الدولة العثمانية كانت سبباً في أن ينعم العالم العربي في ظل الحكم العثماني بالهدوء والاستقرار والأمن في وقت كان في أشد الحاجة إليه بعد حالة الإعياء والإنهاك التي أصابته نتيجة تعرضه للحملات الصليبية وغزوات المغول(2).

4ـ حقق الحكم العثماني للعالم العربي وحدة سياسية متجانسة متكاملة ، وكانت وحجة عملية ، وعلى الطبيعة دون الحاجة إلى إعلان أو دستور ينظمها ؛ فلم يكن هناك فرق بين مصري وشامي وعراقي وليبي وتونسي وجزائري ، الجميع مواطنو الدولة العثمانية ، والجميع يُسمح لهم بالسفر والانتقال من إقليم عثماني إلى آخر دون جواز سفر أو تاشيرة دخول وخروج ، أو تحديد إقامة إذ لم تكن هناك حدود سياسية فاصلة بين إقليم وآخر ولا حواجز جمركية في ظل الحكم العثماني ، فالجميع رعايا الدولة العثمانية(3) .

هامش ص123

1ـ عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص525، 704

2ـ عبد العزيز الشناوي الوحدة العربية ص14

3ـ المرجع السابق نفس الصفحة

إنتهى الهامش

ص124

5ـ حَفِظَ الحكم العثماني العالم العربي من الزحف الاحتلالي الأوروبي ما بقيت الدولة العثمانية قويةً(1) ، فقد ظل العالم العربي بمنأى عن الاحتلال الأوروبي حتى أواخر القرن الثامن عشر(2).

حين تعرضت كصر للاحتلال الفرنسي سنة1798م . ثم الإنجليزي سنة1807م . وقد فشلت هاتان المحاولتان .

ومن ناحية أخرى ، وباستثناء الجزائر التي وقعت في قبضة الفرنسيين سنة1830م ، فقد استفادت البلاد العربية من السياسة التي اتبعتها بعض الدول الأوروبية الكبرى حتى عام1878م هذه السياسة التي كانت تستهدف المحافظ على الدولة العثمانية والإبقاء على ممتلكاتها(3) ، ثم سقطت تونس في يد فرنسا سنة1881م ، ومصر في قبضة إنجلترا سنة1882م ، ومراكش تحت الحكم الإسباني الفرنسي سنة1912م ، وليبيا في يد إيطاليا سنة1911م ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي منذ سنة1920م ، وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني منذ1920م ، وقبل ذلك وفي سنة1917صدر وعد بلفور للصهاينة بسلب فلسطين من أهلها العرب .

6ـ حافظت الدولة العثمانية على سيادة المذهب السني في العالم العربي والكردي أمام المحاولات المستميتة التي بذلها الصفويون الشيعة لنشر المذهب الشيعي في بلدان العالم الإسلامي(4) .

هذه هي بعض مزايا ومحاسن الحكم العثماني في العالم العربي ، الذي استطاع أن يجني ثمارها ويفيد منها طوال أربعة قرون ، حتى كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ، حينما ضعفت الدولة العثمانية ، فأبرزت العناصر غير الإسلامية الخاضعة للدولة العثمانية

هامش ص124

1ـ زين نور الدين : مرجع سبق ذكره ص22

2ـ محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص139

3ـ عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ص14

4ـ عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ج1ص577

إنتهى الهامش

ص125

قرنها لتدرأ عن نفسها ما اعتبرته خطر حركة الجامعة الإسلامية ، فتنادى المسيحيون الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة بالقومية العربية كبديل لحركة الجامعة الإسلامية كما سنرى في فصل لاحق في هذا الكتاب .

ثانياً : خصائص الحكم العثماني :

تميز الحكم العثماني عموماً بعدة خصائص كان لها أثر بارز فيما انتهت إليه الإمبراطورية العثمانية من فساد وفوضى ، ثم ضعف وانهيار وتفكك ، أدى بها في النهاية إلى التقلص والتفتت ، نتيجة وقوع أجزاء منها تحت السيطرة الأوروبية ، واستقلال أجزاء أخرى ، وذلك خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتتمثل هذه الخصائص فيما يلي :

1ـ الاستعلاء والعزلة :

عاش العثمانيون في البلاد العربية "طبقة ارستقراطية منعزلة عن الشعوب العربية"(1) ، وكان "طابعها الصلف والصرامة والاستعلاء"(2) ، الذي تمثل في أسلوب حياتهم وفي طريقة استيطانهم العالم العربي ، فهم لم يختلطوا بالعرب ، ولم ينصهروا بهم ، بل تقوقعوا جنسياً واجتماعياً وثقافياً ، الأمر الذي نتج عنه عدم اندماجهم في العرب وانصهارهم معهم .

وهذا بعكس ما حدث بعد الفتح العربي للمنطقة في صدر الإسلام ؛ حيث تتابعت الموجات البشرية المنطلقة من قلب شبه الجزيرة

هامش ص125

1ـ عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ، مرجع سبق ذكره ص14

2ـ عبد العزيز الشناوي : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس ـ أبريل سنة1969م مطبعة دار الكتب1971م ص 4 .

إنتهى الهامش

ص126

العربية ، تبشر بالإسلام بلسان عربي ، فاقترب العرب من سكان البلاد الأصليين منذ نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري ، واختلطوا بهم واندمجوا معهم ، وصاهروهم ، فتدخلت الدماء العربية في دماء أهل البلاد الأصليين ، وهي الظاهرة التي تسمى بـ "التعريب الجنسي "(1) ، التي كان من أبرز آثارها ظهور الأمة العربية ، المتحدة في اللغة والعادات والتقاليد فوق تلك الرقعة الفسيحة من المحيط إلى الخليج على مدى الأجيال المتعاقبة .

وبناء على ما سبق ذكره ، يمكن القوا أن الغزو العثماني للعالم العربي كان عملية سيطرة عسكرية بحتة ، بحيث لم يحدث في أعقابها امتزاج وانصهار بين العثمانيين وبين شعوب الأمة العربية ، وبعبارة أخرى : لم تقع ما يمكن أن نطلق عليه ظاهرة تتريك جنسي للعرب(2) .

وترجع هذه الخاصية إلى نظرة العثمانيين إلى المجتمع الذي كانوا يقسمونه إلى طبقتين : الحكام الأتراك ، والرعية المحكومين الذين كانت مهمتهم خدمة الطبقة الأولى ، لذلك لا عجب أن انعزل العثمانيون عن بقية المجتمع ، وترفعوا عن الاتصال به(3) .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الاستعلاء وهذه العزلة عن الشعب العربي كانا لهما أثر إيجابي ؛ فقد ساعدا العرب على الاحتفاظ بمقوماتهم الأساسية من : لغة وثقافة وعادات وتقاليد(4) ، التي كانت أساساً قامت عليه حركتهم القومية بعد ذلك .

هامش ص126

1ـ عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ، موقع سبق ذكره ص14ـ15، وعن التعريب الجنسي ، انظر جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد ، دكتور إحسان عباس ط2، دار العلم للملايين ـ بيروت 1966ص 73ـ75

2ـ عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ، مرجع سبق ذكره ص15

3ـ محمود صالح منسي : مرجع سبق ذكره ص31

4ـ عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ص15

إنتهى الهامش

ص127

2ـ الحكم غير المباشر :

تميز الحكم العثماني للعالم العربي بخاصية أخرى ساعدت على انعزال العثمانيين عن الشعوب العربية المحكومة ، وهي : أن نظام الحكم العثماني كان حكماً غير مباشر(1) ، بمعنى أن الدولة العثمانية لم تتصل برعاياها العرب اتصالاً مركزياً مباشراً : إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين يسيرة للغاية حيث اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على :

أ) كفالة الأمن الخارجي والداخلي

ب) جمع الضرائب وتوزيعها في شتى وجوهها

ت) الفصل في الخصومات بين الناس

أما ما عدا ذلك من خدمات عامة ، كالصحة والتعليم وغير ذلك من مسؤوليات تعتبر في عصرنا الحاضر من أهم واجبات الحكومة ، فقد أهملتها الدولة ، وتركتها للأفراد والجماعات(2) ، وقد ارتبط بهذا المفهوم لوظيفة الدولة عند العثمانيين حقيقة مهمة ، وهي : أن الحكم العثماني كان قليل التأثير في حياة المجتمعات العربية ؛ حيث احتفظت هذه المجتمعات بنظمها الاجتماعية والاقتصادية ، وتقاليدها نتيجة أبقاء العثمانيين على تلك الأنظمة التي كانت سائدة في البلاد العربية قبل أن تدخل في حوزتهم ، والتي م أهمها نظام الطوائف كما سبق أن ذكرنا .

على أن هذه الحقيقة كان لها أثرها الفعال في نمو فكرة القومية العربية ، لأن العثمانيين طوال هذه الفترة لم يعملوا على ما يمكن

هامش ص127

1ـ عبد العزيز الشناوي : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ص5

2ـ المرجع السابق ص15ـ16، محمد أنيس ، مرجع سبق ذكره ص140، توفيق علي برو : مرجع سبق ذكره ص13

إنتهى الهامش

ص128

تسميته"عثمنة العرب" أو تتريكهم بالتأثير في ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

3ـ حكم عسكري :

كانت الدولة العثمانية تحكم بنظام عسكري ، وقبل تأكيداً لهذا المعنى أن الجيش العثماني كان عبارة عن عملة ذات وجهين ، أحدهما : الحرب، والآخر : الحكم ، فقد كان رجال الجيش يتقلدون المناصب المدنية(1).

وكانت الأمور الإدارية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأمور الحربية ، ذلك أن الدولة كانت تمنح رجال الجيش في بعض الولايات العربية كالعراق أرضاً لزراعتها والاستقرار فيها تسمى : "تيمار أو زعامت أو خاص" .

وهؤلاء كانوا يقومون بدورهم بتوزيع هذه الأراضي على أتباعهم ، وذلك في نظير قيام أصحاب هذه التيمارات أو الزعامات بتقديم الخدمات الحربية من خيالة وفرسان محاربين وتجهيزهم بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة وخيول عند حروب السلطان(2).

وقد رحب سلاطين الدولة العثمانية بهذا النظام ، لأنه كان يضمن لهم زراعة الأراضي من ناحية ، والحصول على القوات اللازمة في أثناء الحروب دون تحمل الدولة لأعباء تجهيز هذه القوات أو دفع مرتبات لها من ناحية أخرى(3) ، هذا بالنسبة للمناطق الخاضعة للنظام الإقطاعي العسكري كالعراق ، أما بالنسبة للمناطق التي لم تعرف هذا النظام كولاية مصر . فقد اتبع فيها نظام الحاميات (الأوجاقات) التي كانت تتكون من عسكريين محترفين تدفع لهم الدولة مرتباتهم من غلة الأراضي التي كانت محبوسة على أفراد تلك الحاميات . وهذا مما يؤكد

هامش ص128

1ـ عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص529

2ـ المرجع السابق ص522ـ523، ساطع الحصري : مرجع سبق ذكره ص29ـ32، محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص141

3ـ محمد أنيس ـ السيد رجب حراز : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية ، القاهرة1967م ، ص 46ـ47

إنتهى الهامش

ص129

أن النظام الزراعي كان هو الآخر إلى جانب النظام الإداري مرتبطاً أوثق الارتباط بنظام الحاميات العثمانية داخل بعض الآيالات(1).

ولا شك أن نظام "عسكرة الدولة" ، أي قيام العسكر ـ لاسيما القادة منهم ـ بالسيطرة على مقاليد البلاد ومواردها يُعجل بزوال أي دولة تقوم على هذا النظام ؛ حيث تُهضم حقوق المدنيين من الشعب ، وتُهمل شؤونهم ، ويكرس العسكر بقاء سلطتهم بالسلاح لا بثقة المواطنين ؛ ومن ثم يلفظ الشعب نظامه الحاكم بصورة تدريجية ، تؤدي في النهاية إلى هبة ثورية جامحة ، تزهق فيها أرواح بشرية كثيرة ، لكنها في النهاية تقضى على الفساد والإفساد ، وتقتلع سدنته من رجال السلطة الحاكمة ، وهذا ما حدث في أكثر من ولاية عثمانية ، في مراحل متفرقة من مراحل ضعف السلاطين العثمانيين وفساد رجالهم .

4ـ الاهتمام بالجانب الديني :

إضافة إلى ما سبق كانت الدولة العثمانية دولة ثيوقراطية ، أي دينية التوجه(2)؛ فقد كانت في مراحل قوتها تكرس جانباً من مهامها للذود عن الإسلام واهله ضد أي اعتداء خارجي ، وقد تمثل ذلك في حروبها المستمرة ضد الغرب المسيحي طوال ستة قرون تقريباً . مستهدفة حكماً إسلامياً على مساحة كبيرة من أوروبا أولاً ، ثم شن الحروب الدفاعية الوقائية بغية إيقاف الهجوم المعاكس الذي قام به الغرب ثانياً(3) .

وكان في عاصمة الدولة العثمانية هيئة إسلامية لها مركز مرموق وكان يطلق على رئيسها لقب : " المفتي أو مفتي استانبول " .

ثم أطلق عليه فيما بعد لقب "شيخ الإسلام" ، وكانت تخضع لنفوذ

هامش ص129

1ـ محمد أنيس الدولة العثمانية والشرق العربي ص142

2ـ عبد العزيز الشناوي دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ص11

3ـ زين نور الدين زين ، مرجع سبق ذكره ص28

إنتهى الهامش

ص130

"شيخ الإسلام" جميع الهيئات الدينية والقضائية في ولايات الدولة العثمانية.

وقد حرص بعض سلاطين آل عثمان علي استغلال سلطة "شيخ الإسلام" كلما حزبهم أمر أو أقدموا علي مشروع خطير. وذلك باستصدار الفتوي التي كانت تخدم مآربهم. وتضفي علي تصرفاتهم صفة الشرعية. ومن ذلك استناد السلطان سليم الأول في دخوله الحرب مع الصفويين وتخلصه من جميع الشيعة الموجودين في البلاد العثمانية علي فتوي تعتبر هؤلاء الشيعة مرتدين عن الإسلام (1).

وكذلك استناده في دخوله الحرب ضد المماليك علي الرغم من كونهم مسلمين سنة كالعثمانيين سواء بسواء. علي فتوي تجيز محاربتهم لأنهم أيدوا الصفويين الشيعة إبان المعارك التي دارت رحاها بين السلطان سليم والشاه إسماعيل الصفوي بدءا من عام 1514م (2).

ومع الأسف الشديد. ففي مراحل ضعف الدولة العثمانية استغل بعض سلاطينها الضعفاء سلطة "شيخ الإسلام". باستصدار فتاوي يستغلونها في تبرير وتمرير أعمال غير مشروعة. الأمر الذي أهان وأسقط مكانة "شيخ الإسلام" في نفوس الرعية. وأصبح بعضهم يطلقون عليه: "شيخ السلطان" لا "شيخ الإسلام". لا سيما وأن تعيينه أصبح متوقفا علي رضا السلطان.

ومع ذلك. فإنه في أغلب الأحوال كانت مبادئ الشريعة الإسلامية هي الأساس الذي تقوم عليه الأحكام في الدولة العثمانية. التي كانت تعمل من جانبها علي تقوية العاطفة الدينية المشتعلة في نفوس رعاياها. بهدف الإفادة منها في دفع حركات التوسع العسكري في أوروبا بوجه خاص.

هوامش ص130:

ساطع الحصري، مرجع سبق ذكره. ص33.

عبد العزيز الشناوي، دور الأزهر في الحفاظ علي الطابع العربي لمصر، ص11-12.

إنتهت هوامش الصفحة.

ص131

وكان من مظاهر هذا الاتجاه الديني في سياسة الدولة تشجيعها التصوف وتقريبها العلماء والأتقياء. حتي أن العالم المتخصص في الشريعة الإسلامية وأصول الدين كان يظفر بتقدير عميق من الحكام والمحكومين علي السواء (1). كذلك حرص أغلب سلاطين آل عثمان علي أن تكون إرادتهم السلطانية وفرمانتهم وقوانينهم الوضعية لا تتعارض بأي شكل من الأشكال مع مبادئ الشريعة الإسلامية. بل كان ينبغي أن تنسجم معها (2).

عل هذا النحو. كان واضحا اهتمام العثمانيين بالجانب الديني، وقد ساعد ذلك كثيرا في قبول العرب والجنسيات غير التركية للحكم العثماني، وأخر كثيرا نشوء فكرة القومية لدي هذه الشعوب. لاسيما القومية العربي.

5- حكم رجعي:

وصف بعض المؤرخين نظام الحكم العثماني ب "الرجعية"؛ وقالوا إن النظم الحكومية العثمانية حرصت علي إبقاء البلاد علي الحالة التي عليها قبل دخولها تحت حكمهم؛ فقد قبلوا التقسيم الذي كان شائعا في المجتمعات الإسلامية. حيث قسمت هذه المجتمعات إلي طبقات رجال السيف، ورجال العلم، والتجار، وأصحاب الحرف، وأهل الذمة، والعبيد، كما أبقت مجموعة القوانين العثمانية التي وضعها كل من السلطان سليم الأول وسليمان المشرع أساسا يسير علي نهجها سلاطين الدولة بعد ذلك. فلم تكن الدولة ترحب كثيرا بأي تجديد في نظم الحكم السائدة. الأمر الذي نتج عنه إجهاض الأفكار الإصلاحية الجديدة التي كان أصحابها – وهم من كبار ممثلي الدولة –

هوامش ص131:

المرجع السابق، ص13.

زين نور الدين؛ مرجع سبق ذكره. ص31؛ د. محمد أنيس وزميله، مرجع سبق ذكره، ص48.

إنتهي هامش الصفحة.

ص132

لا يحوزون رضا السلطنة. بل ربما يكونون موضع ريبتهم وسخطهم (1). وكان ذلك من العوامل الأساسية التي أدت إلي ضعف الدولة العثمانية. بينما كانت أوروبا تسابق الزمن في الأخذ بأساليب النهضة الحديثة. فكان أن انقضت في النهاية علي ممتلكات الدولة العثمانية تلتهما الجزء تلو الآخر.

ثالثا – مناقشة دراء المتغالين في مساوئ الحكم العثماني.

تعرضنا لخصائص الحكم العثماني الذي عاش في ظله العرب وغيرهم من المشرقيين قرابة أربعة قرون. والذي إذا نظرنا إليه من الزاوية العربية مثلا نجد أنه قد انطوي علي عيوب لا مراء فيهاز وذلك في مراحل ضعف الدولة العثمانية. كما أن البلدان العربية قد أفيدت من مزايا الحكم العثماني. فإنها قد افيدت أيضا من عيوبه ومساوئه التي يمكن استخلاصها من الخصائص التي ذكرناها.

والواقع أن معظم عيوب ومساوئ الحكم العثماني في مرحلة ضعفه ان لم تكن جميعها. قد نشأت نتيجة استعلاء العثمانيين وعزلتهم عن المجتمعات التي خضعت لهم. الأمر الذي ادي إلي عدم انصهارهم ونشر لغتهم في البلاد العربية علي الرغم من حكمهم لها مدة ناهزت أربعة قرون. مع أن الأتراك العثمانيين كانت في أيديهم ورقة رابحة لم يحسنوا استخدامها وهي أنهم كانوا مسلمون سُنيون كالشعوب العربية. ولكن حال دون ذلك روح الاستعلاء التي سيطرت عليهم. وجعلتهم ينظرون إلي العرب نظرة فيها ازدراء واحتقار. فكانوا يطلقون عليهم اوصافا شتي، مثل: الفلاحين، وأولاد العرب.

ويفسر المؤرخ الإنجليزي أرنولد توبيني أسلوب العثميانيين في حكم الشعوب التي دانت لحكمهم تفسيرا يستمده من واقع البيئة الأولي

هامش ص132:

محمد انيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص142.

إنتهي هامش الصفحة.

ص133

للعثمانيين، وهي أراضي الاستبس في أواسط آسيا. فيقرر أن السلطان العثماني كان يحكم البلاد الخاضعة له كما كان العثماني يمارس رعي الماشية في منطقة البراري. وهي ممارسة تتكون من ثلاثة عناصر:

الراعي، وهو السلطان.

والماشية، وهي الشعوب التي خضعت لحكمه.

وكلب الحراسة، وهو الجيش العثماني أو الإنكشارية (1).

وعلي الرغم من وضوح هذا العيب – الاستعلاء – وما نتج عنه من نثار سيئة. فقد أفادت الشعوب العربية منه بعض الشئ حيث احتفظت بعروبتها ومقوماتها الأساسية (اللغة والدين والثقافة والعادات والتقاليد) التي كانت الأساس الركين الذي قامت عليه حركتهم القومية في التاريخ الحديث والمعاصرز

وهناك عيوب اخري يهتم بها الباحثين بإبرازها وتعدادها، مثل: عزلة العالم العربي تحت الحكم العثماني، والرجعية، والتخلف، والجمود وما غلي ذلك، حتي أصبحت تلك النعوت "أكليشيهات" يمهر بها الباحث تاريخ الدولة العثمانية عند حديثه عنها. إما لغرض في نفسه، وهو النيل من الدولة العثمانية الإسلامية، وإما ترديدا لأقوال الآخرين بدون تفحص ودراسة. وعلي ذلك فإننا سوف نأخذ هذه العيوب بحذر شديد ونناقشها بما لها وما عليها، حتي نضع الأمور في نصابها.

فالعزلة التي فرضت علي العالم العربي إبان الحكم العثماني ترجع في حقيقة الأمر إلي عاملين، احدهما خارجي، والآخر داخلي.

اما العامل الخارجي، فيتمثل في خوف العثمانيين من خطر الاستعمار الغربي الماثل علي حدود مناطق الشرق الأدني الشرقية منذ

هامش ص133:

عبد العزيز الشناوي، الوحدة العربية، ص16.

إنتهي هامش الصفحة.

ص134

بداية القرن السادس عشر الميلادي (1). وذلك عقب اكتشاف الأوربيين لطريق رأس الرجاء الصالح علي يد البرتغاليين سنة 1498م. وتطويقهم لبدان العالم الإسلامي. ومحاولتهم الهجوم علي سواحله الشرقية والجنوبية كما سبق أن كرنا. فعندما فشل العثمانيون في طرد البرتغاليين من مناطق الخليج العربي، وفي القضاء علي نشاطهم في المحيط الهندي أحاطوا العالم العربي، وفي القضاء علي نشاطهم في المحيط الهندي احاطوا العالم العربي بسياج منيع عن العالم الخارجي؛ اعتقادا منهم أن هذا السياج وسيلة ناجعة من وسائل الدفاع عن الشرق العربي (2).

وأما العامل الداخلي، فيتمثل في أن الشعوب العربية لم تشعر في القرون الثلاثة الأولي للحكم العثماني (16، 17، 18) بالحاجة إلي الاتصال باوروبا، خاصة وأن مستواها الفكري والمادي لم يكن يسمح لها بذلك التصال. فمن الناحية الفكرية كان هناك شعور من الشك والريبة في البلاد الإسلامية إزاء الفرنجة ونحو كل ما هو أوروبي (3) . لأنه لم تكن تعرف عن أوروبا إلا وجهها القبيح المتمثل في الحروب الصليبية، وكانت رواسب هذه الحروب لا تزال عالقة في الأذهان. فلم يكن معقولا أن يتجه العرب إلي أوروبا في ذلك الوقت وينشئون معها صلات.

وأما من الناحية المادية، فلم تكن السبل ميسرة للاتصال السهل السريع الآمن بين دول اشرق العربي والمدن الأوربية، إذ كانت السفن التي تجوب البحر المتوسط مصنوعة من الخضب وتسير بالشراع. ولم يكن الحديد والبخار قد استخدما بعد في صناعة البواخر وتسييرها.

هوامش ص134:

محمد أنيس، مرجع سبق ذكره، ص139.

عبد العزيز الشناوي: الوحدة العربية، ص17؛ وانظر أيضا: توفيق علي برو/ مرجع سبق ذكره، ص ص12 – 13.

محمد أنيس وزميله: مرجع سبق ذكره، ص139.

إنتهت هوامش الصفحة.

ص135

أما عن التخلف والجمود والفقر الذي أصاب العالم العربي إبان الحكم العثماني. فلم تكن الدولة العثمانية مسؤولة عنه مسؤولية كاملة؛ ذلك ان الشرق العربي – بالغضافة إلي أنه كان يعاني من الانحلال والضعف والوهن في أواخر العصر المملوكي (1) نتيجة عوامل شتي، منها: هرم الدولة المملوكية – فقد واكب الغزو العثماني للبلاد العربية حادث مهم. وهو أن الشرق العربي فَقَدَ مركزه كطريق للتجارة الشرقية بعد اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح البحري إلي الهند وتحول الشريان التجار إليه (2). ما كان له اثره في

الركود الاقتصادي وفي التخلف الاجتماعي، بحيث كانت هذه المجتمعات علي شفا الانهيار في الشرق الأدني قبل دخول العثمانيين مباشرو. إلا أن دخول العثمانيين أخّر هذه الانهيار حتي النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي (3). وإن كنا لا ننكر اثر الحكم العثماني وإسهامه فيما أصاب العالم العربي من تخلف وجمود وفقر. وإن كانت بعض البلاد العربية – كسوريا – قد أفادت في القرون الأولي من الوجود العثماني نتيجة للعلاقت التجارة التي اقامتها مع بلدان اخري (4).

أما عن مسؤولية العرب – وهي في واقعها مسؤولية ناجمة عن نظم الحكم العثماني وممتزجة بالمسؤولية العثمانية – عما المَّ بهم من تخلف وجمود وفقر. فيرجع ذلك إلي أن العرب منذ الغزو العثماني وحتي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبسبب نظم الحكم العثماني قد عاشوا في فقر وحرمان وتخلف بسبب الإقطاع. والانقسامات الداخلية. والأنظمة القديمة. والتنافس بين العائلات التي تتولي الحكم، والنزعة الفردية المطلقة في الحكم (5).

هوامش ص135

زين نور الدين زين، مرجع سبق ذكره، ص22ز

توفيق علي برو، مرجع سبق ذكره، ص12.

محمد أنيس، مرجع سبق ذكره، ص146.

زين نور الدين زين، مرجع سبق ذكره، ص27.

المرجع السابق، ص27 – 28: محمد أنيس، مرجع سبق ذكره، ص139.

إنتهت هوامش الصفحة.

ص136

وهكذا. فقد تبين لنا بعض الجوانب من مزايا وعيوب الحكم العثماني، وخاصة في البلدان العربية فل يكن الحكم العثماني سيئا علي طول الخط كما يزعم بعض المغالين، وإنما كانت له مزايا عظيمة كما أوضحنا. وحتي بعض هذه العيوب كانت مفيدة من نواح أخري علي بعض الشعوب. كالعرب والكرد والبربر. وإن تناولنا لشمولية النظرة بما لها وما عليها جاء من باب الإنصاف. إحقاقا للحق. وتطبيقا لركن من اركان البحث العلمي الاكاديمي.

ص137

الفصل الخامس

عصر الركود والاضمحلال

(عوامل ضعف وتدهور الدولة العثمانية)

ص139

وصلت الدولة العثمانية إلي اوج اتساعها وقمة مجدها في عهد السلطان سليمان المشرع (1520 – 1566م) كما اوضحنا سابقا. حيث امتدت حدودها من الدانوب إلي الخليج العربي، ومن أراضي الاستبس في أوكرانيا إلي الشلال في جنوب مصر. ولكنها اخذت بعد ذلك، وفي أواخر القرن السادس عشر الميلادي تسير نحو التدهور ماديا ومعنويا حتي القرن التاسع عشر (1). ولم يكن هذا التدهور من فراغ. وباختصار نستطيع ان نرجعه إلي عوامل داخلية وأخري خارجية، مع العلم ان العوامل الداخلية كانت الأساس في تدهور وضعف الدولة العثمانية.

أولا – العوامل الداخلية:

ضعف السلاطين العثمانيين الذين جاءوا بعد سليمان المشرع (2): فبجانب ضعف شخصيتهم. وحداثة سن بعضهم، وافتقارهم إلي الدراية باحتياجات الإمبراطورية الجديدة (3). كانوا منهمكين في ملذاتهم وإسرافهم وتحجبهم في القصور. وعدم اضطلاعهم شخصيا بقيادة جيوشهم. وتحملهم أعباء الحرب كما كان يفعل اسلافهم العظام، هذا فضلا عن زاجهم بالأجنبيات الأوربيات الئي كن يتلاعبن بمصالح الدولة وسياستها. كما فعلت روكسلانا زوجة السلطان سليمان القانوني بأن جعلت ابنها سليم يقوم بقتل أخيه مصطفي ليتولي الحكم بعد ابيه.

وقد نتج عن هذا التلاعب فساد البطانة والحاشية، وتلاعبها بمقدرات الدولة. أضف إلي ذلك المنافسات بين الإخوة (أبناء السلطان) التي كانت تؤدي إلي الفتن وسفك الدماء. وجهل معظم الوزراء وفساد

هوامش ص139:

ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره، ص47.

محمد انيس – السيد رجب حراز: مرجع سابق، ص72.

ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، دار النهار، بيروت1968م، ص51

إنتهت هوامش الصفحة.

صفحة140

أخلاقهم وشدة مطامعهم التى أدت إلى تفشى الرشوة والفساد بين رجال الدولة وموظيفها(1).

2- اختلال نظام الانكشارية. فقد تغير وضع الجيش الإنكشارى تغيراً أساسياً فى عام1566م ؛حيث سُمح لأفراد الإنكشارية بالزواج. فَفَقَدَ هذا الجيش بالتدريج كل ما كان له من مزايا؛ إذ أصبحوا يكوّنون طبقة وراثية متميزة عن غيرها من ناحية. كما بدأوا يفقدون روحهم العسكرية من ناحية أخرى(2). وتحولوا آخر الأمر إلى آلة فساد وفوضى، ومع الوقت تضاءل ارتباطهم بثكناتهم العسكرية، ولم تعد حرفتهم الجندية الصرفة كما كان أمرهم إبان قوة الدولة العثمانية، وإنما أصبحت الجندية بالنسبة لهم مهنة ارتزاق، فلم يعد يذهب كثير منهم إلى ثكناتهم إلا لاستلام رواتبهم، وكانوا لا يجتمعون إلا للمطالبة بزيادة (العلوفات) الرواتب والعطايا، أو لطلب عزل وزير أو تنصيب آخر، أو شنق جماعة من الوزراء؛ مندفعين فى كل ذلك بتحريض أرباب المنافع والأغراض. وقد استبدلوا بمهمتهم الأساسية - وهى القتال فى المعارك ،التى أصبحوا يفرون منها – قيامهم بالتعدى على الأموال والأرواح والأعراض(3). ولم يكتفوا بذلك، بل وقفوا حجر عثرة أمام حركات ودعوات الإصلاح، حتى إن السلطان سليم الثالث(1789-1807م) دفع حياته ثمناً عندما أقدم على إدخال عدد من الإصلاحات فى الدولة العثمانية؛ إذ ثارت الانكشارية عليه وخلعته، ثم اغتالته بغية اجتثاث آثار الإصلاح من جذورها. و قد ظلت الانكشارية

هامش صفحة140

(1) عمر الاسكندرى وسليم حسن: تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر ،ط6مطبعة المعارف، القاهرة1924م. ص ص39-40

(2) محمد أنيس: مرجع سبق ذكره، ص165.

(3) عبد العزيز الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ج1ص ص756-757

نهاية هامش صفحة140

صفحة141

عقبة كَأدَاء فى سبيل الإصلاح حتى نجح السلطان محمود الثانى (1808-1839م) فى القضاء عليهم نهائياً سنة1826(1).

وفى الوقت الذى كانت فيه أداة الحكم العثمانى تصاب بتدهور شديد، كانت الهزائم تتوالى على الدولة العثمانية فى المجال الخارجى على يد الدول الغربية، إذ كان على السلطان محمود الثانى أن يعترف بالحكم الذاتى للصرب، وتبع ذلك ثورة على باشا فى ألبانيا (1820-1825م) ، وثورة اليونان فى المورة التى عجز السلطان العثمانى عن إخمادها فاستعان بوالى مصر(محمد على) لسحق هذه الثورة عام1827م.

ويمكننا القول؛ إن اختلال نظام الجيش الانكشارى كان عاملاً أساسياً وحاسماً فى تدهور الدولة العثمانية؛ إذ أن هذا الجيش كان العمود الفقرى للنظام العثمانى العسكرى الذى يعتبر أهم خصائص الدولة العثمانية كما ذكرنا، وقد نجم عن ذلك الاختلال اعتداء رجال الجيش على السلاطين والوزراء، والتدخل فى السياسة كسلاح فى يد كثيرين من رجال الدولة، يستخدمونهم فى مآربهم ومكائدهم الشخصية. فكثرت ثوراتهم وأصبح السلاطين وكبار رجال الدولة ألعوبة فى أيديهم، يخلعون وينصبون ما يشاءون، ويقتلون ما يشاءون، حتى لقد بلغ عدد المخلوعين والمقتولين من السلاطين بأيدى رجال الجيش المذكور تسعة، عدا عشرات الوزراء ورجال الدولة الذين كانت تسفك دمؤهم فى أثناء حركاتهم التمردية(2).

3- فساد الإدارة؛ من الطبيعى أن ينتج عن ضعف السلاطين واختلال نظام الانكشارية – سريان الفساد فى أجهزة الإدارة المركزية

هامش صفحة141

(1) إبراهيم بك حليم؛ مصدر سابق، ص ص199،192؛ وانظر ساطع الحصرى، مرجع سابق ص ص47-48، 73-74.

(2) محمد عزه دروزه؛ مرجع سابق، ص163.

نهاية هامش صفحة141

صفحة142

والمحلية بوجه عام، ذلك أن نظام الإدارة العثمانى الذى كان يمنح رؤساء الإيالات والألوية سلطات واسعة، فيجعلهم قادةً لجيوش يجهزونها بأنفسهم(1). والذى كان يعطى الأمراء الإقطاعيين والزعماء المحليين استقلالاً داخلياً يكاد أن يكون استقلالاً ناجزاً(2) لم يكن يولد محاذير بارزة طالما كانت الحكومة المركزية قوية والجيش الانكشارى – الذى يعتمد عليه السلاطين فى قمع أى تردد – منتظماً ومطيعاً.

ولكن بعد ضعف الحكومة المركزية واختلال نظام الانكشارية أصبح هذا النظام يؤدى إلى نتائج سيئة؛ فقد أفسح المجال لانطلاق الولاة والأمراء الإقطاعيين والزعماء المحليين فى تحقيق أطماعهم الشخصية بواسطة القوة العسكرية التى كانت تحت أيديهم، غير عابئين بأوامر العاصمة، كما اتصل بعضهم بدول أجنبية مثلما فعل (على بك الكبير) فى مصر، وظاهر العمر فى فلسطين اللذين اتصلا بروسيا، فعمّ البلاد من جراء ذلك الفوضى والفساد(3)، وانتشرت الاضطرابات الداخلية والمنازعات الثأرية الناجمة عن تنافس الأمراء وتحاسدهم والتى كانت تؤدى إلى الثورات والحروب الدامية(4)، كما أفسح المجال لأن يصبح نظام الالتزام من حق من يَعِد بتقديم أكبر حصة من الأموال إلى خزانة الدولة العثمانية، حيث أصبحت أمور جباية الأموال الأميرية تُفَوّض إلى أشخاص عن طريق المزايدة، وأخذ هؤلاء الملتزمون يمارسون سلطة الحاكم الإقطاعى الذى يلجأ إلى شتى وسائل الغدروالتسلط لكى يحصلوا على أكبر قدر من الجباية يضمن لهم ثروة كبيرة بعد دفع ما التزموه من أموال(5).

هامش صفحة142

(1) ساطع الحصرى: مرجع سابق ص49.

(2) زين نور الدين زين: مرجع سابق ص34.

(3) محمد بديع شريف وزميلاه، المرجع السابق ، ص235-246؛ وانظر أيضاً: ساطع الحصرى، المرجع السابق ص51،49.

(4) زين نور الدين زين، المرجع السابق ص35.

(5) محمد عزه دروزه، مرجع سبق ذكره ص162.

نهاية هامش صفحة142

صفحة 143

وقد أدى كل ذلك إلى اضطراب أمور الدولة واختلالها ، مما زاد فى ضعفها وارتباكها ، وارتفاع نسبة البلاء والعناء والإرهاق لشعوب الولايات العثمانية. هذا مع العلم بأن التشريع الضريبى العثمانى لم يكن مرهقاً لرعاية الدولة، إذا قورنت الضرائب التى دفعها الفلاحون والتجار فى مصر والشام أيام حكم المماليك، وفى العراق أيام الحكم الإيرانى الصفوى بما دفعوه أيام الحكم العثمانى(1).

ثانياً- العوامل الخارجية:

1- ضعف وتدهور البحرية العثمانية. كان عجز البحرية العثمانية عن مةاجهة الخطر البرتغالى فى البحار الشرقية منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر نتيجة ضعفها الذى كان نتيجة الضعف السياسى والإدارى والعسكرى فى الدولة العثمانية عموماً.

وقد أدى هذا العجز إلى قيام البحرية البرتغالية بفرض حصار بحرى على التجارة العربية فى البحار الشرقية، أخرجها من تيار التجارة العالمية. فأصبح الشرق العربى فى عزلة اقتصادية بجانب عزلته السياسية والفكرية التى استمرت حتى القرن التاسع عشر.

هذا بالإضافة إلى انكماش سلطة العثمانيين عن شبه الجزيرة العربية، حيث لم يبق لهم فيها إلا الحجاز الذى كان الحكم المباشر فيه لإشراف مكة. كما نتج عن ضعف القوات البحرية العثمانية فى البحر المتوسط انفصال ولايات المغرب العربى على أيدى عصبيات عسكرية بحرية فى كل منها كالدايات فى الجزائر ، والبايات من الأسرة الحسينية فى

هامش صفحة 143

(1) محمد أنيس وزميله: مرجع سابق ذكره ص 48.

نهاية هامش صفحة 143

صفحة 144

تونس، والأسرة القرمانلية فى طرابلس. وهكذا تدهورت الدولة العثمانية سياسياً وإدارياً وعسكرياً وإقتصادياً(1).

2- التقدم العسكرى فى أوروبا وتطوره. فى الوقت الذى أخذت فيه أجهزة الدولة العثمانية فى الضعف والتدهور كان الغرب الأوروبى ينهض من سباته، حيث اخترعت أسلحة حربية حديثة، وتطورت وتقدمت نظم الحرب وأساليبها بسرعة كبيرة، وتفنن رجال الجيش فى أساليب التحصين والهجوم والدفاع تفنناً كبيراً. ومن ثم لقيت الدولة العثمانية فى أوروبا الشرقية هزائم كبيرة، وأخذت حدودها تتقلص وتتراجع فى الجهات المتاخمة للدول الأوروبية، وذلك كمقاطعة القرم الإسلامية التى تخلت عنها الدولة العثمانية لروسيا فى نهاية حرب (1868-1874م). فكانت أول مقاطعة إسلامية تنسلخ عن الإمبراطورية العثمانية(2). وذلك نتيجة حالة الجمود التى أصبحت عليها الدولة العثمانية وعزلتها وعدم مسايرتها للنهضة الأوروبية الحديثة فى العلوم والفنون والتنظيمات العسكرية والإدارية(3).

والسر فى ذلك أنه منذ القرن السادس عشر الميلادى بدأ التوازن الذى كان بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، والذى كان فى صالح الدولة العثمانية باعتبارها نظاماً إقطاعياً أكثر مرونة من الإقطاع الغربى، بدأ هذا التوازن يتحول لصالح الدول الغربية نتيجة تحولها من دول إقطاعية إلى دول رأسمالية تجارية، ثم رأسمالية صناعية عقب الإنقلاب الصناعى، بحيث أصبح ميزان القوى فى صالح الدول الأوروبية بشكل نهائى(4).

هامش صفحة 144

(1) محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره ص ص 194-197.

(2) ألبرت حورانى: مرجع سبق ذكره ص 57.

(3) ساطع الحصرى: مرجع سبق ذكره ص 48؛ محمد عزه دروزه، المرجع السابق ص 161.

(4) محمد أنيس وزميله: مرجع سبق ذكره ص 73.

نهاية هامش صفحة 144

صفحة 145

3- أستغلال الدول الأوروبية للأقليات الدينية والقومية فى بلدان الدولة العثمانية. فقد قامت الدول الأوروبية باستخدام الدسائس بين العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية تحت ستار حمايتها، مستفيدة من معاهدات الامتيازات الأجنبية، حيث أدعت فرنسا حماية الأقليات الكاثوليكية، وأدعت روسيا حماية الأرثوذكس وأصبغت عليها الصبغة الرسمية فى معاهدة (كوتشك كاينرجى- 1774م)، واتخذت الدول الأوروبية هذه الحماية ذريعة للتدخل فى شؤون الولايات(1). كما تم أستغلال بعض القوميات غير التركية للاستقلال عن الدولة العثمانية، أو على الأقل إيجاد حالة دائمة من الاضطرابات واللاستقرار، كما حدث فى بلاد الشام، ومع شريف مكة، وفى اليمن، وفى مصر.

وهكذا تكاثفت العوامل الداخلية والخارجية على الدولة العثمانية حتى انهكتها، فكان عليها لكى تبقى، أو تحافظ على ما بقى لها، أو حتى تؤخر توقيت سقوطها المحتوم أن تتجه إلى الإصلاح والتجديد على أساس اقتباس النظم الغربية، أو استلهامها بما يتفق والشريعة الإسلامية.

ثالثاً- الامتيازات الأجنبية:

من النظم التى تسللت إلى الدولة العثمانية وكانت عاملاً مهماً من عوامل ضعفها: نظام "الامتيازات الأجنبية"، الذى قام بدور بارز فى تاريخ الدولة العثمانية؛ إذ عرقلت هذه الامتيازات كثيراً من جهود الإصلاح والتقدم فى عهد التنظيمات، ذلك أن الدول الأوروبية الكبرى كانت لا تنفك عن التدخل فى شؤون الدولة العثمانية بطرق وأساليب مختلفة، وذلك استناداً إلى نظام الامتيازات الأجنبية. كما عانت البلاد العربية الخاضعة للحكم العثمانى الكثير من آثار هذه الامتيازات،

هامش صفحة 145

(1) ألبرت حورانى: مرجع سبق ذكره ص 57-58.

نهاية هامش صفحة 145

صفحة 146

حيث تسبب الامتيازات الأجنبية فى ارتفاع صوت النعرة الطائفية والانقسام والفرقة، بل والفتن والمذابح كما حدث فى بلاد الشام. وذلك لأن هذه الامتيازات كانت قد أخذت شكل النظم التعهدية، ولم تعد الدولة العثمانية تملك حق إلغائها أو تعديلها من تلقاء نفسها، ولا سيما بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من ضعف نتج عنه أن اعتبرت الدول الأوروبية تلك الامتيازات بمثابة حقوق مكتسبة لها ولرعاياها، وحتى لكل من تشملهم بحمايتها من رعايا الدولة العثمانية نفسها(1).

ويرجع تاريخ هذه الامتيازات إلى عهد السلطان العثمانى محمد الفاتح(1451-1481م) الذى أقر –بعد فتح القسطنطينية فى 29مايو 1453م ،وبناءً على العُرف الذى أخذ به أسلافه من السلاطين- أقر مبدأ الاستقلال الذاتى للطوائف الدينية من غير المسلمين، ووضع أحاكماً خاصة للأجانب المقيمين فى إمبراطوريته، مما ساعدهم على تدبير أمورهم بطريقتهم الخاصة. كما منح الجاليات الأجنبية الكبيرة التى كانت تشتغل بالتجارة فى الإمبراطورية العثمانية امتيازات خاصة؛ تشجيعاً لها لإنعاش الحالة الاقتصادية فى الإمبراطورية. ومخطوطة أجرتون رقم 2871الموجودة فى المتحف البريطانى تذكر الامتيازات الخاصة التى منحها السلطان محمد الفاتح للتجار الجنويين المقيمين فى غلاطة (وهى ضاحية من ضواحى القسطنطينية) بعد سقوط القسطنطينية، وتاريخ إصدار هذه الامتيازات هو اليوم الأول من شهر يونيو (حزيران) سنة1453(2).

ثم كان عهد السلطان سليمان المشرع (1520-1566م) الذى امتاز –من زاوية علاقات الدولة العثمانية الدولية- بالتحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا، هذا التحالف الذى كان نتيجةً طبيعيةً للعداء

هامش صفحة 146

(1) ساطع الحصرى: مرجع سبق ذكره ص ص142-143.

(2) زين نور الدين: مرجع سبق ذكره ص ص32-33.

نهاية هامش صفحة146

صفحة147

التقليدى بين فرنسا وإمبراطورية الهابسبورج –التى كانت فى حالة حرب مع الدولة العثمانية من جهة، وبين فرنسا وإيطاليا وإسبانيا التى كانت بدورها تشتبك فى صراع طويل مع الدولة العثمانية حول السيطرة على الحوض الغربى للبحر المتوسط وشمال أفريقيا من جهة أخرى(1).

وهكذا، فقد كانت الظروف الدولية مهيأةً لعقد الاتفاق الشهير عام1535م بين السلطان سليمان المشرع وفرنسوا الأول "ملك فرنسا" وهو أول ملك أوروبى يحصل على مثل هذا الامتياز، فقد حصل الفرنسيون بموجبه على امتيازات تجارية واسعة فى الإمبراطورية العثمانية. فصارت سفنهم التجارية تجوب البحر المتوسط بين مرسيليا والموانى العثمانية للاتجار معها، والإقامة والتجول بكل حرية(2).

وبجانب هذه المعاهدة التجارية يبدو أنه كان هناك معاهدة أخرى عسكرية، وهى التى نجح فرنسوا الأول فى عقدها مع السلطان سليمان المشرع سنة1537م، حيث إننا نجد فى سنة1543م أن تعاوناً قد حدث بصورة عملية بين فرنسوا الأول والسلطان العثمانى سليمان المشرع فى المعارك البحرية ضد آل هابسبورج فى البحر المتوسط، وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن السلطان سليمان المشرع.

وفى سنة1593م كتب ملك فرنسا هنرى الرابع إلى السلطان مراد الثالث يتوسل إليه ألا يصغى لمن يجيئه من قبل ملك أسبانيا الذى يشن حرباً عدوانية ضد ملك فرنسا. وفى هذه الرسالة يخاطب هنرى الرابع السلطان العثمانى بقوله: "إلى السلطان، خليفة المسلمين مراد

هامش صفحة147

(1) محمد أنيس: مرجع سبق ذكره ص165.

(2) ينظر نصوص هذه المعاهدة فى كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك ص ص91-94.

نهاية هامش صفحة147

صفحة148

خان. السلطان المعظم، القادر الفاضل الكريم، الظافر الذى لا يقهر، صاحب المجد والفضيلة، صديقنا العزيز الودود"(1).

وبتفحص هذه الرسالة، يمكننا أن نضع أيدينا على حقيقتين مهمتين، هما:

- الأولى: أن هذه الامتيازات لم تظهر أثرها السيئ إبّان قوة الدولة العثمانية.

- الأخرى: مخاطبة ملوك أوروبا للسلطان العثمانى على أنه خليفة المسلمين، مما يؤيد الرأى القائل بأن الخلافة قد انتقلت إلى آل عثمان إبان القرن السادس عشر الميلادى.

وفى 25فبراير (شباط) سنة1597م عقدت معاهدة أخرى بين هنرى الرابع إمبراطور فرنسا والسلطان العثمانى محمد الثالث (1595-1603م) ، وقد جددت هذه المعاهدة امتيازات سنة1535م، كما مُنِح ملك فرنسا بمقتضاها امتيازاً جديداً يقضى بأن يحظى سفير فرنسا بالأسبقية على جميع السفراء فى الأستانة، وخاصة على سفير ملك أسبانيا(2).

هذا بالنسبة لفرنسا التى كانت أسبق الدول الأوروبية إلى توطيد علاقاتها السياسية والتجارية مع الدولة العثمانية، ففتحت القنصليات الفرنسية فى أنحاء الدولة العثمانية(3).

أما إنجلترا الخصم العنيد لفرنسا والمنافس الأول لها، فقد حصلت رسمياً سنة1580م –فى عهد الملكة اليزابيث- على امتيازات خاصة

هامش صفحة 148

(1) زين نور الدين زين: مرجع سابق ص ص 33،181. هامش 11: محمد عزه دروزه: مرجع سابق ص ص159-160.

(2) زين نور الدين زين: مرجع سبق ذكره ص 181، هامش رقم 11.

(3) محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره ص ص 207-208.

نهاية هامش صفحة 148

برعاياها، وأرسلت وليم هاربون أول سفير لها لدى الباب العالى، ثم اتبعت ذلك بافتتاح قنصليات لها فى سوريا ومصر منذ سنة 1583م(1). كما استطاعت بعد ذلك عدة دول أوروبية أخرى مثل روسيا والنمسا وإيطاليا وألمانيا الحصول على مثل هذه الامتيازات فى الدولة العثمانية(2).

وجدير بالذكر أن هذه الامتيازات التى كانت فى الأصل منحة وتفضلاً قد صارت قيداً فى عنق الدولة العثمانية، ومخلة بكرامتها وسيادتها فى عهود ضعفها(3)؛ فقد ظهرت مساوؤها التى أصبحت تهدد كيان الدولة فى كل بقعة من أراضيها ولتوضيح ذلك نبين ما يلى:

أولاً- جعلت الامتيازات الأوربيين الذين يقصدون الدولة العثمانية للعمل والارتزاق مفضَّلين على أهالى البلاد فى ميدانى القضاء والاقتصاد؛ فقد قضت هذه الامتيازات الممنوحة للجاليات الأجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية كاملة للنظر فى الخصومات بين الرعايا الذى ينتمون إلى هذه القنصلية أو تلك، وكان القاضى فى هذه المحاكم القنصلية هو القنصل نفسه وكانت الأحكام التى تصدر عن هذه المحاكم تنفذ على الأرض العثمانية، وهذا يفسر لنا السر فى طلب القنصل البريطانى "نيفن كر" فى قبرص فى رسالته المؤرخة فى 6أغسطس (آب) سنة1844م من حكومته السماح له ببناء سجن صغير بالقرب من مقر القنصلية (4). ذلك أن رعايا هذه الدول كانوا لا يحاكمون فى محاكم الدولة، ولا تسرى عليهم قوانينها، وما كان يحق لسلطات الأمن والعدل أن تفتش مسكن أحد

هامش صفحة 149

(1) المرجع نفسه ص 206؛ د.زين نور الدين: مرجع سبق ذكره ص33.

(2) محمد عزه دروزه: مرجع سبق ذكره ص 159.

(3) المرجع نفسه، نفسه، والصفحة نفسها.

(4) زين نور الدين: مرجع سبق ذكره ص ص 33، 182. هامش رقم 13.

نهاية هامش صفحة 149

من هؤلاء الأجانب لأي سبب كان، ولا أن تحقق معه أو تحاكمه إلا بحضور ممثل عن قنصلية الدولة التي ينتمي إليها (1).

وكثيرا ما كان يلتجئ المتهم إلى دار القنصلية أو السفارة، فيصبح من المستحيل اعتقاله، بل كثيرا ما كان يفعل الشيء نفسه بعض رعايا الدولة العثمانية حينما تطاردهم سلطاتها بسبب جرم ارتكبوه فلا يمكن اعتقالهم، وقد كان بعض رعايا الدولة - وخاصة المسيحيين- يسعون للحصول على رعوية إحدى الدول الأجنبية ليتسنى لهم الاستفادة من تلك الامتيازات (2).

ولم يكتف القناصل بهذه الحقوق التي ضمنتها لهم الامتيازات، فاغتصبوا بالعرف والعادة بعض المزايا: ففي ولاية مصر، وفي عهد خلفاء محمد علي الضعاف استطاع القناصل أن ينتزعوا سلطة الفصل في القضايا والخصومات التي تقع بين رعاياهم من جهة وبين كل من الأهالي أو الحكومة من جهة أخرى (3)، وغني عن البيان أن ذلك كان يعرقل سير العدالة، ويحول دون إحقاق الحق، أو إنزال العقاب، هذا من ناحية القضاء.

أما من الناحية الاقتصادية، فبناء على تلك الامتيازات لم يكن يحق للحكومة العثمانية أن تجبي أية ضريبة مباشرة من الأجانب، حيث كانت متاجرهم ومصانعهم ومصارفهم تعمل في البلاد العثمانية بكل حرية، وتتصرف في أرباحها كما تشاء دون أن تدفع أية ضريبة عن تلك الأرباح للحكومة، وحتى الضرائب غير المباشرة كالرسوم

هامش ص150

(١) عبد العزيز الشناوي: حادث جريدة البوسفور اجيبسيان، أزمة سياسية بين مصر وفرنسا في أوائل عهد الاحتلال البريطاني، المجلد التاسع، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية1962م. ص ص150 -153.

(٢) محمد عزه دروزه: مرجع سبق ذكره ص ص206-207.

(٣) عبد الرحمن الرافعي:عصر إسماعيل، ج 2، ط2، النهضة المصرية، القاهرة1948م، ص ص242-243.

انتهى الهامش

ص151

الجمركية، كانت مقيدة بقيود الامتيازات الأجنبية، حيث كانت مقررة على أساس8% من قيمة البضائع المستوردة أيا كان نوعها، فما كان يحق للدولة أن تزيد نسبة هذه الرسوم، حتى في المحاولة التي نجحت فيها الدولة العثمانية سنة1907م في رفع هذه الرسوم بنسبة ضئيلة جدا (3%)، كان ذلك مشروطا بمدة سبع سنوات فقط، على أن تصرف حصيلة هذه الزيادة في الإصلاحات في ولايات مقدونيا الثلاث (سلانيك - مناستر - قوصوة) (1).

ثانيا- استفادت المؤسسات الأجنبية (الاقتصادية والثقافية والدينية والخيرية) المنتشرة في البلاد العثمانية من هذه الامتيازات، حيث لقيت التشجيع من الدول التي تنتسب إليها؛ لأنها - أي تلك المؤسسات- كانت تسهم إسهاما كبيرا في تقوية وتوسيع نفوذ هذه الدول ماديا ومعنويا، الأمر الذي يساعدها على تحقيق أطماعها، فقد كان النفوذ الاقتصادي والثقافي الذي اكتسبته بعض هذه الدول بواسطة تلك المؤسسات كثيرا ما يسبق النفوذ السياسي الذي كان غالبا ما يتوج بالاحتلال العسكري (2).

ثالثا- أتاحت هذه الامتيازات للدول الأوروبية الفرصة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، وكان هذا التدخل يجري على الأكثر من قبل دولة واحدة منفردة لتسوية قضية تخصها وحدها، أو تتعلق برعاياها، وذلك كما حدث في مصر حين تدخلت فرنسا لنصرة أحد رعاياها أثناء حادث جريدة البوسفور اجيبسيان سنة1885م (3)، وأحيانا كان يأخذ هذا التدخل شكلا جماعيا تشترك فيه مجموعة من الدول من أجل قضية اتفقوا عليها، وغالبا ما كان يصاحب هذا التدخل

هامش151

(١) ساطع الحصري، المرجع السابق، ص143-144.

(٢) المرجع السابق، ص145-147.

(٣) انظر عبد العزيز الشناوي: حادث جريدة البوسفور اجيبسيان، مرجع سابق.

انتهى الهامش

ص152

التهديد والوعيد الذي كان يدعم في بعض الأحوال بحركات عسكرية وأعمال احتلالية، وذلك كما حدث في مصر واليونان ولبنان (1).

هذه هي الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدولة العثمانية- إبان قوتها وعظمتها- للدول الأوربية، التي اعتبرت هذه الامتيازات حقوقا مكتسبة عند ضعف الدولة العثمانية وتدهورها، فكانت عاملا من العوامل التي ساعدت على انهيار هذه الإمبراطورية الإسلامية وتفتتها وسقوطها في النهاية.

هامش ص152

(١) ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره، ص147.

انتهى الهامش

ص153

الفصل السادس

الانتفاضات العربية على الحكم العثماني

ص155

ظل العرب يخلصون للأتراك العثمانيين، ويعتبرونهم حماة الدين، ويستظلون بظل الخلافة، واشترك العنصران (الترك والعرب) في الحرب والسلم ضد الأعداء، وتولى العرب بعض المناصب الكبرى في الدولة العثمانية، ولا غرو، فقد كانوا يمثلون الجزء الإسلامي الأكبر في مجموعة الدولة وهم راضون مطمئنون.

غير أن الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية بعد سليمان المشرع (1520-1566م)، والذي تغلغل في كيانها الإداري والسياسي والاقتصادي والعسكري، ساعد على قيام عدد من الحكام الأقوياء بفتن وثورات، بهدف الانفصال عن جسم الدولة العثمانية، أو تدعيم استقلالهم الإقليمي، أو تدعيم زعاماتهم وعصبياتهم في المناطق التي يحكمونها، أو التي ولدوا فيها، فانفصلت ولايات المغرب العربي في أيدي عصبيات عسكرية بحرية في كل منها، كالدايات في الجزائر، والبايات من الأسرة الحسينية في تونس، والأسرة القرمانلية في طرابلس الغرب (1)، كما قامت انتفاضات في بعض أقطار المشرق العربي على الحكم العثماني مثل: حركة فخر الدين المعنى في لبنان في القرن السابع عشر الميلادي، وظاهر العمر في فلسطين، وعلي بك الكبير في مصر في القرن الثامن عشر.

ولم يكتف هؤلاء بالخروج على الدولة العثمانية، وإنما حرصوا على تنمية علاقاتهم ببعض الدول الأوروبية، بهدف الاعتراف بالكيان الذي يعملون على الاستقلال به لأنفسهم، أملا في أن يمكنهم ذلك من دعم كيانهم بما تقدمه لهم الدول الأوروبية ذات العلاقة بهم من سلاح وعتاد وخبرة فنية، هذا فضلا عن رواج التجارة، وانتعاش الاقتصاد المحلي، والخروج ببلادهم من نطاق العزلة المفروضة عليهم، وما يستتبع ذلك من إيجاد مصالح ثابتة متنوعة للأوروبيين في تلك الولايات تجعل دولهم أكثر اهتماما بها وبمصيرها، وكل هذا يستخدمه حاكم

هامش ص155

(1) جلال يحيى، العالم العربي الحديث (المدخل)، ص74-76.

انتهى الهامش

ص156

الولاية،أو صاحب العصبية فيها لتقوية مركزه إزاء السلطة العثمانية ولكن الدولة العثمانية كانت حريصة أشد الحرص، وبذلت أقصى جهدها للقضاء على تلك المحاولات (1).

هذا بالإضافة إلى حركات الأئمة الزيدية في اليمن، ومحمد على (1805-1848م) في مصر، وبشير الشهابي في الشام، والوهابية في نجد، والسنوسية في ليبيا، والمهدية في السودان.

على أن هناك حركتين من هذه الحركات السابقة سوف نخصمها في هذا الكتاب بشيء من التفصيل؛ نظرا لأنهما كانتا أكثر أهمية، وأعمق أثرا في مجريات الأحداث في المنطقة العربية، وهما: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية في شبه الجزيرة العربية، وحركة محمد علي في الشام.

أولا- حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

تعتبر هذه الحركة أول حادث كبير هزَّ حبل الارتباط بين الدولة العثمانية والبلاد العربية (2)، وليس ذلك راجعا إلى كونها حركة قومية، إذ أنها قامت في البداية على أساس ديني خالص، حيث إن العقيدة الدينية كانت في ذلك الزمن العامل الأقوى في توجيه الناس إلى الأهداف السياسية (3).

هامش ص156

(1) انظر الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج3، تحقيق: حسن جوهر وعمر الدسوقي ط1. لجنة البيان العربي، القاهرة1964، ص5- 50وما بعدها؛ وانظر عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثاني، المطبعة الكاثوليكية ببيروت، 1966، ص52 – 110.

(2) محمد بديع شريف وزميلاه: مرجع سبق ذكره، ص18.

(3) مصطفى الشهابي: القومية العربية.. تاريخها وقوامها ومراميها، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، ط2، القاهرة 1961م، ص39.

انتهى الهامش

ص157

وتعود خطورتها على الدولة العثمانية إلى أنها كانت "أول صوت عربي شديد يعمل على سحب السلطة من الترك، وإعادتها إلى العرب مرة أخرى" (1).

وذلك عن طريق تكوين وحدة دينية سياسية في شبه الجزيرة العربية يكون دستورها الإسلام الصحيح المنطلق من القرآن الكريم والسنة النبوية، ووسيلتها العودة بالإسلام إلى ما كان عليه السلف الصالح (2)، وهذا ما أزعج السلطات العثمانية في الآستانة من هذه الحركة التي تؤذن بقيام دولة عربية إسلامية تناوؤها السيادة الإسلامية على العالم العربي، وما جعل السلطان العثماني يعمل جاهدا على قبرها قبل أن تتسع آفاقها.

ومؤسس الحركة الوهابية هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب (3) النجدي، الذي درس علوم التفسير والحديث والفقه على المذهب

هامش ص157

(1) محمد بديع شريف وزميلاه: مرجع سبق ذكره، ص21.

(2) أحمد عبد الرحيم مصطفى: حركة التجديد الإسلامي في العالم العربي الحديث، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971م، ص28.

(3) ولد محمد بن عبد الوهاب سنة1696م على أحد الأقوال (د. محمد بديع شريف، مرجع سبق ذكره، ص18)، أو في سنة1703م (كما يرى احمد أمين في كتابه: زعماء الإصلاح، ص10، د. عبد الرحيم عبد الرحمن في كتابه: الدولة السعودية الأولى، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة1969ص 19). ونشأ في بلدة تسمى "عيينة" من أعمال نجد، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب يقوم بجانب وظيفته القضائية بتدريس التفسير والحديث والفقه على المذهب الحنبلي، فكان بيته مقصد طلاب العلم وبعض العلماء، حيث يمضون الوقت في جدال فقهي ونقاش ديني، وكان يحلو لمحمد أن يراقب مجلس أبيه عن كثب، فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم، ولذلك نشأ واسع الثقافة بالنسبة للجيل الذي عاصره، حافظا للقرآن قبل أن يبلغ الربيع العاشر من عمره، شغوفا بالعلم والدراسة يصرف كل وقته في القراءة والاطلاع على كتب الفقه والتفسير والحديث والعقائد، كما عكف على دراسة كتب ورسائل ابن تيمية التي كانت مصدر الهام له في كثير من المسائل، ولم يكتف بذلك، بل رحل في طلب العلم إلى المدينة المنورة، وبعد أن استزاد من شيوخها شرع يطوف في أرجاء من العالم لإسلامي، فوصل البصرة ومكث فيها أربع سنوات، وفى بغداد خمس سنوات، ثم قصد الإحساء حيث لم تطل إقامته بها، ثم رحل عائدا إلى بلده، حيث انزوى في داره مدة من الزمن، ثم خرج على الناس بدعوته الجديدة. ينظر: د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع

انتهى الهامش

ص158

الحنبلي، وطاف بكثير من مراكز الثقافة الإسلامية طالبا للعلم، فأدرك أن عقيدة التوحيد- وهى ميزة الإسلام الكبرى - قد دخلها كثير من الفساد، حيث أشرك المسلمون مع الله الأولياء وتمسحوا بهم، طالبين جلب الخير ورفع الضر، بل وأشركوا معه النبات والجماد، كما أدرك أن قفل باب الاجتهاد في الإسلام والاقتصار على تقليد المذاهب الإسلامية السابقة هو سر تدهور المسلمين وجمودهم (1).

ومن ثم كانت دعوته أساسها التوحيد، أي إفراد العبادة لله وحده، وعدم إشراك غيره معه في العبادة، فمعنى "لا إله إلا الله" نفي صفة الإلوهية عن كل المخلوقات وإثباتها لله وحده، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه، فليس كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله ورسوله، ومن ثم فكل مستوف لأدوات الاجتهاد له الحق في أن يجتهد حسب فهمه لنصوص الكتاب والسنة النبوية، واعتبر ابن عبد الوهاب أن قفل باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين، إذ أضاع شخصيتهم وقدرتهم

هامش ص158

السابق، ص ص19-21؛ وانظر أحمد أمين: مرجع سبق ذكره، ص10 : د. محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره، ص18)، وقد ذكر المرجعان الأخيران أن محمد بن عبد الوهاب قد امتدت رحلاته في طلب العلم إلى بلاد فارس وكردستان، حيث قضى فترة من الزمن هناك يدرس فلسفة الإشراق والتصوف، وهذا ما ينفيه دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن في كتابه السابق، ص ص21-23، مستندا إلى عدم وجود آثار للشيخ محمد بن عبد الوهاب تدل على معرفته بالفارسية قراءة وكتابه، كما لم يشر مؤرخو نجد إلى ما يفيد ذلك، وأيضا لم يوجد في كتبه أو رسائله أي أثر لفلسفة التصوف والإشراق، وأخيرا فإن الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه ذكر في رسائله العديدة البلاد التي زارها وتلقى العلم فيها على يد علمائها، ولم يذكر بلاد فارس وكردستان، كما لم يوجد له رسائل موجهة إلى أي من علماء فارس في عصره، فهل عاش في بلاد فارس ودرس بها دون أن يكون له علاقة مع أحد فيها؟ وفي هذه الأدلة ما يثبت أنه لم يزر بلاد فارس وكردستان في أثناء رحلته لطلب العلم، وهذا ما نميل إليه.

(1) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص ص28- 29: أحمد أمين: مرجع سبق ذكره، ص ص10 - 12 : ألبرت حوراني؛ مرجع سبق ذكره، ص55.

انتهى الهامش

ص159

على الفهم والحكم، وجعلهم جامدين مقلدين حتى انحط شأنهم وتفرقوا شيعا وأحزابا (1).

وقد أطلق محمد بن عبد الوهاب على نفسه وعلى أتباعه صفة "الموحدين"، أما اسم الوهابية فقد أطلقه عليهم خصومهم؛ ليبرهنوا للناس أن المبادئ التي يدعو إليها بدعة جديدة خارجة على مبادئ الإسلام، وقد استعمل الأوروبيون هذا اللفظ "الوهابية أو الوهابيون"، ثم جرى على الألسن (2). بل أن أعداء الدعوة من الأتراك ومن سار على دربهم قد غالوا في ذلك، وأطلقوا على أتباع محمد بن عبد

الوهاب "الروافض" و"الخوارج"، حتى إن الوثائق الرسمية التي تبودلت بين محمد علي باشا والباب العالي، تنعت الأمير السعودي الذي اعتنق هذه المبادئ وعمل على نشرها باسم "الخارجي"، أما أتباع الدعوة فكانوا يحبون أن يطلق عليهم إما "الموحدون" أو"الحنابلة" أو "الإخوان" أو "السلفيون" (3).

تأثر ابن عبد الوهاب بابن تيمية:

يقول علماء وأتباع الحركة الوهابية أو "الدعوة السلفية" - كما يحب أتباعها أن يطلقوا عليها - أنها ليست مذهبا جديدا في الإسلام، فهي لم تأت بجديد، وإنما غاية ما فيها هو الرجوع إلى أصول الإسلام الصحيحة (4)، فهي إذن دعوة سلفية، وقد أطلق عليها البعض اسم "الدعوة السلفية النجدية"، تمييزا لها عن الدعوات السلفية

هامش ص159

(1) محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره، ص 19؛ عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سبق ذكره، ص ص26- 29؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق، ص ص 28 – 29.

(2) أحمد أمين، مرجع سبق ذكره: ص 10؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى؛ مرجع سبق ذكره، ص29.

(3) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: مرجع سبق ذكره، ص25.

(4) محمد بديع شريف؛ مرجع سبق ذكره، ص 19؛ جورج أنطونيوس: مرجع سابق، ص82.

انتهى الهامش

ص160

الإصلاحية الأخرى التي ظهرت في أجزاء مختلفة من العالمين العربي والإسلامي(1).

وقد تأثر ابن عبد الوهاب تأثرًا إلى حد بعيد بابن تيمية عن طريق عائلته التي كان أعضاؤها من علماء الحنابلة(2). بل تبنى آراءه ونادي بها. فقد درس آثار ابن تيمية من كتب ورسائلَ وفتاوى. بل ونسخ بعضها لنفسه. ويوجد في المتحف البريطاني بعض رسائل لبن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب(3).

ويؤكد تأثر ابن عبد الوهاب بابن تيمية. أن كل رسائل ابن عبد الوهاب التي كتبها إلى علماء عصره أو إلى أصحاب الشأن. أو وجهها إلى الناس عامة مملوءة بشواهد من كلام ابن تيمية. أو من شروحه لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية(4). وقد نادى كل منهما بالرجوع إلى القرآن والسنة. وآثار السلف الصالح. ومقاومة البدع والخرافات التي ألصقت بالإسلام. كما فتح كل منهما باب الاجتهاد أمام كل راغب. وعدم التقليد. حتى وإن أدى ذلك إلى مخالفة الأئمة الأربعة(5). وهكذا كان ابن تيمية إمامه ومرشده. وباعث تفكيره. والموحي إليه بالاجتهاد والدعوة إلى الإصلاح.

خطورة الدعوة الوهابية على الدولة العثمانية:

بدأ محمد بن عبد الوهاب يدعو بدعوته –التي أشرنا إليها- في لِين ورفق. ثم أخذ يرسل الدعاة إلى أمراء الحجاز، والعلماء في الأقطار الأخرى.

هامش ص160

عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سبق ذكره. ص ص25- 26.

ألبرت حوراني: مرجع سبق ذكره ص 55.

أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سبق ذكره. ص ص29- 30.

المرجع السابق، ص30: عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سبق ذكره. ص24.

أحمد أمين: مرجع سبق ذكره. ص13: عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سبق ذكره. ص ص23- 24.

انتهى الهامش

ص161

يحثهم على استنهاض الهمم في مكافحة البدع والخرافات والرجوع إلى الإسلام الصحيح(1).

وإلى هنا. والأمر لا يعدو في ظاهره سوى دعوة إصلاحية سلفية شأنها شأن أية دعوة هبت ثم مرت بسلام. وإن شابها شيء فسجن الداعي أو التشهير به. أو رميه بالزندقة. ثم ينتهي الأمر. وتعود الأمور سيرتها الأولى. ولكن في واقع الأمر، أن هذه الدعوة كانت تمثل خطورة حقيقية على الدولة العثمانية وقتذاك لعدة أمور:

أولًا- أنها بدعوتها إلى العودة إلى الإسلام الحقيقي كانت تعني أن الإسلام الذي كان السلطان يحميه ليس بالإسلام الحقيقي. وهذا يعني ضمنًا أن السلطان ليس الإمام الحقيقي للأمة(2). فيكون مفهومها يتعارض مع السيطرة العثمانية والنفوذ السياسي والإسلامي. القائم على سيطرة السلاطين ومن حولهم من قادة الجماعات الصوفية ومفاهيمهم، التي كانت تدعو الناس إلى التسليم، وقبول الواقع، والزهد والانسحاب من الحياة، والتطلع إلى حياة أخرى(3).

ثانيًا- أن هذه الدعوة ظهرت في وقت كان الغرب الأوروبي قد بدأ تطوير خطته الاستعمارية، التي بدأت منذ طرد العرب من الأندلس. وظهور الأسبانيين والبرتغال على مسرح الأحداث، وقيامهم بحركة تطويق للعالم الإسلامي في حركة بحرية تجارية حول أفريقيا إلى الهند، تاركين الجزء الشمالي الشرقي من البحر المتوسط في قبضة العثمانيين إلى حين. وذلك بالسيطرة على أطراف شبه الجزيرة العربية ومواقعها الحصينة في الجنوب وفي إمارات الخليج.

هامش ص161

أحمد أمين، مرجع سابق ذكره، ص18.

ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص56.

أنور الجندي، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار الأنجلو المصرية، القاهرة1971، ص48.

انتهى الهامش

ص162

وكان يتطلع الغرب الأوروبي في الوقت ذاته إلى المضي في خطته إلى النهاية دون أن يصطدم بحركات يقظة جديدة تحول بينه وبين السيطرة الكاملة على العالم الإسلامي عامة والمنطقة العربية بصفة خاصة. ومن ثم فقد كان ظهور هذه الدعوة عملا دينيًّا ذا طابع سياسي خطير. وهو في نظير الغرب إيذان بظهور قوة جديدة يمكن أن تسيطر على المنطقة التي يريد المحتل الغربي السيطرة عليها(1).

ثالثًا- وهو الأهم، انتقالها من مجال الدعوة إلى مجال الحركة؛ بتحالف محمد بن عبد الوهاب مع أمير الدرعية محمد بن سعود عام 1747م. وذلك عندما أُضطهد ابن عبد الوهاب في بلدته العُيَيْنَة التي فرَّ منها الدَّرْعِية، حيث وجد أن الدعوة لن تنجح إلا إذا عضدتها القوة(2).

وقد توثقت الصلة بينهما بتزوج محمد بن سعود من ابنة محمد بن عبد الوهاب. حيث عَهَدَ الأخير إلى الأول بالإدارة السياسية والعسكرية. وبتحالفهما بدأ ظهور الحركة الوهابية، التي انتشرت انتشارًا سريعًا في قلب شبه الجزيرة العربية. وذلك بفضل تحالف "السيف والدين" في سبيل نشرها(3)، غير أنه لم يظهر أثرها في الخارج إلا بعد مضي نحو أربعين عامًا(4).

رابعًا- ساعد على انتشار الحركة الوهابية وسرعة سيطرتها على شبه الجزيرة العربية عامل مهم لا يقل أهمية وخطورة عن العوامل السابقة إن لم يَفُقْها، وهو الموقع الجغرافي لمركز الدعوة، والميدان الفسيح لانتشارها، وهو شبه الجزيرة العربية، حيث ضعف السلطة العثمانية، إن لم يكن انعدامها في تلك البقاع، هذا في أوج قوة الدولة

هامش ص162

المرجع السابق، ص ص48- 49، 56.

محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره، ص20: جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص82.

أحمد أمين: مرجع سبق ذكره، ص ص18- 19.

جورج أنطونيوس، مرجع سبق ذكره، ص82.

انتهى الهامش

العثمانية، فما بالنا بها في وقت (القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي) تدهورت فيه الدولة العثمانية، ونخر سوس الوهن والانحلال عظامها، فإذا أضفنا إلى ذلك الوضع الاجتماعي لسكان تلك المنطقة، حيث سيادة النظام القبلي، وبساطة العقيدة، أدركنا السر في سرعة انتشار الدعوة، المدعمة بقوة السيف بينهم، حيث توافد رجال نجد الذين أثارت فيهم خطب المصلح الديني. وانضموا تحت علم ابن سعود الذي استطاع أن يوجه "قوى البدو الحربية نحو جهاد دائم(1)". وفي أواخر القرن الثامن عشر كان الوهابيون قد سيطروا على أواسط الجزيرة العربية والخليج العربي؛ وذلك بعد وفاة ابن عبد الوهاب سنة1791م، ووفاة حليفه الأول (محمد بن سعود) قبله بثلاثين عاما، حيث أخذ آل سعود على عاتقهم مهمة نشر الدعوة وحمايتها. فخرجوا من قلب شبه الجزيرة العربية إلى الأطراف ينازعون الخليفة العثماني في سلطانه.

ويذكر الدكتور محمد بديع شريف أن الوهابيين يحاولون إيجاد دولة عربية ذات قوة ومنعة(2). وليس هذا بصحيح؛ فمبادئ الدعوة الوهابية كانت إسلامية خالصة كما سبق أن اشرنا، هذا بالإضافة إلى أن فكرة "القومية العربية" لم تكن ظهرت في الأفق في تلك الفترة، صحيح يمكن أن نطلق عليها جغرافيًّا أنها دولة عربية، أما عقديًّا وفكريًّا فهي دولة إسلامية لا تدعو إلى تضامن عربي، وإنما إلى تضامن إسلامي عام. وتذهب جوهريًّا إلى أنها الدولة الإسلامية الوحيدة التي يمكن للجميع الانتماء إليها(3).

ومع الوقت، تطورت الدعوة الوهابية؛ فقد غزا الوهابيون العراق، وطرقوا أبواب بغداد، مما اضطر واليها أن يعقد معهم معاهدة سنة

هامش ص163

ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص56.

محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره، ص20.

ألبرت حوراني: مرجع سبق ذكره، ص56.

انتهى الهامش

1799م. وأعادوا الكرّة بعد عامين على العراق، فدخلوا كربلاء، إحدى مدن الشيعة المقدسة ونهبوها، مع أن هذا يتنافى مع دعوتهم، ثم اتجهوا نحو الغرب والشمال فاستولوا على مكة والمدينة المنورة. وغزوا بلاد الشام، فهددوا دمشق وحلب، وبقوا فيها حتى سنة 1881م(1).

موقف الدولة العثمانية من الحركة الوهابية:

شعرت الدولة العثمانية بالخطر الذي يتهددها، ولا سيما بعد خروج الحجاز من يدها، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها مركزًا إسلاميًا ممتازًا، تفقد الكثير من التقدير إذا فقدتهما، وإعلان آل سعود زوال السيادة العثمانية عنهما، ومنعهم قوافل الحج التي ترد من الولايات العثمانية، هذا بالإضافة إلى مهاجمتهم ولايات الشام والعراق وفضل ولاتهما في التصدي لهم(2).

ولما كان العثمانيون حريصين على استرجاع سيادتهم على الحجاز لاسترداد هيبتهم في العالم الإسلامي، وذلك بإتمام "شكليات الخلافة"(3). فقد وجدوا ألا مناص من الاستعانة بوالي مصر محمد علي للقيام بتلك المهمة التي فشل فيها ولاة الشام والعراق. والتي كانت تهدف من ورائها كما يذهب بعض الباحثين "لإضعاف الاثنين معا"(4). بالقضاء على قوة ابن سعود ومحمد علي في آن واحد. غير أن ذلك الهدف كان مستبعدًا بالنسبة للأخير؛ ذلك لأن جيش محمد علي لم يكن قد بلغ إذ ذاك من القوة ما يخيف الدولة العثمانية، ويجعلها تسعى للقضاء عليه أو إضعافه. وإذا كانت تهدف إلى استنزاف موارده فذلك أيضًا مستبعد؛ نظرًا لأن مركز مصر المالي حينئذ كان حرجًا

هامش ص164

جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص83.

عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سبق ذكره، ص283.

حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، لجنة الجامعيين لنشر العلم. ط2، القاهرة،1938ن، ص192.

مصطفى الشهابي: مرجع سبق ذكره، ص40.

انتهى الهامش

ص165

للغاية بسبب حروب محمد علي مع المماليك، مما اضطره –حين كلفه السلطان محمود الثاني بإرسال حملة للقضاء على ابن سعود- للاستعانة بالمحروقي (سر تجار القاهرة) ليعينه بالمال على تجهيز الحملة(1)، الأمر الذي يرجح أن استعانة السلطان بمحمد علي ترجع إلى إحساس الأول بضرورة الإسراع في القضاء على تلك الحركة الخطيرة على الدولة العثمانية، التي عجز ولاته في الشام والعراق عن التصدي لها، بينما وجد محمدًا عليًا قادرًا على القيام بهذه المهمة فكلفه بها.

ولم يجد محمد علي بُدًا من الطاعة والإذعان بعد إلحاح من السلطان استمر حوالي أربع سنوات، هذا فضلًا عن أن محمد عليا نفسه اعتبر نجاحه في هذه المهمة توطيدًا لمركزه في مصر، وفي العالم الإسلامي بإنقاذه الحرمين الشريفين من تحكم الوهابيين(2).

ولا يهمنا هنا أن نتعرض بالتفصيل لحوادث الصراع بين محمد علي والوهابيين. وإنما يعينا أن نذكر أن محمد عليّ استمر في إرسال الجيوش إلى جزيرة العرب مدة سبع سنوات استطاع في نهايتها سنة1818م. أن يقضي على الإمارة السعودية الأولى، التي كانت الثمرة السياسية للحرمة الوهابية، وذلك أنه بعد أن أنقذ البلاد المقدسة من سيطرة السعوديين وجه جيشا بقيادة إبراهيم باشا، فحاصر الدرعية عاصمة الإمارة السعودية، مما اضطر حاكمها عبد الله بن مسعود إلى التسليم في سبتمبر سنة1818م، فأرسله إبراهيم باشا أسيرًا إلى القاهرة، ومن قم أُرسل إلى الأستانة حيث لقي مصيره المحتوم(3).

هامش ص165

عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ط3، النهضة المصرية، القاهرة1951م، ص132.

المرجع نفسه، ص ص124، 125، 126.

محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره، ص ص20- 21: حسين مؤنس: مرجع سبق ذكره، هامش ص193: جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص83. وللرجوع إلى تفاصيل

انتهى الهامش

ص166

وهكذا، استطاعت الدولة العثمانية أن تقضي على الحركة الوهابية، إلا أن ذلك كان قضاء على واقعها السياسي فحسب المتمثل في الإمارة السعودية الأولى. أما مضمونها الفكري فقد انساب في كافة أنحاء العالم الإسلامي عن طريق موسم الحج(1). مما كان له أبعد الأثر في بعض حركات اليقظة ودعوات الإصلاح التي انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي بعد ذلك، وبدى ذلك في حركات الإصلاح التي كان مرجعها لما نادى به محمد بن عبد الوهاب، كما أنها هزت الركود الذي أصاب العالم العربي والإسلامي أحقابا طويلة، ووفرت نموذجًا لما تلاها من بعض الدعوات الإصلاحية.

أما عن النتائج التي ترتبت على القضاء على الحركة الوهابية بإنهاء الكيان السياسي فمارة آل سعود الأولى، فمنها:

ازدياد نفوذ محمد علي، حيث امتدت سيطرته على معظم أراضي شبه جزيرة العرب، فبالإضافة إلى إعلاء مكانته في نظر العالم الإسلامي، وتوطيد حكمه في مصر، كما كان منها المنطلق إلى تفكيره في تكوين إمبراطورية عربية جديدة(2).

كما ترتب على ذلك أيضًا ازدياد وتطلع النفوذ الاستعماري إلى سواحل الخليج العربي، وسعي بريطانيا إلى توطيد نفوذها على السواحل العربية، الأمر الذي أدى إلى الاصطدام بين السياسة

هامش ص166

تلك الحروب انظر الرافعي: عصر محمد علي، ص ص123- 165: عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سبق ذكره، ص ص283- 332.

أحمد أمين: مرجع سبق ذكره، ص21: أنور الجندي: مرجع سبق ذكره، ص57.

حسين مؤنس: مرجع سبق ذكره، ص ص194- 195، 198: جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص ص83- 84.

انتهى الهامش

ص167

الإنجليزية ومحمد علي، حتى انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة سنة1840م، على أثر التدخل الأوروبي ضدها(1).

ثانيًا- حركة محمد علي في الشام:

يرجع عبد الرحمن الرافعي طموح محمد علي في ضم بلاد الشام إلى سنة1810م، مستندًا إلى ضخامة الاستعدادات العسكرية التي قام محمد علي في حشدها حينئذ، وإن الذي صرفه عن تحقيق طموحه انهماكه في الحروب ضد الوهابية (1811- 1818م)، ثم في السودان منذ عام1820م، ثم الحرب في بلاد المورة (اليونان)1827م. فلما انتهى من هذه الأخيرة، أخذ يفكر بجدية في إنقاذ فكرته القديمة(2).

غير أنه يمكن استبعاد أن تكون استعدادات محمد علي العسكرية سنة1810م هدفها ضم بلاد الشام؛ لأنه عاد من الوجه القبلي إلى القاهرة في سبتمبر من العام ذاته، بعد أن أنهك قوى المماليك في الصعيد، فلا يعقل أن تكون استعداداته في تلك السنة هدفها التحرك إلى الشام.

ثم إن الباب العالي كان قد طلب منه منذ ديسمبر سنة1807م -ولمَّا يمض عامان على ولايته- تجريد حملة إلى الحجاز للقضاء على الوهابيين، وظل الباب العالي يلحُّ ويكرر الطلب منذ تلك السنة إلى سنة1811م، وكان محمد علي يتعلل بانشغاله بحربه مع المماليك.

وعندما انتهى من حربه ضد المماليك لم يجد مناصًا من تنفيذ أوامر الباب العالي؛ أملًا في أن يكون نجاحه في هذه المهمة تدعيمًا لمركزه في مصر، فلا يجرؤ الباب العالي على خلعه، إذ أنه كان يتوقع خلعه من

هامش ص167

حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ص195- 198: صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي. ص ص143- 148.

الرافعي: عصر محمد علي، ص ص245- 246.

انتهى الهامش

ص168

ولاية مصر بين الحين والآخر كما يذكر الرافعي ذلك(1). هذا بالإضافة إلى الارتباكات المالية التي كانت تعاني منها مصر في تلك الآونة مما دفع محمد علي إلى الاستعانة بالمحروقي (سر تجار القاهرة) في تجهيز الحملة إلى الحجاز، كما سبق أن أشرنا.

إذن، فلا يعقل مع ما ذكرنا، أن تكون فكرة ضم الشام كانت تخالج محمد علي في تلك السنة على الأقل، وإنما المعقول أن تكون آمال الرجل في هذه السنوات الأولى لا تتعدى الرغبة في الاستقلال عن الدولة العثمانية، وإقامة دولة قوية في مصر له ولأولاده من بعده(2).

على أن الثابت أن محمد علي لم يفكر في ضم الشام بالقوة إلا بعد بسطه نفوذه في معظم الجزيرة العربية، وفتحه السودان، وخوضه غمار الحرب اليونانية، وإلحاحه على السلطان أن يضع بلاد الشام تحت سيادته مكافأة له على اشتراكه في القضاء على ثورة اليونان.

وعندما رفض السلطان الاستجابة إلى مطلبه جرّد محمد علي حملة بقيادة ابنه إبراهيم للاستيلاء على الشام(3). مؤمّنًا حدود مصر التي كان يراها مستشاروه الفرنسيون –وعلى رأسهم كلوت بك- تمتد إلى جبال طوروس في كردستان لا إلى صحراء سيناء فقط(4)، ومحققًا حُلمه في تكوين "إمبراطورية عربية تحكمها أسرته"(5)، ومنتحلًا عذرًا مباشرًا للحملة -دون أن يعلن عداءه السافر للسلطان- وهو الخلاف بينه وبين منافسه القوي عبد الله الجزار حاكم عكا، الذي كان يطمع في ضم بلاد الشام كلها إليه، والذي امتنع عن إرجاع

هامش ص168

المرجع السابق، ص ص124- 125.

حسين مؤنس: مرجع سبق ذكره، ص ص167- 168.

جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص ص 84- 85.

الرافعي: عصر محمد علي، ص245.

محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره، ص27.

انتهى الهامش

ص169

الفلاحين المصريين الذين هاجروا إلى عكا فرارًا من أعمال السخرة، ودفع الضرائب، وهروبًا من الخدمة في الجيش(1).

وقد جرت معارك عنيفة بين جيوش محمد علي وجيوش السلطان، كان للأول فيها النصر والغلبة، وتكاد تنحصر هذه المعارك في جولتين، انتهت الأولى باتفاقية كوتاهية (أبريل- مايو سنة1833م)، التي اعترف فيها السلطان لمحمد علي بالولاية على مصر وسوريا وإقليم أدنة وجزيرة كريت والحجاز، مقابل جلاء جيش محمد علي عن باقي مناطق الأناضول التي كان يسيطر عليها.

وكانت الجولة الثانية عندما أراد السلطان استرجاع سوريا وأدنة، وقد انتهت بانتصار جيش محمد علي انتصارًا حاسمًا، ووقفت قواته على أبواب الأستانة سنة1839م، بل سلّم الأسطول العثماني نفسه لمحمد علي، وسُيّرت سفن الأسطول حتى رست بميناء الإسكندرية، وأصبح السلطان العثماني قاب قوسين أو أدنى من التسليم بجميع مطالب محمد علي، بجعل سلطانه وراثيًّا على جميع البلاد العربية التي في حوزته، لولا وقوف أوروبا –وفي مقدمتها بريطانيا- بجانب السلطان، وإرغام محمد علي باشا على التخلي عن مطامعه، واحتفاظه بمصر فقط ولايةً وراثيةً في ذريته(2).

وبذلك، انتهى الحلم الجميل الذي داعب خيال محمد علي سنين عددا، في تكوين دولة واسعة في المنطقة العربية، يتوارث حكمها أبناؤه من بعده، وذلك من منطلق المصلحة الشخصية لا المصلحة القومية، فقد تخيل نفسه –بما عرف عنه من طموح الهمة وقد امتد

هامش ص169

الرافعي: عصر محمد علي، ص249.

محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره، ص27: جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص85، وانظر تفاصيل هذه المعارك: الرافعي، عصر محمد علي، ص ص251-326.

انتهى الهامش

ص170

سلطانه على أجزاء كثيرة من العالم العربي –أنه أصبح بذلك صاحب الحق في السيطرة عليه كله(1).

ويذهب بعض الباحثين إلى حد القول بأن محمد علي كان يفكر ويطمع في الخلافة ذاتها. والحلول محل السلطان العثماني فيها. وأن فرنسا كانت تغذي هذا الاتجاه وتشجعه. وأن هذا التفكير كان يلقى أيضاً التأييد من النمسا عن طريق الكولونيل بروكشي الذي حضر إلى القاهرة. وعرض على محمد علي الخطوط الرئيسية لتلك الدولة العربية التي تشمل مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق(2).

بل ويذهب البعض أيضا إلى أن محمد علي كان يهدف إلى تجديد شباب الدولة العثمانية بالسيطرة على أعنة الحكم فيها أولا ثم إصلاحها مستعينا بالنظم الغربية وموارد مصر الاقتصادية بدعوى أن الحكومة العثمانية قد استنفذت كل مواردها المادية والمعنوية وأصبحت بالية من أساسها، عاجزة عن الدفاع عن نفسها مرتمية في أحضان الروس أعداء الإسلام فلما عجز عن تحقيق هذا الهدف رأى أن تقتصر دولته على الأقطار العربية التي تشترك مع مصر في الجنس واللغة والجوار كأساس لدولة عربية إسلامية(3).

ومهما يكن من أمر، فإنه لا صحة لما يراه البعض من أن هذه الحركة تعتبر مظهراً من مظاهر الحركة القومية العربية(4) وذلك أن محمد علي لم يكن يهدف إلى إنشاء امبراطورية عربية تحل محل الإمبراطورية العثمانية على الرغم مما كان يدعيه –ولأسباب

هامش ص170

(1) جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره. ص86.

(2) المرجع السابق: ص86، حسين مؤنس: مرجع سبق ذكره ص169، نقلا عن تقرير كامبل قنصل بريطانيا العام في مصر إلى حكومته سنة 1832م.

(3) حسين مؤنس: مرجع سبق ذكره، ص170-172.

(4) محمد بديع شريف: مرجع سبق ذكره ص28

انتهى الهامش

ص171

شخصية محضة- من ميول عربية؛ لأن قيام حركة عربية عرقية في مصر وسوريا في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي كان أمرا يتنافى مع التيار الفكري الشرقي في تلك الأيام؛ فقد كان المسلمون وقتذاك يشعرون بأنهم أعضاء في أخوة دينية كبرى، يشعر كل فرد فيها أنه يقف على قدم المساواة مع أخيه المؤمن المسلم(1).

هذا فضلا عن أن محمد علي كان من أصول كردية غير عربية ولا يتحدث اللغة العربية ويميل إلى الترك ويفضلهم على العرب وقد فاوضته فرنسا من أجل غزو الجزائر لحسابها(2)، كما أن الفتوحات التي قام بها كان كل منها وليد ظروف سياسية أو حربية أو

اقتصادية خاصة أملت عليه القيام بها. ولم تكن من بين دوافعها الرغبة في إحياء القومية العربية أو تحقيق الوحدة العربية؛ فالحركات التوسعية في عهده لم تكن تسير وفق مخطط قومي عربي يستهدف إنشاء دولة عربية.

وأما منشورات إبراهيم باشا في الشام – التي يتشدق بها البعض مصبغين عليها الصبغة القومية العربية- فلم تكن تستهدف سوى استمالة الأهالي لتسهيل عمليات الزحف العسكري، فهي لا تعدو أن تكون وعودا للاستهلاك المحلي لا أكثر كما أن إبراهيم باشا – الذي حاول البعض(3) أن ينسب إليه فكرة العمل على تحقيق النهضة العربية وتأسيس إمبراطورية عربية – لم يندمج في المجتمع العربي. فقد كانت حاشيته الخاصة مؤلفة في معظمها من الأتراك والكرد والجراكسة والأرناؤوط والفرنسيين(4).

هامش ص171

(1) زين نور الدين زين: مرجع سبق ذكره ص45

(2) محمود صالح منسي: مرجع سبق ذكره ص38

(3) محمد عمارة: العروبة في العصر الحديث دراسات في القومية والأمة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة1967م ص165-172

(4) عبد العزيز الشناوي: الوحدة العربية ص21-22

انتهى الهامش

وهكذا نجد أن محمد علي لم يكن يؤمن بالعروبة ولم ينتفض انتفاضته ضد السلطان العثماني دفاعا عن القومية العربية أو رغبة في تخليص العرب من حكم الترك فقد بدأ وعاش وانتهى عثمانيا مسلما(1). وأصدق وصف يصح أن يطبق على حركته تلك كحركة قومية عربية، هو ما أطلقه عليها أستاذنا الدكتور الشناوي (رحمه الله) من أنها كانت "أسطورة تاريخية لا سند لها في الحقيقة"(2).

وأيما كان الأمر فقد فشلت هذه الحركة وكان العامل الحاسم في فشلها(3) هو افتقار الشعور بالتضامن القومي بين العرب ذلك أن الوعي القومي الحقيقي كقوة سياسية لم يكن بالدرجة القومية الكافية بين العرب وكانت فكرة تكوين دولة عربية مستقلة –حينذاك- فكرة سابقة لأوانها؛ فإن إسلام الدولة العثمانية وخلافة السلطان العثماني جعلا المسلمين عربا وغير عرب –حيث المجتمعات مجتمعات إسلامية- يرتبطون برابطة العقيدة الدينية فالعاطفة الدينية من أقوى الروابط أما العاطفة الوطنية فقد كانت ممتزجة بالعاطفة الدينية هذا الرباط الديني كان لا يزال يشد جماهير ذلك العصر من العرب إلى الخلافة الإسلامية في الأستانة(4).

على أنه يمكن القول إننا وإن كنا ننفي عن محمد علي وجود أي تفكير قومي لديه لأن حركته لم تستمد قوتها من نزعة قومية ولهذا لم تؤثر في نشوء الفكرة القومية العربية تأثيرا مباشرا ولكنها خدمت القومية العربية خدمة كبيرة ولو بصورة غير مباشرة لأنها

هامش ص172

(1) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، سلسلة أعلام الإسلام عدد8أكتوبر 1944ص62.

(2)عبد العزيز الشناوي: الوحدة العربية ص23.

(3) بالإضافة إلى عدة عوامل أخرى منها كون محمد علي وابنه إبراهيم غير عرب وصفة التردد التي اتسمت بها سياسته وسياسة إبراهيم في الشام والمعارضة الأوروبية.

(4) محمود صالح منسي، مرجع سبق ذكره ص41.

انتهى الهامش

أوجدت دولة عصرية قائمة في بلاد عربية(1) ويظهر ذلك جليا في أثر الوجود المصري في الشام على عهد محمد علي كعامل هيأ أو ساعد على ظهور الفكرة القومية العربية فيما بعد فقد نعم المسيحيون بنوع من المساواة كانوا يفتقدونها في الحكم العثماني كما فتحت أبواب الشام أمام المؤثرات الغربية حيث ازداد النشاط التنصيري والمدارس الطائفية والأجنبية هذا بالإضافة إلى قيام نهضة تعليمية وطنية الأمر الذي كان له عظيم الأثر في قيام الشام بدور رائد في الحركة القومية العربية.

* إن حركتي الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية وحركة محمد علي باشا في مصر كانتا مجرد نموذج للحركات الاستقلالية التي انتفضت ضد الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر الميلادي وهناك الكثير من الحركات غير العربية حدثت في القرن نفسه كالانتفاضات الكردية والأرمينية في آسيا والبلغارية واليونانية في أوروبا وقد أثرت هذه الحركات سلبا على قوة الدولة العثمانية وهيبتها ولم تتوقف هذه الحركات حتى حصول بعضها على الاستقلال وحتى انهيار الدولة العثمانية بشكل تام عقب الحرب العالمية الأولى1914-1918م على الرغم من محاولات الإصلاح التي حاول بعض السلاطين ترميم دولتهم بها.

هامش ص173

(1) ساطع الحصري: محاضرات في نشوء الفكرة القومية مطبعة الرسالة القاهرة1951م.

انتهى الهامش

ص175

الفصل السابع

حركات الإصلاح في الدولة العثمانية

ص177

بداية الإصلاح:

لم يقف بعض سلاطين الدولة العثمانية مكتوفي الأيدي حيال الضعف الذي تمر به دولتهم وإنما قام بعضهم بمحاولات إصلاح وتجديد وقد بدأت هذه المحاولات منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي عندما تدهورت نظم الحكم العثماني وتغلغل النفوذ الاحتلالي الذي أسفر عن وجهه في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

أسباب اتجاه بعض السلاطين العثمانيين نحو الإصلاح(1):

للمؤرخين آراء حول تفسير توجه الدولة العثمانية للإصلاح:

الرأي الأول: يرى أن اتجاه الدولة العثمانية إلى الإصلاح يرجع إلى تأثرها بالفكر الغربي الذي جاءت الثورة الفرنسية(1789م) تحرره وتغذيه(2).

والرأي الثاني: يرى أن محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية كان القصد منها إقناع الدول الأوروبية بأن ثمة إصلاح يجري في الدولة العثمانية كي ترفع هذه الدول يدها عن التدخل في شؤون الدولة العثمانية بدعوى حماية العناصر المسيحية المضطهدة داخل الدولة الإسلامية الكبرى وبذلك يمكنها التخلص من: الضغط السياسي الذي كانت الدولة الغربية تمارسه في علاقتها مع الأتراك(3).

هامش ص177

(1) للتفصيل ينظر محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني1808-1839م دار التراث- القاهرة1978م الفصل الثاني ص61- 93وهو كتاب جيد حول حركة الإصلاح قبل وفي أثناء عهد السلطان محمود الثاني.

(2) ألبرت حوراني: مرجع سبق ذكره ص61.

(3) زين نور الدين: مرجع سبق ذكره ص35.

انتهى الهامش

ص178

والرأي الثالث: يرى أن اتجاه الدولة العثمانية إلى الإصلاح كان نتيجة اقتناع رجال الدولة العثمانية بوجوب الإصلاح الذي كانت تؤيده الطبقة المتوسطة التركية للتخلص من الأوضاع الإقطاعية المتخلفة من العصر العثماني الأول لأن هدم هذه الأوضاع سيدعم مركزية السلطنة داخل ممتلكاتها(1).

وليس من المستبعد أن تكون هذه الاعتبارات الثلاثة كانت تخالج رجال الإصلاح في الدولة العثمانية فهم مع تأثرهم بالحضارة والفكر الأوروبي تأثراً دفعهم إلى محاولة تقليده؛ كانوا يريدون إقناع الدول الغربية باتجاهاتهم الإصلاحية كي يكفوا عن التدخل في شؤون الدولة العثمانية بجانب اقتناعهم أصلا بضرورة الإصلاح إنقاذا للدولة العثمانية من التفكك والانهيار.

على أن المعالم الرئيسية لهذه المحاولات الإصلاحية كانت تدور حول ثلاث نقاط رئيسية:

1- اقتباس النظم الغربية في تنظيم الجيش العثماني وتسليحه وفي تنظيم الإدارة.

2- الخروج عن التنظيم الإسلامي للمجتمع والدولة والاتجاه نحو التشكيل العلماني.

3- الاتجاه نحو مركزية السلطة في العاصمة والولايات(2).

إصلاح الجيش:

جدير بالذكر أن حركة الإصلاح والاقتباس قد اتجهت أول الأمر إلى الجيش ولا غرابة في ذلك؛ فالدولة العثمانية دولة عسكرية والجيش فيها يمثل العمود الفقري لكل شؤونها فهو أداة الحرب والحكم معا.

هامش ص178

(1) محمد أنيس: مرجع سبق ذكره ص212.

(2) د. محمد أنيس وزميله: مرجع سبق ذكره ص123.

انتهى الهامش

ص179

هذا بالإضافة إلى أن التفوق الأوروبي في الشؤون العسكرية ظهرت آثاره المادية خلال الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد بعض الدول الأوروبية حيث مُنيت الدولة بهزائم منكرة(1).

وجدير بالذكر أيضا أن مسألة إصلاح الجيش العثماني على الرغم من ضرورتها الملحة والبادية للعيان قد اصطدمت بمعارضة شديدة واستغرقت مدة تزيد على نصف قرن فكان بديهيا أن تتعرض سائر الإصلاحات لمعارضة أشد وتتطلب جهوداً أضنى ومدة أطول وهذا يعطينا صورة واضحة لمجتمع ذلك العصر حيث سيادة التقاليد القديمة الموروثة التي كانت تؤمن برفض كل ما هو أجنبي!

وقد بدأت محاولات إصلاح الجيش في عهد السلطان العثماني مصطفى الثالث (1757-1774) الذي اتجه به إلى البحرية والمدفعية وتجنب المشاة (الإنكشارية) مما جعل الإصلاح قليل الجدوى. ثم سارت الإصلاحات ببطء في عهد السلطان عبد الحميد الأول (1774-1789م) ولكنها لم تلبث أن دخلت طور التنفيذ الفعَّال في عهد السلطان سليم الثالث (1789-1807) الذي آمن بضرورة الإصلاح فاتجه إلى تكوين فرقٍ من المشاة دون التعرض للإنكشارية تاركاً لهم حرية الانضمام إلى ذلك "النظام الجديد" الذي بدأ تطبيقه فعلا في بعض ولايات الدولة مثل: مصر وبغداد وعكا حيث كان أحد أسباب صمود عكا في وجه بونابرت.

ولكن هذه الإصلاحات لم تلبث أن نكبت بنكسة خطيرة في نهاية عهد السلطان سليم الثالث بسبب رفض الإنكشارية الإصلاح الذي رأوا فيه أنه يهدد مركزهم فهبوا ثائرين يؤيدهم علماء السوء الذين اكتسبوا نفوذا واسعا في عهد الضعف واستطاعوا أن يحرضوا الجماهير ضده بحجة أن النظام الجديد بدعة وكل بدعة حرام... أنه

هامش ص179

(1) ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره ص72- 73

انتهى الهامش

ص180

من بدع الكفار والأخذ به ما هو إلا التشبه بالكفار، ومن مبادئ الإسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم". وكانت النتيجة عزل السلطان سليم الثالث. ثم قتله بغية القضاء على آثار الإصلاح من جذورها(1).

وبعد حقبة من البلبلة استمرت قرابة عام. ارتقى عرش السلطنة محمود الثاني (1808 –1838) فرأى – وقد اتعظ من اخفاق سلفه – ألا سبيل الى اصلاح الجيش إلا بالتخلص من الإنكشارية نهائيا. وقد توفر له عاملان ساعداه عى المضي في الإصلاح بخطى ثابتة وهما:

أولا – ظهور فريق من رجال الإصلاح العثمانيين الذين كانوا على اطلاع واسع بالعالم الحديث. وعلى اقتناع تام بأن الدولة إما أن تنتمي الى ذلك العالم أو تفنى. وخلاصة آرائهم في ذلك: أن على الدولة العثمانية أن تتحول الى دولة مركزية حديثة. وذلك بإنشاء جيش يحقق لها السيطرة المركزية على ولاياتها المتمعة بحكم شبه ذاتي وباستقلال عملى. وذلك لإبعاد خطر الثورة والتدخل الأجنبي. وذلك يكون بإنشاء نظام تشريعي وإداري حديث في جميع أنحاء الدولة العثمانية، يكون قائما على مبدأ المساواة بين جميع المواطنين بدون تفرقة بين جنس او دين. وكان على رأس هذا الفريق: أحمد وفيق باشا، ومصطفى رشيد باشا(2).

ثانيا – في سنة1821م كانت ثورة اليونان. التي كانت ثورة قومية بهدف انشاء دولة حرة لهم من جهة. والتي كانت محاولة لقلب الميزان الديني والسياسي في شرق البحر المتوسط. وإحلال السيطرة الأرثوذكسية اليونانية محل السيطرة الإسلامية العثمانية من جهة أخرى. ثم كان عجز الجيش العثماني عن قمعها. فانتهت – بعد التدخل

الهوامش:

المرجع السابق: ص ص76 – 80: محمد انيس: مرجع سبق ذكره، ص ص212، 213: محمد عزت دروزه: مرجع سبق ذكره، ص 166.

ألبرت حوراني: مرجع سبق ذكره. ص ص62 – 63.

ص181

الأوروبي – بالاعتراف باستقلال اليونان. وكان ذلك في حد ذاته كافيا لأن تحذو الشعوب المسيحية في شرق أوروبا الخاضعة للدولة العثمانية حذو اليونان في القيام بثورات قومية. والاستعانة بالقوى الأوروبية. الأمر الذي قوى فكرة الإصلاح في الدولة العثمانية لكسب ولاء الشعوب المحكومة، وتأييد الدول الأوروبية(1).

وفي يونيه سنة1826م أقدم السلطان محمود الثاني على الخطوة الأولى في الإصلاح، وهى التخلص من الإنكشارية. منتهزا فرصة فشلهم في القضاء على ثورة اليونان. فأيدهم دون أن يرتفع صوت واحد للدفاع عنهم حتى بين المحافظين المتدينين. ويسمى الأتراك هذه الحادثة بـ"الواقعة الخيرية" لأنهم تفاءلوا بها خيرا(2).

وبعد القضاء على الإنكشارية لم يقتصر نشاط السلطان محمود الثاني على الإصلاحات العسكرية التي سارت قدما بمساعدة الضباط البروسيين، فقد أنشئت في عهده الى جانب مدرسة الطب واكاديمية العلوم العسكرية العديد من المدارس الثانوية والإعدادية. كما جعل التعليم الإبتدائي اجباريا. وارسلت البعثات الى أوروبا وأنشئت جريدة رسمية وأنشئ نظام جديد للبريد. والغيت الاقطاعات

المتبقية وأصلحت إدارة الأوقاف(3)، كما جعل الطربوش لباسا رسميا لجميع طوائف الرجال. ويشير هذا الإجراء الأخير الى رغبة السلطان محمود الثاني في عدم التفرقة بين رعاياه بسبب ديانتهم. وقد عرف عنه قوله: "أنا أعرف المسلمين في الجامع. والمسيحيين في الكنائس.

الهوامش:

المرجع السابق: ص ص63 – 64: عبد الكريم غرايبة: مرجع سبق ذكره، ص24

محمد أنيس وزميله: مرجع سبق ذكره، ص ص125 – 126.

البرت حوراني: مرجع سبق ذكره، ص64 : ساطع الحصري : مرجع سبق ذكره، ص ص81 – 86.

ص182

واليهود في المعابد. وخارج أماكن العبادة أود أن يتمتع كل فرد بحقوق سياسية متساوية، وبحمايتي الأبوية"(1).

ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية بقيت فترة غير قصيرة دون قوة عسكرية أساسية قبل إعداد الجيش العثماني الجديد. وفي هذه الفترة استطاعت اليونان أن تحصل على استقلالها. كما ثارت بعض الولايات الأوروبية الأخرى. وهي نفس الحقبة التاريخية التي استطاع فيها والي مصر محمد على أن يحقق انتصاراته المعروفة في بلاد الشام كما ابتلعت فرنسا الجزائر عام1830م. وإنجلترا عدن سنة1839م(2).

التنظيمات العثمانية:

لم تتعرض الإصلاحات التي أنجزت في عهد السلطان محمود الثاني للقضية الجوهرية. وهى حقوق ومركز الرعايا المسيحيين في الدولة، وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى سنة1839م. حين تولى السلطان عبد الجيد (1839 –1861م). حيث صدرت في عهده ما عرف باسم "التنظيمات العثمانية"، وهى مجموعة القوانين والأنظمة التي سنت أو صدرت مستندة على القواعد التي تقررت في "منشور الكلخانة" الصادر في 3نوفمبر سنة1839م. و "منشور خطي همايوني" الصادر في سنة1856م". هذه التنظيمات التي يرجع الفضل في إصدارها الى ثلاثة رجال الإصلاح في الدولة العثمانية. وهم: رشيد باشا و عالي باشا و فؤاد باشا(3).

الهوامش:

(1) محمد أنيس: مرجع سبق ذكره، ص214.

(2) عبد الكريم غرايبة: مرجع سبق ذكره، ص24.

(3) محمد عزه دروزه: مرجع سبق ذكره، ص166.

ص183

1- منشور الكلخانة:

يقرر هذا المشور الحقوق التي ينبغي أن تتمتع بها الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية مهما اختلفت أجناسهم ودياناتهم وهى: تأمين الروح. والعرض. والمال. وقد يبدو غريبا لنا تقرير هذه الأمور في مرسوم جديد ولكنه كان مهما بالنسبة الى الأحوال السائدة في الدولة العثمانية حتى ذلك التاريخ فقد كان اعدام الأشخاص يتم بدون محاكمة. بل بأمر السلطان أو أحد الولاة. ثم يلي ذلك في العادة مصادرة أموال المحكوم عليهم بالاعدام. كما ان أعراض الناس كانت عرضة لانتهاكها في كل لحظة. كما نص المنشور على تنظيم الضرائب وجبايتها، وتنظيم التجنيد وتحديد مدة الخدمة العسكرية، وإصلاح الأنظمة الإدارية؛ تحقيقا لمركزية السلطة وقضاءا على عوامل الفساد(1).

2- منشور خطي همايوني:

أما خطي همايوني الذي صدر عقب حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا سنة1856م. فقد اكد ما سبق أن قرره المنشور السابق. ولكنه أضاف إليه بندا مهما. وهو معاملة رعايا الدولة من غير المسلمين مهما كان دينهم ومذهبهم . معاملة متساوية مع المسلمين من أبناء الدولة أمام القانون. كما أبقى منشور خطي همايون في الوقت ذاته على الإمتيازات الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة على أن تنظم بقوانين جديدة(2).

وتوضيحا لذلك يمكن القول: ان الدولة العثمانية كانت تعامل غير المسلمين معاملة تختلف في كل الوجوه عن معاملتها للمسلمين

الهوامش:

(1) محمد فؤاد شكري: مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر (1820 –1899م). ط3، دار المعارف. القاهرة،1963م. ص 27.

(2) ألبرت حوراني: مرجع سبق ذكره. ص 67.

ص 184

فقد كانت تسمى المسلمين "تبعة" وغير المسلمين "رعايا". وكانت تفرض على غير المسلمين أن يلبسوا لباسا خاصا ليسهل تمييزهم عن المسلمين بل لقد غالى بعض الحكام في هذا السبيل ففرضوا على غير المسلمين حمل اشارة خاصة عند دخولهم الحمام بعد خلع ملابسهم تمييزا لهم عن المسلمين. كما لم يسمح لهم عند تشييد المباني بارتفاعها عن مباني المسلمين ولا تقبل شهاداتهم بأي وجه من الوجوه على المسلمين الأمر الذي كان ينتج عنه – بطبيعة الحال – مساوئ كثيرة. وقد كان استمرار هذه الأحوال في القرن التاسع عشر الميلادي – عصر الثورات والقوميات – من الأمور المستحيلة التي أن تركت بدون علاج تفتح بابا واسعا لثورات الرعايا. وتدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة. وعلى ذلك كان إعلان المساواة هو العلاج الحاسم لتلك الحالة وسدا للذرائع.

كذلك كانت النظم المعمول بها في الدولة العثمانية تعترف لكل طائفة من الطوائف "غير المسلمة" بشخصية معنوية. وتمنح رؤساء الدين سلطات خاصة للتصرف في شؤون أبناء طوائفهم.وكانت السلطات التي يتمتع بها بعض البطاركة تجعل البطريركية دولة داخل الدولة. فأبقى منشور خطي همايوني على تلك السلطات الممنوحة لرؤساء الدين على ان تنظم بقوانين جديدة. كما ترك جميع القضايا المتعلقة للأحوال الشخصية لأبناء الطائفة. وكذلك جميع الأمور المتصلة بأوقاف الأديرة والكنائس وشؤون المدارس والمؤسسات الخيرية الخاصة بالطائفة الى رؤساء هذه الطوائف. كما تضمن خطي همايوني تشريعا لإبطال المتاجرة والمحسوبية في الوظائف. وجعلها من حق الجميع بلا استثناء. كما انه قرر تنظيم أمور الدولة بوجه عام بإصدار قوانين جديدة وفقا للنظم السائدة في الدول الأوروبية(1).

الهوامش:

(1) ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره. ص ص 89 – 90. محمد أنيس: مرجع سيق ذكره. ص 215.

ص 185

انتقادات للتنظيمات:

وجهت الى التنظيمات العثمانية عدة انتقادات على الرغم من صدور قوانين جديدة تنفيذا لبنودها بهدف تنظيم أمور الدولة وفقا للنظم الحديثة المتبعة في الدول الأوروبية. ومن هذه الإنتقادات ما يلي:

أولا – يرى بعض المؤرخين أن هؤلاء السلاطين الذين أصدروا هذه التنظيمات لم يكونوا جادين فى الإصلاح لأنه لم يعرف أن أحدا منهم كان يفكر في أن يصبح هو نفسه ذات يوم سلطانا دستوريا فكيف يمكن أن يوافق على وضع قيود تحد من سلطته وهو أمر يتنافى مع مركزه السامي وألقابه العديدة. مثل أمير المؤمنين. وظل الله على الأرض، وخليفة الرسول وسلطان البحرين... ألخ.(1).

ثانيا – أن الحماس كان شديدا للأخذ بنظم الغرب وأساليبه. لكن هذا الحماس لم يتعد الجانب الشكلي دون وجود الظروف الموضوعية التي تمكن من فاعليتها. فكانت النتيجة أن أصبحت تلك التنظيمات مجرد مبادئ مكتوبة على ورق، فلم تستطع الحكومة أن تطبق مبدأ التسوية بين المسلمين والمسيحيين. فقد ظلت الخدمة العسكرية مقصورة قانونا وفعلا على المسلمين وحدهم كما ظل المسيحيون

يدفعون البدل العسكري، كما ظلت الوظائف العامة لا سيما الإدارية والقضائية مقصورة على المسلمين فعلا وإن لم يكن قانونا. الأمر الذي نتج عنه أن ظلت الدول الأوروبية تستفيد من هذه الأوضاع لبسط حمايتها على المسيحيين ولتحريكهم بين الحين والآخر(2).

ثالثا – أن الطبقة المثقفة التركية التي حملت مشعل الإصلاح لم تكن – على الرغم من رغبتها في الإصلاح – ثورية بدرجة كافية

الهوامش:

(1) زين نور الدين: مرجع سبق ذكره. ص42.

(2) ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره. ص92.

ص186

فبينما أدخلت التعليم الأوروبي في عدة مدارس، أبقت على (المعاهد الدينية) دون أن تمد إليها يد الإصلاح مما نتج عنه وجود ازدواجية في الحياة الفكرية(1)ساعدت على عرقلة الإصلاح، فقد ظل رجال الدين يتدخلون في شؤون الدولة، ويعرقلون التقدم في مختلف الميادين(2).

أحوال البلاد العربية في عهد التنظيمات:

شهد البلدان العربية على عهد التنظيمات تغييرات كبيرة. وقد أخذت الدولة العثمانية تطبق فيها التنظيمات بدرجات متفاوتة. فسوريا وحلب وبيروت كانت أولى الولايات التي طبقت فيها هذه التنظيمات تطبيقا شاملا وسريعا. أما تطبيقها في ولايتي البصرة وبغداد (حيث لم يكن العراق قد وجد بعد) فكان أقل شمولا واقل سرعة. واما ولايتا اليمن والحجاز فلم تشهد من التغييرات إلا الشئ القليل(3). وأما مصر التي كانت تستمتع بإستقلال ذاتي في شؤونها الداخلية فكانت قد سبقت الدولة العثمانية في الأخذ بأساليب التقدم الغربي. وذلك بعد خروج الفرنسيين من مصر وتقلد محمد على زمام الحكم فيها. وقيام الدولة الحديثة في الربع الأول من القرن التاسع عشر.

ويهمنا الان أن نلقي الضوء بسرعة على تلك التغييرات أو الآثار التي شملت البلاد العربية على عهد التنظيمات.

أولا – قضت التنظيمات العثمانية على النظم الإقطاعية العثمانية في البلاد العربية. تلك النظم التي تمثلت في الإقطاع العسكري (الزعامات – التيمارات – الخاصات)، وفي نظام الالتزام كما حددت سلطة الولاة وقد حل محل هذه النظم الإقطاعية نظام

الهوامش:

(1) محمد أنيس: مرجع سبق ذكره. ص215.

(2) ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره. ص93.

(3) المرجع السابق. ص ص93 – 94.

ص187

الحكم المركزي الذي اقتبس من النظم الفرنسية ولكن الدولة العثمانية قد غالت في المركزية، فانتقلت من الإفراط الى التفريط(1). وكان من الطبيعي أن تقوم الدولة بإعادة تنظيم الولايات العربية الخاضعة لها على أساس المركزية. ولكن على الرغم من الإصلاحات التي قام بها مدحت باشا في العراق(2)فلم يحرز النظام المركزي نجاحا كبيرا فيه. نظرا لصعوبة المواصلات. والخصومات المحتدمة بين الشيعة والسنة ونفور الموظفين الأتراك من الخدمة في العراق لظروفه المناخية.

كما فشلت الدولة أيضا في تحقيق النظام المركزي في الشام الذب كانت تستشري فيه الإنقسامات الدينية. فقد كان يضم عددا كبيرا من الملل والنحل والمذاهب الإسلامية والمسيحية على السواء بالإضافة الى وجود عدد كبير من العصبيات القبلية الكردية والتركمانية والعربية، هذل فضلا عن تأخر طرق المواصلات حيث لم يكن ببلاد الشام حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي سوى طريق واحد ممهد. يصل بين بيروت ودمشق، بالإضافة الى تخلف وسائل الاتصال الأخرى كالبرق والبريد.

وأما الحجاز الذي كان له تحت الحكم العثماني صفة استقلالية تمثلت في "نظام الشرافة". التي استمرت حتى الحكم المصري للحجاز عقب الحروب الوهابية. هذا الحكم المصري الذي نجح في كسر شوكة

الهوامش:

(1) ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره. ص 94.

(2) قسم العراق في عهد التنظيمات الى ثلاث ولايات: ولاية بغداد القديمة التي ظلت في وضع شبه المستقل على يد أسرة المماليك حتى سنة 1831م. ، وولاية الموصل (جنوب كردستان) التى أنشئت سنة 1879م. ، وولاية البصرة التي أنشئت عام 1884م. وقد قسمت كل ولاية الى متصرفيات وكل متصرفية عدة أقضية، وكل قضاء الى نواحي. وكان يحكم الولاية الوالي، والمتصرفية المتصرف. وهذان يعينهما السلطان، أما الأقل مرتبة وهوالقائمقام والمدير فيعينهم الوالي نفسه. وقد طبق هذا النظام نفسه على ولايات الشام: محمد أنيس وزميله. مرجع سبق ذكره. ص ص 130 – 133.

ص 188

القبائل وأقام حكومة تعمل على إقرار النظام فقد عمد العثمانيون على تأكيد مركزيتهم فيه ففرضوا قبضتهم على شبه الجزيرة بعد خروج المصريين من الحجاز وذلك منذ سنة 1851م. مستفيدين من النظام المصري في الحجاز، وقد ساعدهم على ذلك فتح قناة السويس الذي قرب المسافة بين العاصمة الأستانة والحجاز. ثم كانت السياسة الإسلامية للسلطان عبد الحميد (1876 – 1919م). واهتمامه بالحجاز – مركز الحرمين الشريفين – بخاصة وربطه بالشام بخط حديدي وصل الى المدينة سنة 1908م (1).

أما اليمن الذي كان قد استطاع التخلص من الحكم العثماني منذ 1635م. فقد ظل يتمتع باستقلاله حتى وقع من جديد في قبضة العثمانيين سنة 1872م. بفضل التسهيلات التي أتاحها شق قناة السويس (2).

أما مصر التي كانت تتمتع باستقلال داخلي ضمنته تسوية لندن 1840/1841م. فقد حاولت الدولة العثمانية أن تمد إليها يدها عن طريق التنظيمات، بهدف إعادتها تدريجيا الى ولاية عادية كسائر الولايات العثمانية الخاضعة مباشرة للحكم العثماني، وحرمانها من الوضع الجديد الذي كفلته لها تسوية لندن 1840/1841م. فقد طالبت الدولة العثمانية الوالي عباس الأول (1848 – 1854م) بعد فشلها مع جده محمد علي. بتطبيق التنظيمات في مصر باعتبارها ولاية عثمانية، ولكن الوالي عباس عارض ذلك مستعينا بالتأييد الإنجليزي وعليه: لم ينجح التدخل العثماني في مصر عن طريق التنظيمات (3). ثم كانت محاولات الوالي محمد سعيد (1854 – 1863م) والخديوي إسماعيل (1863 – 1879م) لتوسيع حقوق مصر التي

الهوامش:

(1) محمد أنيس: مرجع سبق ذكره ص ص 217 – 222.

(2) جورج أنطويوس: يقظة العرب، مرجع سبق ذكره. ص 133.

(3) محمد فؤاد شكري: مرجع سبق ذكره. ص ص 27 – 35.

ص 189

اكتسبتها بمقتضي تسوية لندن 1840 /1841م. والأموال التي أنفقتها، والفرمانات التي صدرت، وآخرها الفرمان الشامل سنة 1873م. وما أعقب ذلك من التباعدات بين مصر والباب العالي، بفضل ازدياد النفوذ الأوروبي في عهد الخديوي اسماعيل الذي انتهى بالاحتلال الإنجليزي لمصر سنة 1882م. في عهد خلفه "ابنه" الخديوي توفيق.

ثانيا – لم تستطع التنظيمات أن تغير مواقف كل من المسلمين والمسيحيين في البلاد العربية تجاه الدولة العثمانية تغييرا يذكر فالمسلمون يعتبرون الدولة دولتهم، فاستسلموا لحكمها لأنها دولة الخلافة الإسلامية. والمسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم. وقد استطاع الأخيرون "المسيحيون" في ظل التنظيمات التي نظمت لهم شؤون البطريركات والمجالس الملية، أن يترابطوا ويتعودوا على العمل في مؤسسات دينية وخيرية وتعليمية. وأن يوطدوا صلتهم بالدول الأوروبية التي أخذت – خلال عهد التنظيمات بوجه

خاص – تتنافس مع بعضها في توسيع نفوذها في البلاد العثمانية، عن طريق فتح المدارس لنشر لغتها وثقافتها. هذه المدارس التي كانت تجتذب – بطبيعة الحال – أطفالا غير مسلمين(1).

ثالثا – طبقا لخطة الإصلاح انتشرت موجة المدارس العثمانية في الولايات العربية. وقد استفادت ولايات العراق من هذه المدارس العثمانية. حيث افتتحت فيها المدارس الرشيدية والفنية، كمدارس الصنايع(2)والعسكرية التي ظهرت آثارها بشكل واضح في الحياة العراقية فيما بعد أما اليمن والحجاز فلم تنشأ فيهما مدارس عثمانية وظلت هذه البلاد تنهل في ثقافتها من المدارس الإسلامية التقليدية.

الهوامش:

(1) ساطع الحصري: مرجع سبق ذكره. ص ص 94 – 95.

(2) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشاز دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة1968م. ص 48.

ص 190

أما ولايات الشام، فكانت خلال عهد التنظيمات مجالًا فسيحًا لنشاط الجمعيات التنصيرية الكاثوليكية والبروتستانتية، التي تسابقت في افتتاح المدارس التي أصبحت موئلًا لتعليم الأدب العربي واللغة العربية، الأمر الذي كان له أثره في انتشار تعليم الأدب العربي بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين، وفي اتجاه بلاد الشام عامة ولبنان بوجه خاص نحو الثقافة الأوروبية(1). والسبب في ذلك يرجع إلى أن لغة التعليم في المدارس الحكومية كانت اللغة التركية هذا من جهة، وأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم، وذلك نتيجة عدم الترابط بينهم بعكس الطوائف الأخرى من جهة أخرى(2). وأما مصر، فكانت قد قطعت شوطًا كبيرًا في النهضة التعليمية وبناء الدولة الحديثة منذ عهد ﷴ علي.

تدهور الدولة العثمانية في عهد التنظيمات :

بعد أن تعرضنا للتنظيمات العثمانية، والتغييرات التي طرأت على البلاد العربية في ظلها، نستطيع أن نقول أن هذه التنظيمات لم تثمر ثمرتها المرجوة؛ فلم تقنع الدول الأوروبية بعدم تدخلها في شؤون الدولة العثمانية لتقف في مصاف الدول المتقدمة، بل أسوأ من ذلك أن التدهور قد تفاقم، وذلك عندما تدهورت خزانتها في عهد السلطان عبد العزيز (1861 – 1876م) الذي اشتهر بإسرافه وبذخه، فتوالت الديون على الدولة العثمانية، حتى إن الباب العالي، اضطر في أكتوبر سنة1875م أن يخصص ميزانية الدولة لتسديد الديون.

كما خسرت الدولة في عهد السلطان عبد العزيز أكثر ممتلكاتها في البلقان. وعلى الرغم من تمكن القوات العثمانية من إخماد ثورة الجبل الأسود والبوسنة والهرسك والصرب وكريت فقد خسرت هذه

هامش ص 190

(1) ﷴ أنيس : مرجع سبق ذكره، ص 216.

(2) ساطع الحصري : مرجع سبق ذكره، ص 94 – ص 95.

انتهى الهامش

ص 191

المقاطعات، كذلك اتحدت ولايتا الأفلاق والبغدان لتشكلا دولة رومانيا الحالية.

أما الولايات العربية، فلم يكن حالها بأفضل من الولايات الأخرى، فقد اشتد التدخل الأجنبي في شؤون مصر وتونس بعد أن ازدادت ديونهما، وأخذت فرنسا ترنو إلى تونس، فاحتلتها عام1881م بعد ابتلاعها الجزائر سنة1830م، وكذلك ازداد النفوذ الفرنسي في لبنان وغيرها من الأقطار السورية، ونالت الشركات الفرنسية امتيازات عديدة في تلك البلاد(1).

ومضت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد العزيز في تدهور مستمر، ولم تجد من يُداويها بالعلاج الحاسم الناجع، خاصة بعد أن استمرت في عقدها للقروض، حتى عجزت الدولة عن سداد الديون المستحقة عليها في مواعيدها، وأعلن في السادس من أكتوبر سنة 1875م عن إفلاس الدولة العثمانية، وبادرت الدول الأوروبية إلى التدخل حفاظًا على حقوق دائنيها، فتشكل مجلس للدين العام، ضم ممثلين عن بريطانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وألمانيا والدولة العثمانية(2).

ويرجع بعض الباحثين هذا التدهور المالي والسياسي في الدولة العثمانية إلى السلطان المبذر المتبذل عبد العزيز (1861 – 1876م)، الذي جمد الإصلاحات التي قام بها سلفه عبد المجيد، ولم يهتم إلا بالانغماس في شهواته الخاصة(3)، كما أنه تورط في الديون بشكل كبير، شأنه في ذلك شأن الخديو إسماعيل في مصر. وقد زار السلطان عبد

هامش ص 191

(1) عبد الكريم غرايبة : مرجع سبق ذكره، ص 34 – ص 35.

(2) المرجع السابق : ص 36.

(3) أرنست ا. رامزور : تركيا الفتاة وثورة 1908م، تعريب صالح أحمد العلي، مكتبة الحياة، بيروت 1960، ص 39؛ انظر جورج انطونيوس : مرجع سبق ذكره، ص 127.

انتهى الهامش

ص 192

العزيز مصر سنة 1863م، كما زار باريس سنة 1867م، وأقام القصور الفخمة(1).

ثم كان أن اشتعلت نيران الثورة البلغارية في أول مايو 1876م، وتعرض المسلمون فيها لمذابح، أثارت طلاب المدارس الدينية في استانبول، وقد قمعت هذه الثورة قمعًا عنيفًا أثار عاصفة من الاحتجاج في أوروبا، وانتهى الأمر بخلع السلطان عبد العزيز في 10 مايو (آيار) سنة 1876م، ليخلفه ابن أخيه مراد الخامس الذي كان مصابًا بصرع لا يرجى شفاؤه، فخُلع بعد 93 يومًا، وبويع أخوه عبد الحميد باسم السلطان عبد الحميد الثاني في 31 أغسطس (آب) سنة 1876م(2).

بعض مظاهر الإصلاح في تلك الفترة :

بعد أن تعرضنا لتدهور الدولة العثمانية في عهد التنظيمات، يجدر بنا لكي نضع الأمور في نصابها أن نلقي بعض الضوء على مظاهر الإصلاح في تلك الفترة.

فالحق أن الدولة العثمانية رغم ما أصابها من تدهور في تلك الفترة – عهد التنظيمات – إلا أنها شهدت بعض ثمار الحركة الإصلاحية، إذ نُظِّم التعليم، وأُنشئت المدارس المختلفة، كما نُظِّم القضاء، ووُضعت قوانين جديدة كقانون الجزاء "العقوبات"، المبني على قانون الجزاء الفرنسي، كما أُنشئت في سنة 1840م محكمة خاصة عُرفت بـ "مجلس الأحكام العدلية"؛ للنظر في الدعاوي التي تقام ضد كبار الموظفين في الدولة. وفي سنة 1850م صدر "قانون التجارة"، وفي سنة 1861م أُنشئت محاكم تجارية لتنفيذ أحكام هذا القانون، كما

هامش ص 192

(1) عبد الكريم غرايبة : مرجع سبق ذكره، ص 36.

(2) جورج أنطونيوس : مرجع سبق ذكره، ص 127 – ص 128.

انتهى الهامش

ص 193

صدر "قانون الجنسية" سنة1869م، وفي السنة نفسها دُوِّنت أحكام القانون المدني في مجلد واحد، وأطلق عليه "مجلة الأحكام العدلية"(1).

هذا فضلا عما ذكرناه من تنظيم التجنيد والإدارة والضرائب، والحد من سلطة الولاة، والقضاء على امتيازات الطوائف والهيئات والعصبيات، وتحديد سلطات واختصاصات كبار الموظفين، وتأكيد سلطات الدولة في جميع أنحاء ولايتها، بجعلها أكثر ارتباطًا بالحكومة المركزية. فقويت بذلك قبضة العثمانيين على ما تحت أيديهم من البلاد العربية، كما أقيم في كل ولاية قوات من الجنود العثمانيين الجدد المدربين على الأساليب والأسلحة الحديثة، ونظمت رواتبهم بحيث يسهل ضبطها، فلا تكون مبعثًا للفتن والاعتداءات على الأهالي، كما كان حال جنود الحاميات العثمانية في الفترة السابقة.

موقف البلاد العربية من حركات الإصلاح العثمانية :

كان الأتراك العثمانيون يعتبرون أن تقوية قبضتهم على البلاد العربية التي يحكمونها، أول شرط لتنفيذ الإصلاح، ومن ثم وجهوا اهتمامهم لتدعيم نظام المركزية الشديدة، وفي الوقت ذاته كان العرب ينظرون إلى الإصلاح نظرة أخرى، فالإصلاح الحقيقي عندهم، يتمثل في إحياء الروح الوطنية، وبعث الوعي القومي، وإظهار أمجاد العرب، وإحياء التراث العربي في مختلف العلوم والفنون والآداب. كما أن الإصلاح عندهم ينبغي أن يتجه إلى تحسين أحوال الناس المعيشية، وإنعاش أحوالهم الاقتصادية، وكف أيدي الموظفين الأتراك عن التعسف والبطش بهم، وكذلك إصدار دستور يقيد استبداد الحكومة ويمنح الشعب حريته، ويجعله مهيمنًا على تصرفاتها، مالكًا لزمام أمره. فإذا ما قامت الدولة بهذا كله استطاعت أن تكسب ثقة

هامش ص193

(1) زين نور الدين زين : مرجع سبق ذكره، ص35 – ص36.

انتهى الهامش

ص194

الشعوب العربية، وأن تجمع القلوب حولها، وأن تعبئ قواهم المادية والروحية لمواجهة الضغوط والاعتداءات الأوروبية.

ومن الجدير بالذكر، أن الحركة الثورية التي قامت على عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لم تكن قاصرة على أحرار الترك، وإنما كان إلى جانبهم عدد كبير من الأحرار العرب، وقد عطف عليها لفيف من كبار الكتاب العرب وصحفييهم من أمثال الثائر عبد الرحمن الكواكبي، وخليل غانم، وسليم سركيس، وغيرهم كثيرون. وقد اتجه الأدب العربي إلى المطالبة بالإصلاح، وشكلت الجمعيات، وقامت نهضة أدبية لم تلبث أن تحولت إلى نهضة سياسية كما سنرى بعد ذلك.

على أن العرب سرعان ما خابت آمالهم في الإصلاح على الطريقة التركية، فمهد ذلك لفساد العلاقات بين العرب والأتراك، على الرغم من محاولة السلطان عبد الحميد خلال الفترة (1876 –1908م) جمع الشعوب العثمانية من ترك وألبان وكرد وعرب تحت لواء الجامعة الإسلامية.

عوامل تعطيل الإصلاح في الدولة العثمانية :

تتلخص هذه العوامل فيما يلي :

أولًا – أن السلاطين أنفسهم رغبوا عن السير في حركة الإصلاح حتى تبلغ غايتها الطبيعية، وهي إقرار العدل بين الدولة ورعاياها على أساس جديد، قوامه اشتراك الشعب في حكم البلاد، لأن ذلك لا يتفق وحرصهم على الحكم المطلق والمركزية الشديدة التي طالما طالب مدحت باشا – الذي تولى ولاية بغداد ثم سوريا، ولاحظ بنفسه أضرار نظام المركزية – بالإقلاع عنها إلى نوع من اللامركزية(1).

هامش ص194

(1) ساطع الحصري : مرجع سبق ذكره، ص94 : د. حسين مؤنس : الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ص245 – ص 246.

انتهى الهامش

ص195

ثانيًا – تمسك العناصر الرجعية في الدولة العثمانية، بما كانت تعتبره حقوقًا مكتسبة، مثل العلماء السوء الذين ضاقوا بقوانين المساواة الجديدة، وبمنشآت التعليم المدني، وعدوا ذلك كله خرقًا للدين، بل عدوا التنظيمات كلها بدعة فرضها الأوروبيون على الدولة فرضًا كما سبق أن أشرنا.

ولم يقتصر الأمر على العناصر الرجعية، بل أتت المعارضة أيضًا من بعض المثقفين الذين لم يعترضوا مبدئيًا على الإصلاحات، إلا أنها كانت في نظرهم مستحيلة التطبيق في دولة كالدولة العثمانية، بدعوى أنها تعطي فرصًا جديدة لتدخل الدول الأوروبية بما تمنحه من حرية جديدة للشعوب المحكومة، تتيح لها أن تقوَى وتثور، ولذلك كان من الأفضل – في نظرهم – الإبقاء على العهد القديم، على ان يُطهَّر من الفساد والجمود، ريثما يتم التغيير البطيء في المشاعر، ذلك التغيير الذي يجعل من الممكن إحداث مؤسسات جديدة بدون إضرار.

ما سبق كان رأي أحمد وفيق الذي يقول : "إن محاولة إدخال مؤسسات أوروبية بالجملة إلى تركيا، وتلقيح النظام التركي السياسي التقليدي القديم بالمدنية الأوروبية، قبل أن يكون مهيئًا لمثل هذا التجديد الحاسم، لا يمكن أن تنجح، بل لابد لها من أن تُضعف الدولة العثمانية إضعافًا يفقدها القوة الضئيلة والاستقلال اللذين تبقيا لها"(1).

ثالثًا – المصاعب المالية التي حلت بالدولة نتيجة لاختلال النظم، وسوء جباية الضرائب، وعجز الدولة عن فرض ضرائب جمركية جديدة على البضائع الأجنبية لحماية الإنتاج المحلي بمقتضى معاهدة "بلطة ليمان" المعقودة بين الدولة العثمانية وبريطانيا في 16أغسطس سنة1838م، مما نتج عنه كساد الإنتاج المحلي، وتدهور الصناعات الوطنية،

هامش ص195

(1) ألبرت حوراني : مرجع سبق ذكره، ص68 – ص69 : انظر حسين مؤنس : مرجع سبق ذكره، ص255 – ص256.

انتهى الهامش

ص196

واختلال الميزان التجاري(1)، هذا بالإضافة إلى سفه بعض السلاطين وتبذيرهم.

وقد حاول السلاطين، وخاصة السلطان عبد العزيز (1861 –1876م) معالجةَ هذه الأزمة المالية بأسوأ وسيلة في ذلك العصر، وهي وسيلة الاقتراض من الدول والأسواق المالية الأوروبية، فحملوا الدولة عبئًا كبيرًا من القروض، فزادت المالية سوءًا، واضطرت الحكومة العثمانية إلى قبول رقابة مالية أجنبية عليها، مما أفسح المجال للتدخل السياسي.

رابعًا – الثورات المتتالية للشعوب المسيحية التابعة للدولة، كالبلغار والصرب والكريتيين ومسيحي لبنان، هذه الثورات التي أجهدت الدولة ماليًا وبشريًا، الأمر الذي عرقل جهودها في النواحي الأخرى، والتي أتاحت الفرصة لتدخل الدول الأجنبية في شؤونها.

خامسًا – اشتداد الضغط الأوروبي على الدولة العثمانية وولاياتها : فمما يلفت النظر، أن عهد الإصلاح والتنظيمات الذي شهد محاولة تقوية سلطان الدولة العثمانية في ولاياتها هو ذات العهد الذي شهد كذلك اشتداد أطماع الدول الأوروبية في ولايات الدولة، وسعيها لنيل الامتيازات، وتدخلها لتأييد بعض الطوائف، مما أضعف مكانة الدولة وهيبتها.

وهكذا،، يمكن القول : إن أوروبا نفسها لم تعطِ الفرصة للدولة العثمانية، لمتابعة حركات الإصلاح، بل إنها حرصت على تعطيلها حتى لا تصبح الدولة العثمانية قوية، وبذلك يسهل الانقضاض على ممتلكاتها(2).

هامش ص196

(1) عبد الحكيم غرايبة : مرجع سبق ذكره، ص31.

(2) حسين مؤنس : مرجع سبق ذكره، ص261.

انتهى الهامش

ص197

الفصل الثامن

العصر الحميدي

(1876 – 1909م)

ص199

السلطان عبد الحميد الثاني :

يُعدّ السلطان عبد الحميد الثاني (1876 – 1909م) أكثر سلاطين آل عثمان نال جدلا حادًا في كتابات المؤرخين عامة، وكتابات المؤرخين الغربيين خاصة، وذلك نظرًا للأحداث الكبيرة جدًا التي حدثت في عهده. مثل : مسألة الدستور، والرقابة، والفرسان الحميدية، والأرمن، والجامعة الإسلامية، وسكة حديد الحجاز، وفلسطين... إلخ.

وعبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون في سلاطين الدولة العثمانية، تولى الحكم وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، بعد خلع أخيه مراد الخامس الذي لم تطل فترة حكمه أكثر من93يومًا، حيث اتهم بالصرع، وقيل بالجنون. واستمر عبد الحميد الثاني في الحكم حتى خلعته جماعة الاتحاد والترقي سنة1909م.

ويطلق المؤرخون على فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني "عهد المشروطية الأولى"، وأيضًا "العصر الحميدي" نسبة إليه وإلى عظم ما حدث في عهده.

وجدير بالذكر أن رجال التشريع في الدولة العثمانية استعملوا تعبير المشروطية للدلالة على النظام الدستوري والحياة الدستورية، كما أطلقوا على الدستور لفظ القانون الأساسي، وقد استخدم لفظ المشروطية للدلالة على أن القضاء على نظام الحكم المطلق الذي كان قائمًا حتى ذلك الحين إنما يكون بجعل حكم السلطان "مشروطًا" بمراعاة القيود المقررة في القانون الأساسي (الدستور)(1).

هامش ص199

(1) ساطع الحصري، مرجع سبق ذكره، ص74 – 75، ص97.

انتهى الهامش

ص200

دستور 1876م :

ويرجع الفضل في إصدار أول دستور للدولة العثمانية (دستور1876م) إلى مدحت باشا (1) . حتى أن البعض ينسبه إليه (2) . وهذه حقيقة . فقد كان الدستور في أصله من وضع مدحت باشا نفسه . ولذلك كان يحمل طابع أفكاره الحرة التي كان أساسها الاعتقاد أن كبح جماح سلطة السلطان المطلقة أمر لا مفر منه لخير الامبراطورية وبقائها . وأن المساواة في المعاملة بين الأجناس المختلفة للدولة أمر أساسي لا مفر منه أيضا ، لضمان تأييد هذه العناصر للحكم الدستوري (3) .

أما الظروف والملابسات التي أحاطت السلطان عبد الحميد الثاني لإصدار هذا الدستور فكانت كما يلي :

أولا - الأزمة المالية المستحكمة ، حيث الخزانة العامة خاوية . والميزانية مختلة تعاني من العجز مما دفع الدولة إلى إعلان إفلاسها وما ترتب على

هامش ص200

(1) أحد عظماء رجال الدولة الأتراك في العصر الحديث . ولد في استانبول سنة1822م وتولى مناصب إدارية مختلفة إلى أن أصبح وهو في الأربعين من عمره واليا على بلغايا . ثم الدانوب ثم بغداد سنة1868م . وقد أثبت في جميع هذه المناصب أنه إداري موهوب وسياسي وطني مستنير . تولى منصب الصدر الأعظم سنة1873م . ولكنه وجد من المحال أن يجمع بين خدمة السلطان عبد العزيز والمحافظة على كرامته فاعتزل العمل الحكومي ، وانضم إلى جماعة السياسين من رجال الدولة الذين عملوا على خلع عبد العزيز ومن بعده مراد الخامس . ينظر : جورج أنطونيوس . مرجع سبق ذكره . هامش ص129 .

(2) محمود صالح منسي . مرجع سبق ذكره . ص53 .

(3) جورج أنطونيوس . مرجع سبق ذكره ص120.

انتهى الهامش

ص201

ذلك من سخط عام لدى الجماهير .

ثانيا - ضغط رجال الإصلاح العثمانيين ، وعلى رأسهم مدحت باشا ، الذين نجحوا في عزل كل من السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس . وفي تولية عبد الحميد الثاني عرش السلطنة شريطة إصدار الدستور .

ثالثا - اشتعال الحركة الوطنية في الصرب وبلغاريا التي شهدت أفظع المذابح ، مما دفع روسيا إلى التمهيد بالتدخل العسكري ضد الدولة دفاعا عن شعوب البلقان .

رابعا - تصميم الدول الأوروبية على فرض الإصلاحات على الدولة العثمانية ، حيث عقد مؤتمر الأستانة (23ديسمبر 1876م) ، يضم ممثلي الدول الكبرى لوضع المقترحات التي تكفل إصلاح الحكم في الدولة (1) .

وأمام هذه الظروف ، وتحت ضغط جماعة الإصلاح بزعامة مدحت باشا ، أصدر السلطان عبد الحميد الثاني - وكان قد عين مدحت باشا صدرا أعظم في18ديسمبر 1876م - دستور سنة1876م المسمى ب (القانون الأساسي) بعد أن عدل بعض بنوده ، في اليوم الذي عقد فيه مؤتمر الآستانة السالف الذكر . محققا بذلك هدفين اثنين ، " فقد خدع رعاياه فأحسنوا الظن بنواياه الطيبة ، كما فوت الفرصة على المؤتمر الأوروبي فلم يسمع أحد صوته " (2) ن حيث لم يعد هناك ضروره لاجتماعه ، إذ " بدت الامبراطورية العثمانية سائرة على النهج الذي سنه لها حزب الإصلاح " (3) .

هامش ص201

(1) أرنست رامزور ، مرجع سبق ذكره . ص42، 43 . بير رنوفان . تاريخ العلاقات الدولية (1815 - 1914) تعريب د. جلال يحيى ، دار المعارف القاهرة1968م . ص ص546 - 549 .

(2) جورج أنطونيوس . مرجع سبق ذكره ص129 . وانظر بيير رنوفان . مرجع سبق ذكره ص149 .

(3) رامزور . مرجع سبق ذكره ص 44 .

انتهى الهامش

ص202

وقد وضع الدستور موضع التنفيذ ، حيث جرت انتخابات عامة أسفرت عن انتخاب مجلس النواب الذي كان يسمى " مجلس المبعوثان " باعتبار أن النائب مبعون عن دائرته الانتخابية . وكان أحمد وفيق باشا أول رئيس منتخب لهذا المجلس . كما شكل مجلس الشيوخ الذي كان يسمى " مجلس الأعيان " . وهذا الأخير لم يكن بالانتخاب . وإنما بالتعيين . كما نص الدستور أيضا على المسئولية الوزارية أمام هذين المجلسين (1) .

وقد اشترك في الانتخابات أهالي الولايات العربية .وكان لبعض النواب العرب دور بارز خلال المناقشات البرلمانية ، التي كانت مناقشات جادة ومثمرة على الرغم من عدم توافر الحرية الانتخابية التي أدت إلى انتخاب بعض النواب الذين لا يتكلمون التركية ولا يعرفون نظام المناقشات البرلمانية . وقد عرضت فيها الآراء السياسية ، وانتقد الوزراء وموظفو البلاط ، بل ظهر خلالها إلى الوجود فئة معارضة (2) .

هذا ، وقد اعتقد مدحت باشا ورفاقه أن الامبراطورية العثمانية قد بدأت تنهض من كبوتها بفضل هذا الدستور الذي أنقذها من الحكم المطلق ، وحقق المساواة في المعاملة بين الرعايا على اختلاف أجناسهم ودياناتهم . الأمر الذي يساعد على خلق رأي عام مستنير يستطيع الوقوف في وجه التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية للإمبراطورية . ولكن الأحداث أثبتت أن السخط الذي كان سائدا بين الشعوب الخاضعة للدولة لم يكن مرجعه طغيان الحكم وفساده فحسب . بل كان أيضا مظهرا لنمو الوعي القومي . وذلك ما لم يفطن إليه مدحت باشا ، كما أن هذا الدستور - ولو أنه قيد سلطة السلطان إلى حد ما - فلم يكن ذلك بالقدر الذي استهدفه مدحت (3) .

هامش ص202

(1) ألبرت حوراني ، مرجع سبق ذكره 133 .

(2) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ص 98 .

(3) جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ص 41 .

انتهى الهامش

ص203

وأيا ما كان الأمر ، فإن عهد الحياة الدستورية لم يعمر طويلا ، فقد انتكس على عقبيه بعد فترة قصيرة من إعلان الدستور ، وذلك لأن السلطان عبد الحميد لم يصدر الدستور إيمانا به ، أو رغبة في حكم بلاده دستوريا ، وإنما فرضته عليه الظروف المحيطة به ، فقد أراد أن يفسد خطة التدخل الأوروبي في شؤونه . إلى جانب استمالة رعاياه الأحرار حتى يشتد ساعده ، وتتاح له الفرصة للقضاء على الحركة التقدمية ، وقد حقق الهدفين : " إذ أصبح مطمح أنظار شعبه ، وانفض المؤتمر مخفقا بعد أن تزعزع حاله" (1) .

ولذلك فإنه سرعان ما ضاق ذرعا بالحياة النيابية بعد أن استنفذت أغراضها ، واطمأن على عرشه ، لا سيما وقد قويت المعارضة في مجلس المبعوثان ، و " وتمادت في جرأتها ، وأخذت تسمي الوزراء الذين لم تثق فيهم بأسمائهم ، وتطالب بمحاكمة رئيس الوزراء السابق ، وكبار القادة الذين أثبتوا عجزهم في أثناء الحرب الأخيرة مع روسيا " (2) ، ولم تقتصر المعارضة على انتقاد واتهام الحكومة والوزارة بل تعدتها إلى مهاجمة السلطان نفسه (3) .

وجدير بالذكر ، أن كثيرا من زعماء المعارضة كانوا من العرب ، رغم أن معارضتهم لم تكن قائمة على أساس الدفاع عن حقوق العرب ، ذلك أنه لم يكن قد ظهر بعد إلى الوجود ما يسمى بالقضية العربية ، بل كانت معارضتهم دفاعا عن مصلحة الدولة العثمانية (4) .

وإزاء هذا الموقف الجديد - تحقيق عبد الحميد لأهدافه من إصدار الدستور ، واشتداد المعارضة البرلمانية - عقد السلطان عبد الحميد العزم

هامش ص203

(1) المرجع السابق ، نفس المكان . وانظر رنوفان ، مرجع سبق ذكره ص549 .

(2) توفيق برو ، مرجع سبق ذكره ص 30 .

(3) ألبرت حوراني ، مرجع سبق ذكره ص132 .

(4) المرجع السابق ، نفس المكان .

انتهى الهامش

ص204

على تعطيل الدستور والإطاحة بالحياة النيابية . ولكن مدحت باشا كان هو العقبة الوحيدة الهامة الباقية في طريقه فعزله فجأة ودون ضجة في 5فبراير 1877م . ثم نفاه إلى أوروبا . لأن عبد الحميد الثاني لم يكن مستعدا للاحتفاظ بالرجل الذي خلع سلطانين (عبد العزيز ومراد الخامس) .

وبعد مدة ، سمح لمدحت باشا بالعودة إلى البلاد ، حيث عينه واليا على سوريا ثم أزمير ، إلا أنه أوقفه بعد ذلك . متهما إياه بقتل السلطان عبد العزيز الذي انتحر في الواقع بعد خلعه بقليل ، فحكم على مدحت بالإعدام ، ثم خفف هذا الحكم - نتيجة تدخل السفراء الأجانب - إلى النفي في الحجاز . حيث قتل هناك بعد مدة شر قتله ، فمات بموته أول حركة دستورية (2) .

والواقع أن بعض الدول الأوروبية قد أسهمت بطريق غير مباشر في الانقلاب الحميدي الرجعي . ذلك أنه بعد أن افتتح السلطان عبد الحميد البرلمان الجديد في اوائل شهر مارس1877م ، وألقى خطاب العرش الذي كان يفيض بالفصاحة (3) ، أعلنت روسيا الحرب على تركيا في 24أبريل ، مبررة ذلك بأنها فقدت الأمل في الحصول على الإصلاحات المنشودة بالطرق السلمية . والواقع أنها كانت تتحين الفرصة دائما لتحقيق مطامعها التاريخية في القسطنطينية التي تقدمت الجيوش الروسية حتى وصلت إلى مشارفها . حينئذ أقدم السلطان عبد الحميد على تعطيل الدستور . فكانت " الحرب الروسية نعمة من الله على السلطان عبد الحميد ، لأنها يسرت له عذر تعطيل البرلمان (4) إلى أجل غير مسمى . أي أنه لم يلغ . وإنما لم يدع إلى الاجتماع بعد ذلك ، فظل الدستور معلقا . والحياة الدستورية معطلة مدة تزيد على ثلاثين عاما حتى سنة1908م ،

هامش ص204

(1) راموز ، مرجع سبق ذكره ، ص44 .

(2) ألبرت حوراني ، مرجع سبق ذكره ، ص134 . ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ص98 .

(2) جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ص98 .

(4) رامزو ، مرجع سبق ذكره ص44 .

انتهى الهامش

ص205

وتفرق النواب عائدين إلى بلادهم ، ونفي عشرة من زعماء المعارضة إلى مناطق نائية (1) .

وجدير بالذكر ، أن هذا العمل من عبد الحميد لم ينتج عنه أي رد فعل في الامبراطورية . ذلك أن الحياة الدستورية لم تكن مدعومة برأي عام واع ، ولا بطبقة قوية من المستنيرين (2) ، بل كانت ثمار جهود جماعة الإصلاح ، وعلى رأسهم مدحت باشا - الذي عصف السلطان بحريته قبل عصفه بالدستور كما رأينا .

على أن الحرب التركية - الروسية قد انتهت بوصول الجيوش الروسية إلى ضواحي الآستانة . وفرض معاهدة سان ستيفانو (مارس 1878م) بشروطها القاسية على السلطان ، هذه الشروط التي نجحت إنجلترا في حمل روسيا على تعديلها في معاهدة برلين (13يوليو 1878م) ، التي كان لها أثر كبير على وضع الولايات الأوروبية العثمانية ، ولكنها من جهة لها أثر كبير على وضع الولايات الأوروبية العثمانية ، ولكنها من جهة أخرى - وإن كانت لم تمس الحدود الإقليمية للولايات العربية إلا أنها - كانت بداية لتخلي الدول الأوروبية - وخاصة إنجلترا - عن سياستها التقليدية المتمثلة في المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية ، إذ بمقتضى

هذه المعاهدة حصلت إنجلترا على جزيرة قبرص في مقابل السماح لفرنسا باحتلال تونس في أقرب فرصة ممكنة (3) ، ثم توالت بعد ذلك عمليات الانقضاض على الولايات العربية الواحدة تلو الأخرى .

ولعل أهم أثر مباشر للحرب التركية / الروسية (1877 - 1878م) على البلاد العربية ، هو ازدياد السخط ، والتذمر الشامل بسبب إرسال القوات العربية للقتال في ميدان بعيد عن بلادهم وفي أحوال بالغة المشقة ، وضد

هامش ص205

(1) توفيق علي برو ، مرجع سبق ذكره ص32 .

(2) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ص98 .

(3) محمد فؤاد شكري ، مرجع سبق ذكره ص156 - 158 .

انتهى الهامش

ص206

عدو لا يهمهم في قليل أو كثير (1) .

وهكذا ، كان نجاح الحياة الدستورية قصير الأجل ، فقد أجهضت قبل أن تؤتي ثمارها ، وذلك لأسباب داخلية وخارجية ، ومنها :

1- محاولة مدحت باشا أن يسن نظاما دستوريا للإمبراطورية دون أن تكون هناك تقاليد دستورية أو تجربة نيابية سابقة ، ولذلك لم يحدث أي رد فعل إثر عصف عبد الحميد بالدستور ، وفض مجلس المبعوثان لعدم وجود رأي عام واع يدعم الحياة الدستورية .

2- كما أن مدحت باشا حاول أن يقيم دستورا واحدا لوحدة سياسية كبيرة ، أقاليمها غير متجانسة ، بسبب تنوع ثقافتها .

3- هذا بالإضافة إلى نشاط مؤامرات الدول الأجنبية ، والعناصر الرجعية للقضاء على الحكم الدستوري (2) .

أما السلطان عبد الحميد فقد أصبح بعد تعطيل الدستور وإبرام معاهدة برلين يشعر أنه قوي لدرجة تمكنه من الاستمرار في طريق الحكم المطلق (3) ، فبدأ عهدا أطلق عليه بعض المؤرخين والكتاب عهد الاستبداد الحميدي الذي استمر حتى سنة 1908م .

- مظاهر الحكم المطلق في العصر الحميدي :

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الحكم المطلق ومظاهره المختلفة في عصر السلطان عبد الحميد الذي تسابق المؤرخون والكتاب في الكتابة عنه بحماس ملحوظ حتى أطلقوا على عصره عصر الاستبداد الحميدي - أن نشير إلى حقيقة مهمة نسيها هؤلاء الكتاب أو تناسوها ، وهي أن

هامش ص206

(1) جروج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ص156 - 158 .

(2) محمود صالح منسي ، مرجع سبق ذكره ص55 .

(3) أونست أ. رامزور ، مرجع سبق ذكره ص44 .

انتهى الهامش

ص207

الحكم المطلق الذي سار عليه عبد الحميد لم يكن من اختراعه ولم يستحدث في عهده ، وإنما كان نظاما سارت عليه الحكومات الشرقية بصفة عامة ، تلك الحكومات التي اتصلت أنظمة الحكم فيها بالعصور الوسطى . كما سارت عليه الدولة العثمانية طوال عهدها حيث إن أنظمة الحكم فيها راسخة منذ عهد السلاطين الأول الذين أسسوا الدولة العثمانية ووضعوا قوانينها وتشريعاتها .

أما ظاهرة الحكم المطلق في عهد السلطان عبد الحميد الذي أخذ يشتد ويقوى حتى تحول آخر الآمر إلى حكم استبدادي قائم على الجاسوسية والضغط والإرهاب كما يصفه بعض المؤرخين فيرجع ذلك إلى أن السلطان عبد الحميد قد مارس هذا الأسلوب في الحكم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وفي وقت ظهرت فيه الشعارات الديمقراطية ووضعت الدساتير لتقرير حقوق الشعوب حتى عرف القرن التاسع عشر - في اصطلاح المؤرخين - بعصر القوميات .

على أننا نلمس من كتابات المؤرخين تحاملا ملحوظا على السلطان عبد الحميد وحكمه ، وكأنه كان ظاهرة فريدة في عصره ، وقد نسي أو تناسى هؤلاء المؤرخون أنه كان يوجد في عصر السلطان عبد الحميد حكام لا يقلون عنه استبداد وإن كانت ظروفهم السياسية الداخلية والخارجية أفضل من ظروفه : فهناك شاه إيران " ناصر الدين " كان يسير على سياسة الحكم المطلق ، وقد طرد الأفغاني من بلاده شر طردة حينما طالبه بالحكم بالشورى ، وهناك قيصر روسيا الذي كان في قمة الاستبداد .

نعم ، كان السلطان عبد الحميد مستبدا ، لكن ظروف عصره وظروف دولته قد أملت عليه انتهاج هذه السياسة ، فقد لخص هو نفسه الحالة في دولته قائلا : " في هذه البلاد ، بلاد الدسائس والمؤامرات .. كيف يستطيع

الإنسان أن يكافح وأن يناضل دوما ضد كل إنسان ؟ " (1) . فقد كانت حكومته شر حكومات الأرض رشوة وخيانة وتجسس وعمالة لشتى دول أوربا . كان بلاطه وحكومته يعجان بالعملاء لقيصر روسيا وحكومة فرنسا وحشد هائل من عملاء بريطانيا ، بل وإيطاليا والنمسا وألمانيا . وكان في جيشه وحاشيته وحكومته أكثر من عميل للصهيونية ، بل ويهود يخفون ديانتهم للتآمر ضده ، وكانت قصوره تعج بالخصيان من عملاء مخابرات الدول الأوروبية الذين زحفوا مضحين حتى برجولتهم ليتجسسوا على السلطان حتى يمهدوا الطريق للجيوش والأساطيل لتقتطع أجزاء من دولته ، ثم تحولها إلى مستعمرات لهم (2) .

يقول السلطان عبد الحميد : " كان يدهشني دائما أن أعلم بأن كثيرا من الأوروبيين كانوا يتوسطون للحصول على الخدمة ولو حراسا للحريم ، خصوصا وأني تناولت في أسبوع واحد ثلاث رسائل من ثلاثة كانوا على شيء كبير من الأدب والتهذيب ... يريدون هذه الخدمة المستهجنة ... كان أحدهم موسيقيا في باريس ... والثاني كيميائيا في ألمانيا ... والثالث تاجرا في سكسونيا ... وماذا أقول بعد ذلك عن انحطاط الأخلاق في أوربا ... عندما أرى كثيرين منهم لا يريدون التخلي عن دينهم فحسب ، بل يرضون بفقدان الرجولة في سبيل خدمة الحريم ... حين أن هذه الخدمة تستلزم أن يكونوا خصيانا " (3) .

فهل كان السلطان عبد الحميد الذي عرف عنه الدهاء والحنكة والسياسة والذي وصفه الأفغاني بقوله : " رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية " (4) - هل كان هذا السلطان يجهل أن

هامش ص208

(1) محمد جلال كشف ، القومية الغزو والفكري ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط2، ص211، نور الدين زين ، مرجع سبق ذكره ص56 .

(2) المرجع السابق ، هامش ص ص210 - 211 .

(4) محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .

انتهى الهامش

هؤلاء مجرد عملاء للدول الأجنبية التي تؤمن بنفوذ النساء في القصر السلطاني ؟ ثم أيعاب على سلطان يواجه بمثل هذا الطوفان من الجواسيس أن يقيم هو بدوره نظاما مضادا للتجسس ؟ ومع ذلك فشكيب أرسلان يقرر أنه ليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقارير الجواسيس كما هو شائع ، بل كان يرمي أكثرها ، ولا يصدق ما فيها (1)

أما سبب تحامل المؤرخين والكتاب على السلطان عبد الحميد ، فبعضهم لحاجة في نفسه ، والبعض الآخر انخدع بزيف الدعاية التي روج لها العرب والصهاينة بالتحالف مع جماعة الاتحاد والترقي - الذين كان بين صفوفهم ضباط يهود تظاهروا بالإسلام ثم أعلنوا يهوديتهم بعد نجاح المؤامرة وخلع السلطان (2) ، فقد أكثر هؤلاء من اختلاق الأخبار والشائعات عن كثرة ما أصابهم من ظلم عبد الحميد ، ألوف القتلي والغرقى في البسفور . وعشرات الألوف ازدحمت بهم سجون المملكة حتى اعتقد الناس من كثرة التكرار والترداد لهذه الشائعات في جو خانق من إرهاب " السلطان الأحمر " كما لقبوه (3) . كما لفقوا له تاريخا أسود ، مليئا بالاختلافات والافتراءات ، ودرسوه في المدارس والجامعات ، وشحنوا به الكتب المدرسية والصحف والمجلات ، فتناقلته الأقلام ، وسودت به صفحات الكتب ، وأصبح تاريخا يقرأ .

وما كل ذلك إلا لأن السلطان عبد الحميد رفض تسليم فلسطين للصهاينة (4) . فقرر الصهاينة خلعه بالتآمر مع جماعة الاتحاد والترقي

هامش ص209

القاهرة1968ص245 . (نقلا عن خاطرات جمال الدين الأفغاني) .

(1) محمد جلال كشك . مرجع سبق ذكره ، هامش ص 211 .

(2) المرجع السابق ص225 .

(3) مجلة العربي ، العدد169شوال1392هـ / ديسمبر1972م ص153 . مقال بقلم سعيد الأفغاني تحت عنوان : " سبب خلع السلطان عبد الحميد " .

(4) كان السلطان عبد الحميد قد أصدر فرمان في سنة1888م بمنع الهجرة الجماعية

انتهى الهامش

ص210

يقول السلطان عبد الحميد : '' إن هؤلاء الإتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية أيضا ، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي : إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا – فضلا عن (150) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبا ، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي أيضا ، وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير وحمدت المولى و أحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين " (1) .

وهكذا كانت الظروف الداخلية والخارجية وظروف العصر التي أملت على السلطان عبدالحميد سياسته ، وهذا ليس دفاعا عن مظاهر الحكم المطلق التي اتسم بها العصر الحميدي ، وانا هو تقرير للواقع من جهة ، ودافع لنا لدراسة الظروف التي مارس فيها عبدالحميد استبداده دراسة

هامش ص210

اليهودية إلى أراضي الدولة العثمانية ومنها فلسطين طبعا (محمد جلال كشك . مرجع سبق ذكره هامش ص ص224 – 225) . ثم أصدر فرمانا آخر سنة1900م يحدد إقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر (د . حسن صبري الخولي . سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين . مجلدين . دار المعارف . القاهرة1972 / . مج1ص 83 .

من رسالة السلطان عبدالحميد إلى الشيخ محمود أبو الشامات التي أرسلها له بعد خلعه وهو منفي بسلانيك ، وهي وثيقة بخط يد السلطان عبد الحميد ، مكتوبة باللغة التركية أرسلها إلى الشيخ " أبو الشامات " شيخ الطريقة الشاذلية البشرطية بدمشق ، وكان هذا

الشيخ قد زار أحد مريديه في استانبول وهو راغب رضا بك مدير القصر السلطاني فعلم بوجوده عبدالحميد واستقبله وأعجب به وأخذ عليه العهد فصار السلطان من مريدي الشيخ المذكور وبعد خلع السلطان أرسل لشيخه هذه الرسالة يشرح له فيها سبب خلعه وظلت الرسالة في طي الكتمان زمنا طويلا ثم ترجمها من التركية إلى العربية الشخ أحمد القاسمي مدير أوقاف الجمهورية السورية سابقا ثم قام الأستاذ سعيد الأفغاني بتصويرها ونشرها في مجلة العربي العدد169شوال 1392 / ديسمبر 1972م ص ص155 - 156فذيل بها مقاله عن سبب خلع السلطان عبدالحميد .

انتهى هامش ص210

ص 211

موضوعية من جهة أخرى .

فبعد أن عطل عبدالجميد الدستور ، وعصف بمجلس المبعوثان ، سارت سياسته في اتجاهات معينة تحت ضغط ظروف الدولة الخارجية والداخلية ، فقد كان اقتراب الجيوش الروسية من مشارف العاصمة في الحرب السابقة قد أفقده الثقة في قوته العسكرية ، كما أن معاهدة برلين (1878م) رغم تدخل إنجلترا وكبحها جماح روسيا – جعلته يدرك أم أمور الدولة ومقدراتها قد أصبحت رهناً بمشيئة هذه الدول ، هذا بالإضافة إلى الحالة المالية السيئة التي وصلت إليها الدولة .

ومن ثم ، وإزاء هذه الظروف ، لجأ إلى الديون الأجنبية التي خصص جزءاً كبيرا منها لإعادة تنظيم جيشه ، كما أبدى إهنماماً خاصاً بالكليات العسكرية دون نواحي التعليم الأخرى (1) ، كما أنه فرض على الشعب بالتدريج حكما فرديا استبداديا على جميع العناصر والطوائف (2) .

ويبدو أن اتجاه عبدالجميد إلى هذا الحكم المطلق إنما يرجع إلى خوفه على عرشه وعلى حياته شخصيا ، فقد تولى العرش بعد خلع السلطان مراد الخامس والسلطان عبدالعزيز الذي أثيرت الشكوك حول طريقة موته ، حيث يذهب البعض إلى انتحاره ، بينما يرى آخرون أنه كان نتيجة قتل واغتيال ، ومما يؤيد هذا الشعور لدى عبدالجميد أنه عندما اغتيل ملك الصرب منعت الرقابة جميع الصحف عن ذكر الإغتيال ، واجبيرتها على نشر الوفاة على أنها طبيعية نتيجة مرض ، كما أرسلت برقيات عاجلة إلى جميع الولايات لمنع الجرائد الأجنبية – التي كانت نشرت أخبار الإغتيال بطبيعة الحال – حتى لا يخطر على بال أحد من رعايا الدولة امكان إعتيال ملك من الملوك (3) ، كما يرجع خوفه من انفصال بعض

هامش ص 211

جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص135 – 136 .

حسين لبيب ، تاريخ المسألة الشرقية ، القاهرة1921م ، ص85 .

ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص99 – 100 .

انتهى هامش ص211

ص212

الولايات عن جسم الدولة نتيجة الضغط الخارجي الذي تمارسه الدول الأوروبية ، هذا إلى جانب التخوف من قيام الثورات الداخلية (1) .

من هذه العوامل ، يتضح لنا أن عبدالحميد كان يعاني من عقدة الخوف والشديد على حياته ، حتى أنه كان يتصور دائما أن هناك من يتربص لاغتياله فتخامره الوساوس والشكوك في المحيطين به ، فقد قال ذات يوم (30أكتوبر سنة1878م) للملحق العسكري في السفارة الفرنسية في الآستانة : " في هذه البلاد ، بلاد الدسائس والمؤامرات ... كيف بستطيع الانسان أن يكافح وأن يناضل دوما وضد كل إنسان ؟ " (2) .

ومن ثم فقد كان عبدالحميد يرى أن بقاء حكمه متوقف على شدة تمسكه بالحكم المطلق ، وتشديد قبضته على أطراف الدولة (3) ، ولا سيما على البلاد العربية ؛ حيث زادت عدم ثقته بالعرب ، وتفاقمت الريبة بينه وبينهم ، خاصة أثر ظهور منشورات جمعية بيروت السرية (4) زمن ولاية مدحت باشا على سوريا ، مما جعله يفرض على بلادهم مركزية ضيقة تمكن لقبضته الحديدية أن تسيطر عليهم ، فسار في سياسة ربط بلادهم بشبكة من الخطوط البرقية والحديدية ليسهل عليه إرسال القوات الحربية لقمع ما قد يقع من ثورات وانتفاضات (5) .

هامش ص212

زين نور الدين ، مرجع سبق ذكره ص55 .

المرجع السابق ، ص56 .

توفيق علي برو ، مرجع سبق ذكره ، ص49 .

سوف نتحدث عن نشاطها بالتفصيل فيما بعد .

زين نور الدين ، مرجع سبق ذكره ، ص56 ، زيلاحظ أنه لم يثبت أن السلطان عبدالحميد قد استخدم تلك الخطوط الحديدية التي أنشئت في عهده في إرسال قوات أو جيوش ، كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن سكة حديد الحجاز

أنتهى هامش ص212

ص213

أسس نظام الحكم الحميدي :

ـما عن الوسائل والأسس التي قامت عليها سياسة عيدالحميد الاستبدادية فتتجلى فيما يأتي :

أولا – نظام التجسس .

فقد أوجد السلطان عبدالحميد شبكة قوية واسعة من الجاسوسية التي قامت بنشاط مزعج للغاية إلى حد " جعل كل فرد جاسوسا على جاره " (1) . وقد تفنن هؤلاء الجواسيس في عملهم ، وكثر عددهم ، حتى أن كل واحد من كبار رجال المابين كان رئيسا لجماعة من جماعاتهم (2) ، وقد قويت شوكتهم حتى أصبحوا " يؤلفون طبقة حاكمة قوية من الأوباش الفاسدين " (3) الذين لم يسلم من أذاهم مهما كان برئيا .

وكان هؤلاء الجواسيس يعرفون باسم " الخفية " لأنهم يتجسسون على الناس خفية . وكانت تقاريرهم كافية لاعتقال الكثير من الأشخاص والزج بهم في السجون ليشهدوا فيها أشد أنواع التعذيب ، وكثيرا ما كان ستبع ذلك النفي ذلك النفي خارج البلاد .

وكانت طريقتهم في التجسس هي الاندساس بين الناس في الشوارع والميادين والمقاهي والملاهي والمنتزهات . والتجول في الشوارع المحيطة بالمدارس العالية ، وبقصور الأمراء وبيوت بعض الرجال ، ثم يقدمون التقارير السرية عما يسمعونه أو يلاحظونه من أقوال و أفعال (4) .

هامش ص213

رامزور . مرجع سبق ذكره . ص47 .

ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره . ص100 .

جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص135 .

ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ص100 – 101 .

انتهى هامش ص213

ص214

وإلى جانب التشكيلات الجاسوسسية التابعة للمابين أو السلطان رأسا ، كان يوجد في العاصمة إدارة تعرف باسم " الضبطية " يقوم على رأسها وزير أو ناظر ، وكانت تقوم مقام ما يعرف اليوم بإدارة الأمن العام الداخلي ، أو المخابرات العامة ، وكان لها موظفون سريون وعلنيون وكان السريون منهم يقومون بأعمال التجسس وكتابة التقارير في حق من يشتبهون في قيامهم بنشاط ضد أمن الدولة الداخلي أو الخارجي ، وغالباً ما كانت تلك التقارير كاذبة (1) .

ثانيا – الرقابة على الصحف والمطبوعات .
فكما أتاحت الحرب الروسية الفرصة لعبدالحميد تعطيل الدستور ، والعصف بمجلس المبعوثان ، أتاحت له أيضا فرصة تقييد الصحافة ، وكتم أنفاسها ، فأصدر أمرا بتقييد حريتها وإخضاعها لرقابة صارمة ودقيقة " حتى أصبحت جسماً بلا روح " (2) ، فما كانت تستطيع أي جريدة " أن تنشر كلمة واحدة ولو كانت في باب الإعلانات ، دون أن تحصل على موافقة الرقيب الدائم " (3) ، وأصبحت مهمة الصحافة مقصورة على نشر كل ما يطيب للسلطان نشره من ألفاظ التعظيم والتفخيم والتمجيد في مدح عدالته الموهوبة ، وذلك على الرغم من استبداده وتراجع إدارته (4) .

ولم يكتف السلطان بذلك ، بل فرض حظرا دقيقا على دخول الصحف العربية وغير العربية التي تصدر في مصر وأوروبا وأمريكا إلى بلاد الدولة لانتقادها الحكم الاستبدادي الذي تسير عليه ، أو لنشرها

هامش ص214

محمد عزه دروزة ، مرجع سبق ذكره . 195 – 196 .

شمس الدين الرفاعي ، دراسات صحفية ، تاريخ الصحافة السورية ، الصحافة السورية في العهد العثماني (1800 – 1918) . ج 1 . دار المعارف . القاهرة .1969م ، ص 118 .

ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص101 .

شمس الدين الرفاعي ، مرجع سبق ذكره ، ص118 – 119 .

انتهى هامش ص214

ص215

أخباراً ومقالات من شأنها إثارة وعي الجماهيري ، وقد ذكر الأستاذ محمد عزه دروزه أنه – في أثناء عمله في دائرة بريد نابلس قبل إعلان دستور 1908م – كان يتلقى يوميا نشرات برقية بأسماء الصحف والمجلات العربية وغير العربية التي يجب منع توزيعها (1) .

كما شملت الرقابة أيضاً الكتب وكل أنواع المطبوعات ، فكان يتحتم على كل مؤلف أن يرسل مسودات كتابه إلى لجنة تسمى " لجنة تدقيق المؤلفات " ليحصل منها على رخصة خطية لما يريد طبعه ، وكثيراً ما كانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق أشهرا عدة ، إن لم تناهز السنة الكاملة ، وكان المراقبون والمدققون يغالون في البحث والتدقيق مغالاة شديدة ، لأنهم كانوا يحسبون حساباً لأبعد الاحتمالات وأغرب التأويلات ، بل كانت هذه الرقابة تمتد إلى ما بعد الطبع حتى لا تترك فرصة لأدنى اختلاف بين النص المرخص ، زالنص المطبوع ، وكثيراً ما عطلت جرائد وصودرت كتب لسهو مطبعي بسيط ، لا يتعدى سقوط حرف واحد ، أو زيادة حرف واحد في كلمة واحدة ، وذلك لأن المدققين توهموا أن ذلك قد يفسح مجالا لتأويلات سيئة (2) .

أما عن الأثار المترتبة على هذه الجهود والاتجاهات الاستبدادية ، فقد بدت واضحة جلية في جهاز الدولة العام وماليتها ؛ فقد فسد حهاز الدولة، واصيب بالخلل ، حيث لم تعد الاستقامة أو الكفاءة سبيلا إلى الترقي في الوظائف ، بل أصبح التملق والنفاق والمهارة في التجسس وفي جمع الاخبار أو تلفيقها هو السبيل إلى الوصول إلى المناصب ، وبذلك انتقلت معظم المراكز الرئيسية في عاصمة الدولةإلى أيدي المرتشين والجشعين ، فأصبحت بعض الدوائر والوزارات أسواقاً سوداء تباع وتشترى فيها الوظائف والترب والأوسمة على أيدي السماسرة والوسطاء .

هامش ص215

محمد عزه دروزه ، مرجع سبق ذكره ، ص214 .

ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص101 .

انتهى هامش ص215

ص216

كما ساءت حالة البلاد المالية نتيجة نفقات القصر ونفقات جيش العاصمة الخاص بحمايتها ، ونفقات شبكة الجاسوسية التي انتشرت بشكل مخيف ، إلى جانب جيوش الموظفين الذين عينوا بدون حاجة إليهم ، غما مكافأة على خدماتهم التجسسية للسلطان ، أو مقابل رشاوي للوزراء أو رجال القصر ، أو بواسكة السماسرة السريين ، الأمر الذي أرهق ميزانية الدولة ، وبالتالي ميزانية الولايات التي كانت تضطر ألى تقديم مرتبات العاصمة أي شئ آخر (1) ، وهكذا أدى الاستبداد الحميدي إلى استشراء الفساد في جميع المور والميادين .

ثالثاً – ضرب القوميات والطوائف بعضها ببعض :

من الوسائل التي لجأ إليها السلطان عبدالحميد لفرض مركزيته واستبداده على أطراف الدولة ، تعمده أن يضرب القوميات والطوائف بعضها ببعض ، وأن يستخدم بعض العناصر ضد بعض الآخر ، فنراه يستعين بالجنود العرب في قمع ثورة الألبان ، وإخضاع الأكراد ، واتبع السلوب نفسه في ضرب العرب بعضهم ببعض ، إذ كان يؤيد فئة ضد أخرى ، كما فعل أثناء الصراع بين ابن سعود أمير نجد وابن الرشيد أمير حائل ، فكان عبدالحميد يعين الثاني على الأول إلى أن كانت الموقعة الأخيرة سنة1906 التي دارت بين الأميرين وقتل فيها ابن الرشيد ، واحتل خصمه بلاده عدا منطقة حائل (2) .

رابعاً – استغلال ما بين الدول الكبرى من تنافس :

يرى بعض الباحثين أن السلطان عبدالحميد – بعد أن وضع أسس سياسته المركزية – اعتمد في تدعيم هذه الأسس وتلك الساسية على

هامش ص216

المرجع السابق ، ص101 –103؛ وينظر ؛ محمد عزه دزورة ، مرجع سابق ، ص209 –210 .

توفيق على برو ، مرجع سبق ذكره ، ص32 – 33 .

انتهى هامش ص216

ص217

مهارته في استغلال ما بين الدول الكبرى من خصومات وتنافس (1) ، ولكن الحقيقة ، أن هذه المصالح المتعارصة للدول الأوروبية كانت أمراً واقعاً ، فلم تكن بريطانيا بحاجة إلى أن يستثيرها عبدالحميد بوجه المطامح الروسية في المضايق (2) ، وإنما كان الأمر يتوقف على استراتيجية كل دولة من هذه الدول الكبرى وخططها االسياسية تجاه الدولة العثمانية .

وعلى سبيل المثال : لقد التزمت الدول الأوروبية – وخاصة إنجلترا – خلال القرن التاسع عشر إلى سنة1878م سياسة معينة تجاه الدولة العثمانية ، وقد تمثلت هذه السياسة في صرورة المحافظة على ممتلكات تلك الدولة من التجزؤ والوقوع تحت سيطرة أية قوة أجنبية ، ولكننا نجد أن هذه الول نفسها تخلت عن هذه السياستة منذ مؤتمر برلين (1878م) الذي عقد في عهد السلطان عبدالحميد ، الأمر الذي نتج عنه أن أصبحت ممتلكلت الدولة العثمانية ، تنسلخ الولاية تلو الأخرى لتقع في قبضة الدول الأوروبية ، كل ذلك تم بتنسيق سياسي أوروبي ، فهل استطاع السلطان عبدالحميد بمهارته السياسية أن يمنع ذلك ؟

سياسة السلطان عبدالحميد الإسلامية .

كانت سياسة السلطان عبدالحميد الإسلامية وما ارتبط بها من محاولة التودد والتقرب من العرب ، من أهم الوسائل التي لجأ إليها السلطان عبدالحميد لتأكيد سياسته في الداخل ، وتقوية مركزه في مواجهة الدول الأوروبية في الخارج ، ولأهمية هذه الوسيلة سنلقي الضوء عليها بشئ من التفصيل .

هامش ص217

جورج انطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص135 .

راكزور ، مرجع سبق ذكره ، ص 47 .

انتهى هامش ص217

ص218

أهداف سياسة عبدالحميد الإسلامية :

إحياء الخلافة الإسلامية :

تمثلت سياسة عبدالحميد الإسلامية في إحياء الخلافة العثمانية – إذ لم يكن عبدالحميد أول من وضع الخلافة موضع التنفيذ في معترك السياسة الداخلية والخارجية ، فقد نص في الدستور (القانون الأساسي) على أن جلالة السلطان بوصفه خليفة أعلى هو حامي الدين الإسلامي (1) - تحت شعار الجامعة الإسلامية وما ارتبط بها ، من إهتمامه بشؤن المسلمين ، وفي مقدمتها فريضة الحج ، وتسهيل السبل لأدائها ، بأنشاء سكة حديد الحجاز ، وقد رمى من وراء اتباعه لهذه السياسة عدة أهداف : تمثلت في محاولته تقوية نفوذه ، وبسط سيطرته كسلطان للدولة العثمانية بإدعائه الحقوق والامتيازات كخليفة للمسلمين (2) : فيتسنى له القضاء على الحركات الدستورية التي تزعمها الأحرار الأتراك – حركة الاتحاد والترقي بزعامة مدحت باشا – الذين طالبوا بتعديل نظام الحكم المطلق ، ووضع دستور ديموقراطي على غرار دساتير الدول الأوروبية (3) ، والقضاء على الحركات الانفصالية في البلاد العربية الخاضعة له على أساس أن الخلافة كنظام يعله مسؤلا أمام الله لا الشعب كما يرى أصحاب الدعوات الدستورية (4) ، إذ من شأن الخلافة أن تضفي على صاحبها نوعاً من القداسة ، تجعله في مأمن من النقد والتجريح (5) ، كما قصد أيضاً كسب ولاء العناصر الإسلامية في الدولة العثمانية ، التي كانت أكثر قدرة على التأثير في أمور الدولة ، وعلى

هامش ص218

مادة (4) من القانون الأساسي المنشور في كتاب البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري في الصفحات (257 -278) .

جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص137 .

عبدالعزيز الشناوي أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، هامش591.

محمد أنيس، مرجع سبق ذكره ، ص 116 .

عبدالعزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص591 .

انتهى هامش ص218

ص219

كسب التأييد للخليفة في آسيا وأفريقيا ، وخاصة العرب ، ففيهم بعث الرسول ، وبلغتهم نزل القرآن (1) ، هذا في الداخل .

أما في الخارج ، فقد استهدفت سياسة عبدالحميد الإسلامية (الجامعة الإسلامية) استثارة الحماس الديني لدى ملايين المسلمين من رعايا بريطانيا في الهند ، ورعايا فرنسا في الشمال الأفريقي ، ةرعايا روسيا في القوقاز وتركستان ، وكسب عطفهم وتأييدهم ، الأمر الذي كان يعتبره عبدالحميد ورقة رابحة في يده ،يمكن استخدامها كوسيلة لكبح جماح الدول الأوروبية ، والضغط عليها ،

مهدداً بإثارة هذه الجماعات الإسلامية عليها في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تفقد أقاليمها في البلقان الواحد تلو آلآخر بمساعدة تلك القوى الأوروبية (2) .

الجامعة الإسلامية بين السلطان عبدالحميد و الأفغاني (3) :

لم تكن اعتداءات الدول الأوروبية المتكررة والمستمرة على أملاك الدولة العثمانية ، وتأييدها للحركات القومية وللثورات الداخلية الناشبة في البلقان وغيرها ، وظهور حركات الأحرار الأتراك بزعامة - أبو الدستور – مدحت باشا ، ليست وحدها من شجعت السلطان عبدالحميد على تبني نظام الحكم المطلق ، وانما كان هناك عامل له أهميته استغله عبدالحميد أبرع استغلال ، ألا وهو ظهور

هامش ص219

ألبرت حوراني ، مرجع سبق ذكره . ص135 .

جورج أنطنيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص138؛ ألبرت حوراني ، مرجع سبق ذكره ، ص135؛ محمود صالح منسي ، مرجع سبق ذكره ، ص 56 .

سوف نتحدث عن فلسفة الافغاني في الجامعة الإسلامية في الفصل الثاني .

انتهى هامش ص219

ص220

حركة الجامعة الإسلامية التي كان يتزعمها السيد / جمال الدين الأفغاني.

وكان الهدف الواضح من حركة الجامعة الإسلامية: توحيد العالم الإسلامي في كتلة واحدة، لمناهضة ضغط القوى الأوروبية المتوثبة ضده، فكان من الطبيعي أن تلتف هذه الدعوة حول الخلافة العثمانية باعتبارها أقوى الدول الإسلامية في ذلك الوقت(1).

والواقع، إن العالم الإسلامي كان يموج منذ أواخر القرن الثامن عشر بحركات دينية قوية، جاءت كرد فعل لحركة الاستغراب في الشرق الأدنى، التي كانت تعني اتجاها علمانيا في المجتمعات الإسلامية، وكرد فعل لاعتداءات الدول الأوروبية على بعض أجزاء العالم الإسلامي. وكانت بعض هذه الحركات الدينية تتخذ موقفا سلبيا من الاستغراب، وتنادي بالرجوع إلى الأصول الإسلامية الأولى. وهذه هي الحركات السلفية كالوهابية في شبه جزيرة العرب، والسنوسية في الشمال الإفريقي، والمهدية في السودان، وهذه الحركات على الرغم من فشلها سياسيا، إلا أنها تركت آثارًا بعيدة المدى في حياة هذه المجتمعات من الناحية الدينية وقد توجت هذه الحركات حركة الجامعة الإسلامية التي كانت بلا شك أكثرها إدراكا لمشكلات العالم الإسلامي، فقد أخرجت مدرسة المجددين في الإسلام في العصر الحديث، أمثال: السيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده(2).

كانت حركة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها الأفغاني امتدادًا للحركتين الوهابية والسنوسية من حيث أنها تهدف إلى تخليص الإسلام من الشوائب التي علقت به، إلا أنها كانت في ذات الوقت، ونظرا لأنه على عهد جمال الدين كان النفوذ الاستعماري الأوربي قد اجتاح الكثير من

هامش ص220

(1) محمد أنيس وزميله، مرجع سبق ذكره، ص21.

(2) محمد أنيس، مرجع سبق ذكره، ص238 – 239 .

انتهى الهامش

ص221

بلدان العالم الإسلامي فقد حاول الأفغاني إيقاف هذا الزحف عن طريق القوى المنظمة للحكومة الإسلامية الموجودة، وإدخال الأفكار والأنظمة الغربية التي كانت سر قوة الغرب، ثم توحيد صفوف المسلمين للوقوف في وجه المد الاستعماري الغربي، أي بينما كانت الحركات السلفية تتجه في نشاطها إلى محاربة النفوذ العثماني، كانت حركة الجامعة الإسلامية تدعو إلى ضرورة وحدة صفوف المسلمين شعوبا وحكومات وراء الدولة العثمانية، ومن ثم فقد كان الأفغاني يعمل – إلى جانب دعوته الإصلاحية ضد المساوئ الاجتماعية والدينية التي دخلت المجتمعات الإسلامية – على صد النفوذ الغربي خاصة وأنه كان يرجع حركة الاستعمار الأوروبي إلى أساس ديني ويعتبرها حركة نصرانية موجهة ضد الإسلام(1).

في هذا الوقت الذي نشطت فيه حركة الجامعة الإسلامية التى هزت العالم الإسلامي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وفي هذه الأثناء التي بلغ فيها الأفغاني ذروة قوته ونشاطه، شرع عبدالحميد في وضع أسس سياسته الإسلامية فالتقى في خطته مع الأفغاني التقاء واضحًا. ومع أن هذا الالتقاء كان سطحيًا زائفًا إلا أن عبدالحميد استطاع بمهارته أن يستغله أحسن استغلال في النفوذ إالى قلوب رعيته من المسلمين، وذلك بتأكيد اقترانه بالخلافة، وبترديد الأوصاف المقدسة التي يتصف بها الخليفة، مثل: ظل الله في الأرض، أمير المؤمنين، خادم الحرمين الشريفين(2)، راميا من وراء ذلك إلى استخدام الأفغاني وأفكاره عن الجامعة الإسلامية في جمع كلمة المسلمين حول عرشه، تحقيقًا لمصلحته الشخصية، ولذلك عندما وجد الأفغاني أن سياسة عبدالحميد موجهة ضد الأحرار والثوار، أنه لا أمل في إصلاحه شرع الأفغاني يقف منه موقفًا عدائيًا، ولا تحرز في توجيه اللوم إليه، حتى لقد دخل عليه يوما يطلب منه أن يقيله من بيعته له قائلا له: "بايعتك

هامش ص221

(1) محمود صالح منسي، مرجع سبق ذكره، ص58.

(2) جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص137 –138.

انتهى الهامش

ص222

بالخلافة والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد"(1).

الأسس التي قامت عليها حركة الجامعة الإسلامية:

وعلى الرغم من اختلاف عبدالحميد مع الأفغاني حول السياسة اللامركزية وحول الناحية الدستورية، فقد كانا متفقين بخصوص الجامعة الإسلامية التى كانت تقوم – عند الأفغاني- على ركنين أساسيين هما: الالتفاف حول الخلافة، والحج، ومن ثم فقد عمل عبدالحميد في هذين المجالين بشتى الوسائل والأساليب.

أ- الخلافة الإسلامية:

أما عن الخلافة الإسلامية فقد عمل عبدالحميد على إحياء عظمتها الدينية، واسترداد هيبتها في العالم الإسلامي، فأخذ يضفي على حياته الخاصة الكثير من مظاهر الزهد والتقشف والورع والتقوى، وتخلى – ولو ظاهريا على الأقل- عن كثير من الأعمال المنافية للدين التي كان يباشرها أسلافه الذين كانوا ينغمسون في الشراب واللهو(2)، وأخذ يستميل الشخصيات الدينية ووجهاء العالم الإسلامي إليه، ويغدق عليهم من نعمه ونياشينه(3).

كما عمد إلى استضراخ المسلمين في كافة أنحاء العالم إلى نصرته واللالتفاف حوله، وأخذ يهدد الدول الأوروبية بتحريك المسلمين في البلاد الخاضعة لهم، فمسلمو الهند يهدد بهم بريطانيا، وعرب شمال أفريقيا يهدد بهم فرنسا، والتتر يهدد بهم روسيا، ومسلمو ألبانيا يهدد

هامش ص222

(1) محمد عماره، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، ص53:نقلا عن (محمد باشا المخزومي- خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني)، المطبعة العلمية، بيروت، سنة1931م، ص68.

(2) جورج أنطونيوس، مرجع سبق ذكره، ص138.

(3) توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص35.

انتهى الهامش

ص223

بهم النسا(1). كما أنشأ مدرسة للوعاظ، واستخدم خريجيها في الدعاية له ولفكرة الجامعة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى الصحف والمجلات التي أنشأها وسخرها لنشر دعوته، كما أخذ ينفق بسخاء على المدارس والمعاهد الدينية داخل دولته وخارجها(2).

ومن خلال سياسة عبد الحميد الرامية إلى استمالة العناصر الإسلامية غير التركية، حظي العرب بوجه خاص بمركز مرموق عند عبدالحميد الذي حاول كسب تأييدهم ولاسيما بعد أن بدأت تظهر بينهم بعض مظاهر الوعي القومي، فأغدق على معاهدهم التعليمية الهبات السخية، وعلى الشخصيات البارزة منهم المناصب ومظاهر التكريم كما أنفق الأموال الطائلة على تزيين وإصلاح مساجد مكة والمدينة والقدس، كما أنشأ فرقة من حرسه الخاص من العرب، كما استخدمهم في شؤونه الخاصة ووصل بعضهم إلى مراكز بارزة، ويعتبر عزت باشا العابد – وهو عربي سوري – من الأمثلة البارزة على ذلك، فقد وصل إلى منصب السكرتير الثاني للسلطان. وصار من أقوى رجال الدولة العثمانية، حتى لقد قيل: "إنه إذا كان الباب العالي ومناصب الوزارة قد ظلا مجالا يصول فيه الأتراك ويجولون فقد سقط القصر جميعه في أيدي العرب"(3).

على أن بلوغ العرب – من خلال تيار الجامعة الإسلامية – هذه المكانة عند عبدالحميد كان أمرا طبيعيا، فمنهم الرسول، وفيهم الرسالة، وبلغتهم نزل القرآن، وفي أراضيهم الأماكن المقدسة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى أهميتهم للدولة بحكم موقع بلادهم وكثرة عددهم وقوة تأثيرهم في العناصر الأخرى، فهم بذلك يكونوا العمود الفقري للدولة

هامش ص223

(1) محمد أنيس، مرجع سبق ذكره، ص241.

(2) جورج أنطونيوس، مرجع سبق ذكره، ص138 – 139.

(3) المرجع السابق. ص139 – 140.

انتهى الهامش

ص224

الإسلامية(1). فلا غرابة أن اعتمدت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية اللغة العربية واستعانت لتحقيق فكرتها برعايا من أصل عربي(2)، منهم الأدباء كأحمد نارس الشدياق، ومعظمهم من مشايخ الطرق الصوفية، الذين تنافسوا في تمجيد عبدالحميد واكتساب رضاه، والذين كان من أبرزهم وأشدهم تأثيرا الشيخ أبوالهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية، الذي استطاع بحنكته ودهائه السياسي أن يلعب دورا بارزا في سياسة عبدالحميد الدينية(3).

غير أن بعض الباحثين يرى: أن القول باعتماد عبدالحميد علي العنصر العربي في بلاطه، وإيثاره إياهم بمحبته، وإغداقه النعم عليهم أمر مبالغ فيه، لأن هذا التفضيل كان قاصرًا على حالات فردية،وما عدا ذلك فإن عبدالحميد كان يتبع سياسة تقضي بالاعتماد على كافة العناصر مثلما كان ظلمه واستبدادهيشمل كافة العناصر.

و ايا ما كان الامر، فإن محاولة عبدالحميد التقرب من العرب، وكسب ولائهم لم تصل الى الدرجة التي جعلته يمنحهم أي قدر من مطالبهم التي كانت حينذاك متواضعة، إذ أن عبدالحميد كان - من ناحية أخرى- يتشكك في ولاء العرب له بسبب ظهور منشورات جمعية بيروت السرية التي زادت من مخاوفه وشكوكه في أن العرب يعملون في الخفاء من أجل إقامة خلافة عربية(5). ولذلك نرى عبدالحميد كان يلجأ إلى وسائل العنف والإرهاب إذا ما أخفقت وسيلة التودد والتقرب، فكان جواسيسه الذين يجوبون البلاد العربية تحت قناع الوعاظ والدعاة يقومون ببذر بذور الخلاف ويعمقوا أسبابه بين الزعماء العرب ورؤساء القبائل ليثيروا

هامش ص224

(1) محمد أنيس وزميله، مرجع سبق ذكره، ص159.

(2) ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص135.

(3) المرجع السابق، ص135 – 136.

(4) توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص46.

(5) زين نورالدين، مرجع سبق ذكره، ص56.

انتهى الهامش

ص225

القلاقل فيضطرب الأمن. فيكون ذلك ذريعة للبطش بالمعارضين لسياسته الذين كان يوعز باغتيالهم أحيانا، فإذا كانوا من ذوي المكانة السامية أرغمهم عبدالحميد على الإقامة في الأستانة ليكونوا تحت رعاية جواسيسه، ومن هؤلاء كان الحسين بن على الذي أقام في العاصمة مع أسرته منذ عام1893م(1).

ب- الحج وسكة حديد الحجاز(2):

وأما الحج – وهو الركن الثاني في سياسة عبدالحميد الإسلامية – فقد استطاع السلطان عبدالحميد أن يستفيد من هذه الفريضة الإسلامية إفادة كبرى، فقد استغل موسم الحج واجتماع المسلمين من جميع بقاع العالم فخاطب شريف مكة لينشر فكرة الجامعة الإسلامية بينهم(3).

كما استغل الحج من جهة أخرى في إقامة مشروع سكة حديد الحجاز والظهور بمظهر خليفة المسلمين الحريص على تيسير سبل الحج أمام المسلمين، بقصد استمالة عطفهم وكسب تأييدهم لدعوته، هذا بالإضافة إلى ميزة الاستراتيجية التي يحققها إنشاء هذا الخط الحديدي كوسيلة نقل سريعة للجيوش التركية المتجهة نحو الولايات في الجزيرة العربية، تلك الولايات التي لم تخضع للحكم العثماني خضوعا تاما(4). وإن كان هذا الهدف الأخير من الصعب استنتاجه أو التحقق منه تاريخيا، فلم يحدث أن استخدم السلطان عبدالحميد هذا الخط الحديدي في نقل قوات عسكرية إلى شبه الجزيرة العربية. غير أن هناك نتيجة ربما لم تخطر

هامش ص225

(1) جورج أنطونيوس، مرجع سبق ذكره، ص140 - 141.

(2) لأستاذنا الدكتور السيد محمد الدقن كتاب مهم جدا حول موضوع سكة حديد الحجاز الحميدية.

(3) محمد أنيس، مرجع سبق ذكره، ص241.

(4) زين نورالدين زين، مرجع سبق ذكره، ص57 - 58.

انتهى الهامش

ص226

ببال عبدالحميد قد حققها إنشاء هذا الخط. وهي أن وجود وسيلة نقل سريعة في تلك الولايات نتج عنه سرعة نقل الأفكار وتبادلها، مما كان له أثر بالغ في مصير الحركة العربية(1).

وقد حققت سياسة عبدالحميد الخاصة بإنشاء سكة حديد الحجاز نتائج طيبة، فقد شكل لجنة عُهِدَ برئاستها إلى عزت باشا العابد لتوجيه نداء إلى العالم الإسلامي، توضح فيه الدوافع الدينية التي أوحت لعبدالحميد بصفته خليفة المسلمين مد هذا الخط الحديدي، وتهيب بالمسلمين أن يتبرعوا بالمال لجمع نفقات المشروع.

وقد لاقى هذا النداء قبولا حسنا، فانهالت التبرعات من كل ناحية لإنشاء الخط، كما فرضت ضرائب في كل أنحاء الدولة في صورة طابع بريدي، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى مهندسين ألمان، فبدأ التنفيذ في سنة1901م، ووصل بالخط إلى المدينة في سنة 1980م. وبفضل هذا المشروع وسياسته الإسلامية ظهرعبدالحميد أمام رعاياه وامام ثلاثمائة مليون مسلم بمظهرالخليفة والزعيم الروحي للإسلام، الأمر الذي ترتب عليه خضوع رعاياه له بشكل لم يسبق له مثيل، أما المظالم التي كانت تنزل بالشعب، فإن الناس كانوا يلصقونها بالموظفين ولا يشكون في أمر الخليفة(2).

ومع ترحيب الأوساط الإسلامية والعربية بمشروع سكة حديد الحجاز، فقد كان مصدرا للقلق بين عرب شبه الجزيرة، وخاصة الحجاز الذين لم تخدعهم الواجهة الدينية التي غلف بها عبدالحميد مشروعه الذي كان الهدف الأساسي منه - في نظرهم - هو تشديد قبضته على تلك البلاد، هذا بالإضافة الى الأضرار التي لحقت بهم بحرمانهم - ولاسيما البدو- موردا مهمًا من موارد الرزق كانوا يحصلون عليه بنقل

هامش ص226

(1) جورج أنطونيوس، مرجع سبق ذكره، ص143.

(2) جورج أنطونيوس، ص142- 144:محمد أنيس، مرجع سبق ذكره، ص141 -142.

انتهى الهامش

الحجاج على الإبل، ولذلك فقد اشتدت مقاومتهم لعملية إنشاء هذا الخط بمهاجمته والسطوعلى معدات بنائه، حتى اضطرت الحكومة العثمانية الى تشديد الحراسة على منشآته حتى تم تنفيذه بوصول إلى المدينة سنه190٨م(1).

وجدير بالذكر أن اتجاه عبدالحميد إلى بناء السكك الحديدية في طرفي بلاد العرب (خط حديد بغداد - خط حديد الحجاز) قد نجم عنه استياء الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا التي رأت من وراء هذه السياسة شبح الأخطبوط الألماني الذي كان قد وجد في الدولة العثمانية مجالًا حيويًا له بغزوها اقتصاديا، أو ما يسمى بالتغلغل السلمي مأمون النتائج، مما نتج عنه نمو النفوذ الألماني في الدولة العثمانية، الأمر الذي أوقعها في صراع مع انجلترا وفرنسا وروسيا، وظهر ذلك واضح في أزمة الكويت بسبب خط حديد بغداد، وأزمة طابا بسبب خط حديد الحجاز وقد انتهت الأزمتان بما يتفق ورغبات إنجلترا(2).

هذه هي سياسة عبدالحميد الإسلامية بأهدافها والعوامل التي ساعدته على إتباعها والوسائل التي اتبعها في تنفيذها وقد بقي أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن الغالبية الإسلامية العربية لم يكن يخطر ببالها حينذاك أن تعمل على تقويض أركان الخلافة، بل كانوا يؤيدونها ويرون في ذلك تأييدًا للإسلام، كما أن المستنيرين منهم قد فطنوا إلى المؤامرات والدسائس التي كانت تحيكها الدول الأوروبية بغية تفتيت الدولة العثمانية واقتسامها فيما بينها، ولذلك عملوا على تقوية الخلافة كوسيلة للوقوف في وجه الغرب، ولم يفكروا في تحطيم السيادة العثمانية أو الانفصال عنها، وقد كان جل سعيهم هوإدخال الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي تمكنهم من التقدم والنهوض

هامش ص227

(1) توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص44- 45.

(2) للرجوع إلى تفاصيل الأزمتين ينظر توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص36 -44.

انتهى الهامش

في وجه الأطماع الأوروبية أكثر من دعوتهم للتخلص من الحكم التركي.

وهكذا ظل زعماء المسلمين على إخلاصهم للدولة العثمانية التي كانت لا تزال في أعين المعاصرين دولة الإسلام الكبرى التي تظل المسلمين بظلها الظليل(1)، الأمر الذي دفع بعض أقطاب الإسلام كالإمام محمد عبده أن يتصدى لمهاجمي الجامعة الإسلامية من أمثال المسيو هانوتو واللورد كرومر، اللذين اتهموها بالتعصب وتحدي القوي المسيحية، ودعوا الدول الأوروبية إلى مراقبتها بدقة، والحذر منها، فكان رد محمد عبده عليهم ينفي عن الجامعة الإسلامية صفة التعصب الديني، بل تضمن هذا الرد أيضا، دفاعا عن السلطان عبدالحميد نفسه إذ وصف دولته بأنها دولة الإسلام وأن سلطانها أفخم سلاطينهم(2). ولذلك يمكن القول بأن اليقظة العربية في تلك الآونة كانت يقظة ضد مساوئ الحكم التركي، بهدف إصلاحه دون التفكير في إقامة دولة عربية مستقلة.

ومع التأييد الذي لقيته حركة الجامعة الإسلامية من غالبية العرب المسلمين إلا أنها لم تنجح في مهمتها الرئيسية وهي حماية العالم العربي من الخطر الأوروبي، حيث استمرت الاعتداءات الأوروبية على أجزائه التي سقطت في قبضة الاستعمار الأوروبي الواحد تلو الآخر، كما لم ينجح السلطان عبدالحميد -- مع تمسكه بالخلافة- في القضاء على حركة الأحرار في تركيا، إذ قامت ثورة سنه 1908م بقيادتهم وأجبرت عبدالحميد على إعادة الدستور، وعندما حاول تعطيله مرة أخرى خلعته سنه1909م، وتولى رجال حزب الاتحاد والترقي الحكم، حيث انقسمت في عهدهم الحركة الوطنية العثمانية الى حركتين:

هامش ص228

(1) زين نورالدين زين، مرجع سبق ذكره، ص 58.

(2) مجلة المنار، مجلد (10) ج3خطاب اللورد كرومر، ص215، ورد الأستاذ الإمام محمد عبده على هانوتو وكرومر، ص218.

انتهى الهامش

ص229

أ- الحركه الطورانية، وهي التي قامت على أساس أن الأتراك عنصر نقي ممتاز، يكوّن قومية على غرار القوميات الأخرى، وكان هدفها تكوين دولة تركية خالصة تضم الأجناس التركية المبعثرة، الأمر الذي أدى إلى الإساءة إلى الشعور القومي لدى القوميات غير التركية داخل الدولة العثمانية، وخاصة العرب والكرد والأرمن.

ب- نمو التيار القومي العربي داخل الدولة العثمانية، وهوالتيارالذي قام بدور بارز في انهيار الإمبراطورية العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى، وكان يهدف إلى تكوين دولة عربية كبرى، وقد كان ظهور هاتين الحركتين هو بداية انفصال عرى الوحدة الإسلامية في الشرق الأوسط، على أن التيار القومي العربي لم ينجح في تكوين وحدةعربية بعد الحرب العالمية الأولى، لأن الدول الأوروبية سارت على قاعدة التفتيت والسيطرة تجاه الشرق العربي الذي وقع تحت النفوذ الإنجليزي والفرنسي(1).

هامش ص229

(1) محمد أنيس وزميله، مرجع سبق ذكره، ص21- 22.

انتهى الهامش

ص233

لقد كان لنشأة وتطور الفكرة القومية لدى الشعوب المنضوية تحت جناح الدول العثمانية أثر سلبي كبير على الدولة العثمانية. كدولة تحوي تحت لوائها شعوبًا متعددة الأجناس .ففي الولايات الأوروبية "الروم إيلي التابعة للدولة العثمانية ثارت القوميات المختلفة في دول البلقان سعيًا للاستقلال . وتحقيقًا لطموحهم القومي . وفي آسيا ثارت القوميات الأمنية والكردية والآذارية وغيرها سعيًا للاستقلال وتحقيقًا لطموحهم القومي.

ولم يكن العرب بعيدين عن هذه الظروف؛فقد سعوا لما سعى إليه غيرهم من الشعوب الأخرى غير التركية في الدولة العثمانية . وبما أن العرب كانوا أكثر الشعوب المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية فقد ارتأينا أن نفرد فصلاً في هذ الكتاب لإلقاء الضوء على مفهوم القومية العربية كنموذج . من حيث بداية نشأتها وعوامل ظهورها والأحوال والظروف التي أحاطت بها مع ربط ذلك كله بأثره على الدولة العثمانية ع تبيان موقف الأستانة تجاه دعاة وقادة وجمعيات القومية العربية .

ماذا تعني القومية العربية ؟

إن القومية العربية بمعناها السياسي الحديث هي الفكرة القومية التي ترمي إلى نوعية العرب وجمع شملهم و تعبئة إمكانياتهم لإجلاء الاحتلال الأجنبي عن بلادهم وتأسيس الدولة القومية العربية الواحدة أما تبنى هذه الفكرة القومية والتوعية له بنشرها بين جماهير الأمة العربية وتحقيقها بإبرازها إلى حيز الوجود فعلا فهو مايطلق عليه اسم " الحركة القومية العربية"(1)

هامش ص233

نور الدين حاطوم محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية القاهرة1963ص5

انتهى الهامش

ص234

وقد انتقلت فكرة القومية بمعناها العام الحديث من أوروبا إلى البلاد العربية وهناك آراء عديدة جدًا بين المختصين في تأقيت ظهور القومية العربية والأقرب إلى الصواب أن نشأتها تعود إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي حيث برزت القومية العربية بشقيها (العقائدي - والحركى) واضحة جلية في هذه الفترة كرد فعل لأفعال الآخرين شأنها في ذلك شأن معظم القوميات الحديثة الأخرى(1).

وقد بدأت الحركة أولا في بلاد الشام في بيروت ثم دمشق ثم انتشر منها إلى سائر البلاد العربية على يد أدباء كبار مثل : نصيف اليازجي وبطرس البستاني والشيخ يوسف السير والشيخ طاهر الجزائري (2).

وكانت هناك عوامل عديدة ادت إلى تأجج الحراك القومي لى القوميين العرب منها وجود نوع من الترابط العربي في ظل الحكم العثمانيوالتغييرات التي طرأت على العالم العربي في القرن التاسع عشر كحملات الاحتلال من قبل الغرب وتضافر القوى العربية لمواجهتها إضافة إلى النهضة الفكرية والتعليمية والصحافة والبعثات التنصرية (بشكل غير مباشر) والجميعات الأدبية والثقافية مثل : جمعية الآداب والعلوم التي تأسست في بيروت عام1874م والجمعية الشرقية فى سوريا1850م والجمعية العلمية السورية 1857م و"جمعية بيروت السرية" سنة1875م التي كان لها نشاط سياسي ملحوظ وسوف نتحدث عنهالاحقا كنموذج لنشاط الجمعيات آنذاك في الحراك القومي

هامش ص234

(1)محمود كامل ،الدولة العربيةالكبرى،دار المعارف،القاهرة1966،ط2،ص.413

(2)مصطفى الشهابي، المرجع السابق ص45

انتهى الهامش

ص235

الظروف التي أحاطت بنشأة حركة القومية العربية.

اولاً - أنه يلاحظ في نشوء تلك الحركة أن المسيحيين قد قاموا بدور كبير في إثارة الوعي القومي لدى العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وذلك لعدم أمور:

-1أنه نتج عن إهمال العثمانيين لتعليم اللغة العربية بل ومطاردتها ،أن اللغة العربية وآدابها لم تجد ملجأ سوى الإرساليات المسحية في بلاد الشام بالذات بسبب ظروفها الخاصة من كثرة عدد المسيحيين ووجود الأماكن المقدسة وقد كان التعليم فى مدارس هذه الأرساليات يجري باللغة العربية ، الأمر الذي أتاح للمسيحيين فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب ولغتهم وآدابها(1)

-2أن المسيحيين في بلاد الشام كانوا يعيشون في مستوى اقتصادي رفيع فقد كانوا قطاعًا نشطًا وذلك نتيجة تأييد فرنسا وحمايتها وامتيازاتها في الدولة العثمانية واتصالهم الوثيق باوروبا اكثر من العرب المسلمين إذ قاموا بدور الوسيط بين الغرب والبلاد العربية من الناحية التجارية الأمر الذي اتاح لهم الـتأثر بالفكر الغربي والحضارة الغربية أكثر من المسلمين(2)

-3شعور المسيحيين العدائي تجاه الدولة العثمانية التي كان المسلمون فيها يتمتعون وحدهم بحقوق المواطنين الكاملة وكانوا يحتكرون لأنفسهم امتيازات لا تتاح لأصحاب العقائد الأخرى (3). وبذلك كان المسيحيون يعتبرون أنفسهم مواطنين غرباء في بحر إسلامي

هامش ص235

(1)محمد أنيس ، مرجع سبق ذكره،ص214؛ محمود صالح منسي ، مرجه سبق ذكره ص ص47-48؛ شمس الدين الرفاعي ، مرجع سبق ذكره ص.110

(2)ساطع الحصري محاضرات في نشوء القومية ص191؛ زين نور الدين مرجع سبق ذكره ص ص47-48؛ محمد أنيس مرجع سبق ذكره ص.265

(3)جورج أنطونيوس مرجع سبق ذكره صص95-94

انتهى الهامش

ص236

شاسع .فلم يشعروا في ظل الحكم العثماني بأن الحكومة العثمانية حكومتهم (1) بل كانوا يعيشون على هامش حياة الدولة شأنهم شأن سائر العناصر المسيحية التابعة للسلطنة العثمانية من أروام وأرمن وبلغار (2)... لذلك لاغرابة إذا وجدنا موارنة لبنان يطالبون بالانفصال التام عن الدولة العثمانية عقب نشوب الحرب الأهلية في لبنان سنة1860م هذه الحرب التي لايمكن بأي حال اعتبارها حركة عربية ذات هدف قومي بل الأصح أن يطلق حركة طائفية.(3)

ثانياً - أن نشأة الحركة القومية العربية كانت تختلف عند المسيحيين عن نشأتها بين المسلمين وكان من الطبيعي أن نمضى مدة من الزمن قبل أن تقارب هذه الأنماط وتنتهي إلى شكل يشترك ويتساوى أمامه المسلمون والمسيحيون على حد سواء ذلك أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية والمسلمون كانوا يشاركون في حياة الدولة العامة مشاركة فعالة ويتأثرون بانتصاراتها وانكساراتها كما كانوا يحترمون السلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين ومن ثم كانوا يندمجون فى الدولة باعتبارها دولتهم أما المسيحيون فكانوا يعتبرون كسائر مسيحي الدولة من رعاياها فقط يعيشون على هامش حياتها فضلا عن ذلك كانت لهم تشكيلاتهم وحقوقهم الطائفية التي اعترفت بها الدولة مما أكسبهم كيانًا اجتماعيًا خاصًا بهم ميزهم عن سائر عناصر الدولة (4) ومن ثم كانت نشأة الحركة القومية بين المسيحيين تختلف في فكرتها عن نشأتها بين المسلمين.

إن نظرة المسلمين البحتة إلى التاريخ الإسلامي جعلتهم ينظرون إلى الخلافة العثمانية على أنها حلقة أخيرة فى سلسلة نظام الخلافة

هامش ص236

(1)زين نور الدين مرجع سبق ذكره ص36

(2)ساطع الحصري محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص161

(3)زين نور الدين مرجع سبق ذكره ص ص47-46

(4)ساطع الحصري محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ص162-160

انتهى الهامش

ص237

الإسلامية ولكن عندما بدأت الأذهان تستيقظ من ثباتها الطويل أخذ يتولد في عقول العرب المسليمين وأذهانهم تيارات فكرية جديدة تختلف عما سبق ولذلك اتجه التفكير أولاً في أمور الخلافة الإسلامية إلى بطلان تلك الخلافة في آل عثمان لانتفاء (النسب القرشي) ولأن التنازل عن الخلافة لهم قد تم تحت العسر والإكراه ومن ثم فإن سلاطين آل عثمان ليسوا خلفاء شرعيين وأن الخلافة الإسلامية من حق العرب فيجي أن تعود إليهم

هذه كانت أولى مظاهر الفكرة الفومية عند العرب المسلمين وهي كمان نرى فكرة ممزوجة باعتقاد ديني ومرتبطة بغايات دينية إلا أنها لم تقف عند هذا الحد بطبيعة الحال بل تطورت فيما بعد إلى فكرة قومية مستقلة عن الاعتبارات الدينينة وكان يوجد بجانب هذا الاتجاه الديني من ينادي بالإصلاح العربي في إطار الدولة العثمانية ومن ينادي بالاشتراك مع أحرار الترك بالإصلاح العام والتجديد للدولة العثمانية.(1)

على أنه يكمن القول إنه لم يوجد بين العرب والمسلمين طوال القرن التاسع الميلادي وحتى سنة1908م مَنْ كان ينادي بالاستقلال التام والانفصال عن الدولة العثمانية على أساس قومي بحت (2) أما بعد هذا التاريخ فقد تطورت العلاقات بين العرب وجماعة الاتحاد والترقي على نحو أدى إلى قيام الثورة العربية إيان الحرب العالمية الأولى (1914-1918م.(

أما العرب المسيحيون فقد أدى عدم ارتباطهم بالدولة العثمانية ارتباطا قلبيا إلى نظرتهم للتاريخ العربي على أنه تاريخ إسلامي محض لايخصهم ولكن قام من بينهم جماعة من المنورين الذين درسوا

هامش ص237

(1)المرجع السابق ص ص162-164

(2)زين نور الدين زين مرجع سبق ذكره صص19-81,71

ص238

التاريخ العربي من الكتب الغربية فتوصلوا إلى أن الأمة العربية كان لها حضارة قبل الإسلام وأخرى أعظم بعد الإسلام وأن المسيحيين قد اسهموا في بناء تلك الحضارة وتطويرها وأن هذه الحضارة لم تكن دينية بحتة بل إن لها كثيرًا من العناصر والمظاهر التي لا تمت إلى الدين بصلة بدليل اقتباس اوروبا منها الشئ الكثير وانتهوا في تفكيرهم إلى أنه يجب على العرب المسيحيين أن يتفاخروا بالتاريخ العربي والحضارة العربية وإعادتها إلى ماكنت عليه من المجد والسؤدد في العصور السابقة.

هذه كانت البذرة الأولى لفكرة القومية العربية المتجردة من الاعتبارات الدينية ومن ثم بدأ التفكير في القومية العربية عند العرب المسيحيين قبل أن يبدأ عند المسلمين منهم كما أن الكتاب والشعراء لذين سبقوا غيرهم في الدعوة بحماس إلى النهضة العربية كانوا من العرب المسيحيين (1) غير أن انتشار هذه الفكرة بين المسيحيين جرى ببطء شديد نظرًا لأن المطامع الأوربية في البلاد العربية كانت تدفع ساستها وبعثاتها التنصرية إلى بذل جهود كبيرة لإبعاد المسيحيين عن فكرة العروبة خدمة لمصالحها الاستعمارية وذلك بإذكاء نيران التعصب الديني الطائفي فيما بينهم الذي كان غالبا ماينتهي بالحرب الأهلية وشعور بعض الطوائف بحاجتها إلى نوع من الحماية الأجنبية كما حدث في لبنان إيان فتنة الستين(2)

ثالثًا - كما يلاحظ أن الحركة القومية وإن كانت قد بأت على يد مسيحيين عرب تعلموا في مدارس اجنبية فإنهم بمؤثراتهم الأجنبية مع وعيهم القومي العربي وعداوتهم للدولة العثمانية باعتبارها دولة

هامش ص238

(1)ساطع الحصرى : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ص165-166؛ الأمير مصطفى الشهابي مرجع سبق ذكره ص.43

(2)زين نور الدين زين ؛ مرجع سبق ذكره ص ص46-52؛ ساطع الحصري ؛ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص175

انتهى الهامش.

ص239

إسلامية -قد دفعوا بالقومية العربية إلى الأمام وكان لهم فضل كبير عليها بتوجيهها اتجاهًا انفصاليًا عن الدولة العثمانية -كما سنرى - إلا أن العرب المسيحيين لم يستطيعوا قيادة حركة ثورية تهدف إلى تحرير العرب وتخليصهم من نير السلطان العثماني المسلم الذي كان خليفة المسلمين في الوقت ذاته ولذلك لم تزدهر الحركة القومية العربية ولم تأخذ طابعها السياسي القومي الحقيقي إلا عندما تصدى المسلمون لقيادتها في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (1) وذلك لأن المسيحيين في تزعمهم للحركة القومية كانوا يتطلعون إلى بعض الدول الأوربية لتخليصهم ليس فقط من الحكم التركي ولكن أيضًا من سيطرة المسلمين حيث كان السيحيون - بالأثير الأفكار الغربية - يخشون الاستقلال تحت سيطرة المسلمين (2) وكانت الدولة الغربية من جهة اخرى تسعى لاحتضان الحركة القومية العربية لاستخدامها في تحقيق أطماعها الخاصة بمحاولة الاتفاق مع القوميين وخاصة المسيحيين (3)

على أن هناك عاملاً مهمًا ساعد أكثر من غيره على انتقال قيادة الحركة القومية من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين ألا وهو انتشار التغليم الغربي ذلك أن البعثات التنصرية التى أخذت على عاتقها نشر هذا التعليم - بجانب أنها كانت ذات طابع سياسي وأداه لتغلغل النفوذ السياسي الأجنبي في الشام - قد ساعدت على ازدياد النفوذ السياسي لرجال الدين مما نتج عنه بذر بذور الخلافات المذهبية الداخلية نتيجة لتنافس هذه البعثات وحرصها على اكتساب الولاء للدولة التابعة لها الأمر الذي شكل عقبة من أهم العقبات التي وقفت في وجه نمو الوعي القومي

هامش ص239

(1)محمود صالح منسى ، مرجع سبق ذكره ص ص74-73

(2)ألبرت حوراني ؛ مرجع سبق ذكره ص.331

(3)محمود صالح منسي ؛ مرجع سبق ذكره ص74

انتهى الهامش.

ص240

ومن ناحية أخرى، فإن هذه المؤسسات المدرسية الأجنبية قامت بهجوم غير مباشر على مراكز اللغة العربية كأداة للثقافة القومية. فقد أدى نشاط هذه المدارس والكليات الأجنبية إلى تعليم التلاميذ اللغة الأجنبية الخاصة بالدولة التي تنتمي إليها كل مدرسة. وكان ذلك بطبيعة الحال على حساب اللغة العربية تحقيقًا لأهدافهم السياسية من جهة، ولقصور اللغة العربية في ذلكالوقت عن مسايرة حاجة التقدم العلمي من جهة أخرى، وحتى الأمريكيين أنفسهم الذين كانوا روادًا في إحياء تراث اللغة العربية لجأوا إلى هذه الطريقة، وجعلوا في عام1880م اللغة الإنجليزية هي لغة التعليم في الكلية السورية. مما نتج عنه أن نشأ – بمرور الوقت – جيل من المثقفين العرب يحذق الإنجليزية أو الفرنسية أو الروسية أكثر مما يحذق لغته الأصلية (1).

وقد كان لهذه الظاهرة أثرها الحاسم على مستقبل الحركة القومية العربية، ذلك أن تلاميذ المدارس الأجنبية كانوا في غالبيتهم من المسيحيين، وذلك لأن المسلمين – خشية التنصير – كانوا يؤثرون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الإسلامية المحافظة، وإن كان مستوى التعليم فيها أقل من المدارس الأجنبية، إلا أنه أبقى على صلتهم بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم وتراثهم العربي، وحتى عند التحاقهم بالكليات التركية لمواصلة تعليمهم كانت نفوسهم تظل متعلقة بالنهضة العربية، الأمر الذي كان له أثره من وجهة النظر القومية، وهذا بعكس التعليم في المدارس الأجنبية، فإنه – وإن كان أرفع مستوى من الناحية العلمية – قد أضعف التأثير العربي على

هامش ص240

(1) جورج أنطونيوس، مرجع سبق ذكره، ص ص166- 167.

انتهى الهامش

ص241

عقول التلاميذ وأبعدهم عن المنبع الذي يغذي الحركة القومية العربية، وبذلك زاد اهتمام المسلمين بالحركة القومية وتصدروا لقيادتها (1).

رابعًا – كما يلاحظ أن ظهور الحركة القومية العربية قد بدأ في الشرق العربي في وقت مبكر قبل ظهورها في المغرب العربي، ويرجع ذلك إلى أن الأقاليم العربية في آسيا ظلت خاضعة لحكم واحد هو الحكم العثماني حتى قيام الحرب العالمية الأولى، مما أبقى لديها فكرة الوحدة، ثم إن حركة الإصلاح في الدولة العثمانية إبان القرن التاسع عشر كانت ترمي إلى المساواة بين مختلف عناصر الدولة. ولما كان المفكرون العرب في المشرق العربي أكثر تقبلًا لفكرة القومية بتأثير العوامل سالفة الذكر، فإننا نراهم يقومون قومة رجل واحد، ويوجهون حركتهم ضد الدولة العثمانية لأنهم لم يجدوا أمامهم سوى حكم أجنبي واحد هو الحكم العثماني، ولأن القومية العربية التي تضمهم جميعًا على قدم المساواة، كانت رائدة وقاسمًا مشتركًا بينهم. أما في المغرب العربي الذي تخلص من الحكم العثماني في وقت مبكر، فقد وقع تحت نير الاحتلال الغربي الذي فتتت أوصاله (2). بل وحاول في بعضها القضاء على كل المقومات ومسخها (3)؛ لذلك كان طبيعيًا أن تتجه الحركات التحررية في المغرب العربي اتجاهًا إقليميًا محليًا ضد الاستعمار الغربي، أكثر منه اتجاهًا قوميًا. وأن يكون هذا الاتجاه مطبوعًا بالطابع الإسلامي أكثر منه بالطابع العربي. لأن الدين كان فيها مقومًا أساسيًا وعنصرًا قويًا في التوجيه والمقاومة والدفاع (4).

هامش ص241

(1) محمود صالح منسي: مرجع سبق ذكره، ص73؛ شمس الدين الرفاعي: مرجع سبق ذكره، ص139.

(2) فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة1830م، وتونس1881م، ومراكش1912م، كما احتلت إيطاليا ليبيا سنة1911م.

(3) فقد حاولت فرنسا فرنسة الجزائر وذلك بمحو صبغتها العربية، والقضاء على مقوماتها.

(4) نور الدين حاطوم: مرجع سبق ذكره، ص13.

انتهى الهامش

ص242

أضف إلى ذلك اختلاف نظرة أهل المغرب العربي إلى الحكم العثماني عن نظرة أهل المشرق. فبينما كان أهل المشرق العربية ينظرون إليه على أنه حكم أجنبي استعماري، كان أهل المغرب ينظرون إلى الخلافة العثمانية على أنها جمع لشمل المسلمين في مواجهة أعداء الإسلام، ولا يترددون في الإشادة والتنويه بأخوة العثمانيين وفضلهم ونجدتهم وشهامتهم (1).

ويمكن تفسير تلك الظاهرة على ضوء الأحداث التاريخية؛ فبينما استخدم العثمانيون القوة والقهر في سبيل السيطرة على أقطار المشرق العربي، حتى إن تقدم العثمانيين اتخذ اسلوب الغزو العسكري الذي لقى مقاومة شديدة وعنيفة في معارك مرج دابق، وغزة الريدانية والصليبية وأطفيح والجيزة، وغيرها من المعارك التي أفقدت العثمانيين صوابهم، وجعلت السلطان سليم يفكر أكثر من مرة في الانسحاب بجيشه وترك البلاد لأهلها (2).

أما المغرب العربي، فنجد أن سيطرة العثمانيين عليه قد تمت بطريقة مختلفة تمامًا. فقد كان دخوله تحت السيطرة العثمانية بدعوة من أهل المغرب أنفسهم إنقاذًا لهم من قرصنة الإسبانيين الذين اتجهوا – بعد قضائهم على آخر معاقل المسلمين في الأندلس بسقوط غرناطة سنة1492م – إلى مطاردة المسلمين في سواحل الشمال الإفريقي بغية تطويق أقاليم المغرب العربي باحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط، إمعانًا في الانتقام من العرب والمسلمين، والقضاء على الكيان الاقتصادي العربي بانتزاع تجارة الشرق من أيديهم. لذلك لا غرابة في أن يتجه أهل المغرب العربي إلى الدولة العثمانية، وهي دولة الإسلام الفتية، يطلبون نجدتها والدخول تحت

هامش ص242

(1)محمود صالح منسي: مرجع سابق، ط3، دار الفكر1978م، ص ص41-43.

(2) انظر بحث مستفيض للدكتور السيد الدقن بعنوان: "السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة العثمانية"، القاهرة1979م.

انتهى الهامش

ص243

سيادتها، ويرحبون بقواتها. ولا غرابة أيضًا في أن يظل أهل المغرب العربي يحمدون للدولة العثمانية هذا الفضل، وينظرون إليها هذه النظرة الإسلامية الخالصة، لاسيما وأنهم لم يعايشوا الحكم العثماني في سنواته الأخيرة (عهد الاتحاديين) التي حاول فيها الاتحاديون طمس الشخصية العربية باتباعهم سياسة التتريك التي تطرفوا بها إلى حد أن صارت سياسة عنصرية طابعها التعصب لكل ما هو تركي ومحاولتهم إعلاء الجنس التركي مما يتعارض مع الأخوة الإسلامية (1).

خامسًا – أن القومية العربية اشتد ساعدها في مواجهة تطرف بعض الأتراك في قوميتهم، التي وصلت حد الطورانية "التتريك"، حيث سعى حزب الاتحاد والترقي إلى تتريك الشعوب غير التركية المشتركة مع الأتراك في العيش تحت ظل الدولة العثمانية، مثل الشركس والعرب الكرد، لكنهم لم ينجحوا في ذلك لتمسك أصحاب كل قومية بقوميتهم.

ومع ذلك، فقد كان هناك من العرب من يدعو للحفاظ على وحدة الدولة العثمانية مع الاحتفاظ بحقوق العرب القومية. ومن مظاهر ذلك أن بعض الرواد العرب قد عقدوا مؤتمرًا في باريس في عام1913م. وفيه اتخذوا قرارات أكدوا فيها رغبة العرب في الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية بشرط أن تعترف الحكومة بحقوقهم، كون العرب أكبر الشركاء في الدولة. وطالب هؤلاء أن تُحكم البلدان العربية حكمًا لامركزيًا، أي حكم ذاتي. وفي المقابل وعد رجال الاتحاد والترقي المجتمعين العرب بقبول مطالبهم. لكن ذلك لم يتم لأسباب عديدة، منها اندلاع الحرب العالمية الأولى1914م.

هامش ص243

(1)محمود صالح منسي: مرجع سبق ذكره، ص ص43-49.

انتهى الهامش

ص244

سادسًا – وأخيرًا، يلاحظ في نشأة الحركة القومية العربية وظهورها أنها بدأت كغيرها من الحركات القومية في الشرق والغرب بداية أدبية، تمثلت في إحياء اللغة العربية وآدابها القديمة. وبعث ذلك المجد الكبير من التراث العربي والفكري. ولقد ضرب بسهم وافر في هذا الميدان عالمان عربيان مسيحيان، هما: نصيف اليازجي، وبطرس البستاني. ولاسيما هذا الأخير الذي حارب التعصب الديني الذي ذر قرنه بعنف أيام مذابح لبنان، فأنشأ جريدة "نفير سورية". ثم أنشأ المدرسة الوطنية التي هاجمت التعصب الديني، وانصب نشاطها على تخريج جيل وطني يعتز بعروبته ثم أصدر جريدة "الجنان"، وجعل شعارها "الوطنية من الإيمان". وفي هذه المرحلة أنشئت الجمعيات العلمية المختلفة التي أنصب نشاطها على الإفادة من التراث العربي (1). ثم تطورت الحركة القومية من الطور الأدبي إلى طور العمل السياسي ممثلة أول الأمر في جمعية بيروت السرية (2).

جمعية بيروت السرية (1875م).

نشأة الجمعية: بدأ الشعور المعادي للأتراك العثمانيين في لبنان، فقد غذته عدة عوامل مثل: انتشار التعليم الغربي، وإحياء اللغة العربية وتأسيس المطابع، وظهور الصحف، والسياحة في الخارج، وعودة المغتربين من الولايات المتحدة، وتوثيق الصلة التجارية بالغرب، والتوسع في الأخذ بالأساليب الغربية، هذا فضلًا عن عامل آخر هام هو شعور المسيحيين بأنهم غرباء وسط بحر شاسع من المسلمين، حيث أن الدولة ليست دولتهم، مما جعلهم يسعون جاهدين للانفصال عن الدولة العثمانية والحصول على الاستقلال. ومن ثم كانت الحركة

هامش ص244

(1) سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن حركة إحياء التراث العربي أثناء الحديث عن النهضة الفكرية والجمعيات العلمية والأدبية كعاملين من العوامل التي ساعدت على ظهور الفكرة القومية العربية.

(2) ﷴ أنيس: مرجع سبق ذكره، ص265.

انتهى الهامش

ص245

القومية في لبنان ضد الأتراك العثمانيين ليست عربية شاملة، وإنما كانت لبنانية مرونية (1). ومن ثم أيضًا، فقد جاءت كرد فعل لسياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية من لبنان، فقد تأسست في بيروت جمعية سرية عام1875م، كان قوامها أول الأمر خمسة من الشبان المسيحيين الذين درسوا في الجامعة الأمريكية في بيروت. وكان لهذه الجمعية فروع في دمشق وطرابلس وصيدا، وكانت تهدف إلى استقلال لبنان وسوريا إن أمكن. ولكن مؤسسيها – وهم مسيحيون – أدركوا من أول وهلة، إنه من أجل تحقيق أهدافهم التي يصبون إليها، لا بد من حصولهم على تأييد العرب المسلمين ليواجهوا الأتراك بجبهة عربية واحدة. ومن ثم فقد عملوا على أن ينضم إلى الجمعية بعض الأعضاء المسلمين.

وبعد أن لبثوا بضع سنوات يتهامسون في السر في أهداف جمعيتهم بسبب شدة وطأة حكم السلطان عبد الحميد وانتشار جواسيسه. اهتدوا إلى طريقة لصق المنشورات على الجدران في الشوارع ليلًا، حتى إذا ما طلع النهار تجمع الناس حولها لقراءتها. وقد تضمنت هذه المنشورات التنديد بمساويء الحكم العثماني، ودعوة العرب للثورة عليه والإطاحة به، الأمر الذي دعا سلطات الأستانة إلى تشديد قبضتها، وبث جواسيسها للتعرف على مصدر هذه المنشورات، مما نتج عنه أن حلّت هذه الجمعية نفسها وأحرقت سجلاتها. وهاجر معظم أعضائها إلى مصر. وكان ذلك فيما بين سنتي1882-1883م (2).

هامش ص245

(1) محمود صالح منسي: مرجع سبق ذكره، ص69: زين نور الدين: مرجع سبق ذكره، ص ص46-47.

(2) جورج أنطونيوس: مرجع سابق، ص ص149-151: محمود صالح المنسي: مرجع سابق، ص ص69- 70، زين نور الدين: مرجع سابق، ص ص60 – 61.

انتهى الهامش

ص246

وجدير بالذكر أن جمعية بيروت السرية قد ضمت بين صفوفها الكتاب والشعراء والمدرسين. وقد قفز عدد أعضائها إلى السبعين منهم: يعقوب صروف، وإبراهيم اليازجي، وفارس نمر، وإبراهيم الحوراني، وشاهين مكاريوس، وإلياس حبالين، وغيرهم ممن قاموا بدور كبير في ترويج مبادئها وشعاراتها (1).

منشورات الجمعية:

أما عن منشورات الجمعية التي توضح خطتها وأهدافها وميولها، فقد ذكر جورج أنطونيوس في كتابه "يقظة العرب" أنه عثر على ثلاثة نصوص لتلك المنشورات في مكتب السجلات العامة بوزارة الخارجية الإنجليزية بلندن، كان قد بعث بها القنصل العام البريطاني في بيروت مرفقه بتقاريره إلى حكومته سنة1880م.

المنشور الأول: أبرق القنصل البريطاني في بيروت إلى حكومته في28يونيو عام1880م بظهور منشورات تحض على الثورة ضد الأتراك، ثم أردف بخطاب في3يوليو1880م أرفق به منشورًا أصدرته تلك الجمعية. ومع أنه كان أول منشور وصل إلى القنصلية البريطانية غير أنه لم يكن أول منشور أصدرته الجمعية. لأنه يشير إلى منشورات سابقة صدرت قبله. وعلى الرغم من قصر هذا المنشور وقلة أهميته إلا أنه اشتمل على لوم أهل الشام لاستكانتهم واستسلامهم لطغيان الأتراك، ولتأصل الخلافات بينهم مما جعلهم نهبًا لمطامع الدول الأوروبية. كما يهيب بالعرب أن يدفنوا خلافاتهم، وأن يتحدوا في وجه الطغاة مستلهمين أمجادهم الغابرة، وقد رسم في أعلى المنشور شعار يمثل سيفًا مسلولًا وقد كتب تحته بيت الشعر التالي:

هامش ص246

(1) توفيق برو: مرجع سبق ذكره، ص27.

انتهى الهامش

ص247

لنطلبن بحد السيف مأربنا * فلن يخيب لنا في جنبه أرب (1)

المنشور الثاني: أرفق أيضًا بالرسالة نفسها – فقد كان أكثر عنفًا وصراحة في التنديد بمساويء الحكم العثماني، حيث اتهم الأتراك بالفشل في تطبيق الإصلاحات التي وعدوا بها منذ عشرين عامًا (1860م) إبان مذابح سوريا، مؤكدًا بأنه لا أمل في صلاحهم، ولا خير يرجى على أيديهم. والشيء الجديد في هذا المنشور: المطالبة بالحكم الذاتي لبلاد الشام، بل ربما الاستقلال كذلك. ويؤكد هذا المنشور في نهايته على إصرار كاتبيه على المضي في طريقهم مهما كلفهم ذلك.

المنشور الثالث: هو أهم المنشورات الثلاثة – فقد أرفق برسالة جاء فيها أنه الصق على الجدران في ليلة31ديسمبر 1880م، وترجع أهميته إلى أنه تضمن أول بيان مكتوب عن برنامج الجمعية السياسي الذي اتفق أعضاؤها على تنفيذه ولو بحد السيف. وقد أضاف هذا المنشور إلى تنديده بالأتراك شرًا جديدًا من شرورهم، وهو محاولتهم القضاء على اللغة العربية، كما ضرب على الوتر الديني بوصفه الخلافة العثمانية بأنها اغتصاب لحق العرب.

أما أهم نقاط ذلك البرنامج المعلن، فهي:

منح الاستقلال لسوريا بالاتحاد مع لبنان.

الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.

إلغاء الرقابة وكل القيود المفروضة على حرية التعبير ونشر العلم.

استخدام الوحدات المجندة من الأقاليم العربية محليًا داخل حدود هذه الأقاليم (1).

هامش ص247

(1) هذا البيت من قصيدة لإبراهيم اليازجي الذي كان ضمن أعضاء الجمعية.

انتهى الهامش

ص248

على أننا لو تأملنا هذه المنشورات الثلاثة، لاستوقف نظرنا حقيقة مهمة جديرة بالذكر، وهي تطور أفكار الجمعية من التعميم إلى التخصيص، ومن النظرة العامة للأمة العربية إلى النظرة الإقليمية. فبينما نجدهم في المنشور الأول يطالبون العرب بنبذ خلافاتهم وتوحيد جهودهم ضد الأتراك الغاصبين، نجدهم في المنشور الثاني يطالبون باستقلال بلاد الشام خاصة، وفي المنشور الثالث يصفون انتحال السلطان العثماني للخلافة بأنه اغتصاب لحق العرب، ثم لا يطالبون في برنامجهم بخلافة عربية، أو حتى وحدة عربية، بل نجدهم يطالبون بوحدة إقليمية، تضم سوريا ولبنان فقط، ومنحها الاستقلال، ولعل ذلك يفسر الدوافع الحقيقية لهؤلاء الشبان التي كان مبعثها النزعة القومية بتأثير اليقظة الأدبية، والنزعة الطائفية بتأثير فظائع سنة1860م (2)، التي دفعتهم إلى المطالبة باستقلال سوريا ولبنان؛ "خوفًا من أن تكشف القومية العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الإسلامي" (3).

وعلى الرغم من هذا التقدم الذي أحرزته الحركة القومية العربية على أيدي تلك الجمعية، إذ صار لها برنامج محدد، فقد قوبلت منشوراتها بالسلبية الصامتة، ولم تجد الوسط الملائم، إما لأنه لم يعلم بها الجانب الأكبر من المواطنين نتيجة اقتصار انتشارها في عدد محدود من مدن الشام (4)، أو لم يكن هناك من هو على استعداد لتقبل مثل تلك الأفكار الثورية، لأن "فكرة القومية لم تكن بعد قد وجدت طريقها إلى وجدان العامة من الناس، كما كان ولاء الناس يقوم على أساس ديني طائفي كما كانت جميع الروابط والعلاقات

هامش ص248

(1) جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص ص 153-155.

(2) مصطفى الشهابي: مرجع سبق ذكره، ص48.

(3) ألبرت حوراني: مرجع سبق ذكره، ص331.

(4) محمود صالح منسي: مرجع سبق ذكره، ص 71.

انتهى الهامش

ص249

الاجتماعية" (1). وبذلك يعتبر مثل هذا النشاط الثوري سابقًا لأوانه لأنه كان يتطلب وعيًا قوميًا متقدمًا. ومع كل هذا فإنه إذا كانت تلك الحركة لم يُقدّر لها النجاح، فإنها قد حددت الرغبات والأماني التي كانت تجيش في النفوس، وبذلك تعتبر خطوة إلى الأمام في طريق الحركة القومية، وأول تعبير عن الأهداف السياسية، إذ دعت إلى فكرة الدولة الوطنية الحديثة المستقلة سياسيًا والقائمة على أساس قومي (2)، وذلك في برنامجها الذي وإن لم يحقق نتائج محسوسة، فقد ظلت آثاره كامنة في طيات الوعي القومي وأصبح معلمًا في طريقه (3).

وجدير بالذكر، أن الحركة القومية العربية كانت تبدو ساكنة في الظاهر طوال الفترة ما بين سنة1880م ونشوب الثورة العربية في الحجاز سنة1916م، وذلك ليس فقط بسبب سياسة السلطان عبد الحميد – التي اعتمدت في شق منها على الناحية الإسلامية، وفي شق ثان على القهر والجاسوسية مما أدي إلى هجرة الكثير من الشخصيات القيادية، وفي شق ثالث على التودد والتقرب إلى العرب، هذه السياسة التي ظهرت واضحة في الشام لأنها مهد الحركة القومية، وإن لم تعرقل نمو الحركة القومية إلا أنها حدت من قوتها رغبة أو رهبة – وإنما بسبب نمو التعليم الغربي وازدياد سلطة رجال الدين أيضًا (4).

وفي الوقت الذي كانت فيه جمعية بيروت السرية تدعو إلى وحدة العرب، ونبذ خلافاتهم للوقوف في وجه الحكم العثماني المغتصب، كانت هناك حركة أخرى تدعو العرب والمسلمين عامة إلى وحدة إسلامية لمواجهة الخطر الاحتلالي الغربي المطبق على العالم الإسلامي.

هامش ص249

(1) زين نور الدين زين: مرجع سبق ذكره، ص 60.

(2) محمود صالح منسي: مرجع سبق ذكره، ص 71.

(3) جورج أنطونيوس: مرجع سبق ذكره، ص161.

(4) محمود صالح منسي: مرجع سبق ذكره، ص ص71-72.

انتهى الهامش

ص250

و هي حركة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها الأفغاني فكرا واحتضنها السلطان عبد الحميد وقادها كحركة كما سبق أن أشرنا وكان لها دور بارز في اليقظة الإسلامية والعربية .

جمال الدين الأفغاني وحركة الجامعة الإسلامية :

تعد دعوة جمال الأفغاني إلي الوحدة الإسلامية قمة كفاحه ونضاله ضد الإستعمار الأوروبي . وهي ما أطلق عليها حركة الجامعة الإسلامية التي احتضنها السلطان عبد الحميد لتكوين جبهة اسلامية قوية تستطيع الوقوف في وجه الهجوم الإستعماري علي الشرق الإسلامي . وهذه الحركة وإن كانت تشبه الحركات التي ظهرت في القرن التاسع عشر (الوهابية _ والسنوسية _ والمهدية) من حيث الشكل والمظهر لأنها دعوة إصلاحية ضد المساوئ الدينية والإجتماعية التي طرأت علي العالم الإسلامي . غير أنها تختلف عن هذه الحركات من حيث الجوهر والإتجاه لإنه بينما كانت تتجه تلك الحركات لمحاربة النفوذ العثماني كانت حركة الجامعة

الإسلامية تدعو إلي ضرورة توحيد الصفوف وتكتيل المسلمين شعوبا وحكومات حول الدولة العثمانية ، دولة الإسلام الكبري للوقوف أمام الزحف الأوروبي علي العالم الإسلامي وهذه هي العروة الوثقي التي لا إنفصام لها . أي أن الأفغاني كان - الي جانب إصلاح المساوئ الدينية والإجتماعية – علي الوقوف أمام النفوذ الإحتلالي خاصة أنه كان يفسر الإحتلال الأوروبي علي أساس ديني ويعتبره حركة دينية نصرانية موجهة ضد الإسلام .

هامش ص250
(1) عبد العزيز الشناوي: الوحدة العربية ص30
(2) لوثروب ستودارد: حاضر العالم الاسلامي. ترجمة عجاج نويهض، وتعليق الأمير شكيب أرسلان، أربعة مجلدات، مكتبة عيسي البابي الحلبي، القاهرة1352هـ، المجلد الأول ص306-307 .
انتهي الهامش

ص251
وكانت جهود الأفغاني ترمي الي تطهير الإسلام من الشوائب والبدع التي لحقت به وذلك بالدعوة الي أصول الإسلام الصحيحة وجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم في سائر أقطار العالم ورفعهم من وهدة الجهل واليأس التي ترددوا فيها ، والعمل علي تقويتهم عن طريق تنظيم الحكومات الإسلامية القائمة وإدخال الأفكار الغربية التي كانت سر تقدم الغرب وتقدمه وذلك كي يرفعوا عن كاهلهم كابوس الإحتلال الأجنبي ويتحرروا من تدخل الدول الأجنبية في شئونهم بعد أن يصبحوا قادرين علي تدبير أمورهم تدبيرا حسنا دون الإعتماد علي الأمم الأوروبية (1). وكان سبيله الي ذلك ما دعا إليه بإسم الجامعة الإسلامية ، التي كان هدفها الرئيس " هو تجميع جميع الشعوب الإسلامية تحت لواء حكومة إسلامية ، يقوم علي رأسها خليفة لا منازع في سلطته " . وقد أنشأ في باريس من أجل ترويج هذه الدعوة جريدة " العروة الوثقي " باسم الجمعية السرية التي أسسها ، وكانت تتألف من مسلمين من مصر والهند وسوريا وشمال أفريقيا للعمل علي تحقيق هذه الغاية(2) .
وقد مر تفكير الأفغاني في دعوته تلك بمرحلتين: أولأهما – عندما كان يرفض إعطاء أي وزن للفكر القومي والخصائص القومية مكتفياً بوحدة العقيدة الدينية . وقد اتسمت هذه المرحلة بعدم الوضوح في العلاقة ما بين الجامعة الإسلامية وما بين القومية وتكوين المجتمعات علي أساس قومي حديث (3) .

وفي هذه المرحلة نجد الكثير من عبارات الأفغاني ، التي ظهرت علي وجه الخصوص في مقالات العروة الوثقي . والتي تتحدث عن
هامش ص251
(1) محمود أبو رية جمال الدين الأفغاني ، تاريخه ورسالته ومبادؤه ، من مطبوعات المجلس الأعلي للشئن الاسلامية، القاهرة 1966م ص47
(2) محمود صالح منسي مرجع سبق ذكره، هامش رقم 2ص58
(3) محمد عمارة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ص41-42
انتهي الهامش

ص252
" غناء الإسلام عن القومية والجنسية " . وقوله بأنه: " لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم(1) " وقوله " أن أقوي رابطة بين المسلمين إنما في الرابطة الدينية ... أن قوتهم لا تكون إلا بالنسبة الإعتقادية(2) " . ومثل قوله " علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعلمون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم، وتسني للمفدين نجاح في بعض الأقطار الإسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدوهم علي التنفير من العصبية القبلية بعدما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حماقة منهم وسفاهة، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكناً سواه، فاضطر للأقامة في العراء معرضاً لفواعل الجو . وماتصول به علي حياته ... فيا أيتها الروح المرحومة، هذه حياتكم فاحفظوها، ودمائكم فلا تريقوها، وأرواحكم فلا تزهقوها، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت، هذه هي روابطكم الدينية، لا تغرنكم الوساوس، ولا تستهوينكم الترهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة إجتمع فيها العربي بالتركي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتي إن الرجل منهم ليتألهم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره وتقاصت أقطاره، هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم، وفيها عزتكم ومنعتكم، وسلطانكم وسيادتكم، فلا توهنوها ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل(3) " .

وقد تأثر جمال الدين الأفغاني في دعوته بالتاريخ الإسلامي وحياة المسلمين الأولي، ويتضح ذلك من قوله " هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأه دينهم حتي الآن، لا يعتدون برابطة الشعوب

هامش ص252

(1) العروة الوثقي، مقال الوحدة الإسلامية ص69

(2) المصدر السابق مقال التعصب ص45

(3) المصدر السابق ص ص45-48

انتهي الهامش

ص253

وعصبيات الأجناس، وإنما ينظرون إلي جامعة الدين: لهذا نري العربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربية، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا إنقباض. وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من تبدل أشكالها وانتقالها من قبيل الي قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة، ذاهباً مذاهبها .... إن المسلمين من بين سائر الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامي بدون إلتفات إلي جنسها وقبيلتها "(1)

وهكذا كان جمال الدين الأفغاني يري في هذه المرحلة من تفكيره أن للمسلمين بديلاً عن القومية يفضلها. ومن ثم فإن فيه الفناء عنها، ألا وهو " إتحادهم في الملة في ظل حكم مثالي يحافظ علي الشريعة " ، وأن هذه البديل - عند الأفغاني- شرط أساسي لزوال ضرورة بناء الدول علي أساس القومية والجنس.

وعلي ذلك كان يري " أن المتدين بالدين الإسلامي متي رسخ فيه إعتقاده يلهو عن جسمه وشعبه، ويلتفت عن الروابط الخاصة إلي العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد "(2) ، " وما هذا بغريب علي المسلمين فان رابطتهم الملية أقوي من روابط الجنس واللغة " (3).

هذه هي دعوة الأفغاني إلي الجامعة الإسلامية في مرحلتها الأولي ، وقد تأثر موقف الأفغاني من الدولة العثمانية بتفكيره الإسلامي في هذه المرحلة، فعندما رأي أن الاحتلال الأوروربي يطبق علي العالم الإسلامي من كل اتجاه، دعا الي توحيد كلمة المسلمين وجمع شتاتهم في دولة واحدة تحت ظل الخلافة العثمانية الإسلامية التي كان يعلق عليها كبار الآمال في حماية العالم الإسلامي من خطر الاحتلال الأوروبي المسيحي .

هامش ص253

(1) المصدر السابق مقال الجنسية والديانة الاسلامية ص11

(2) المصدر السابق ص10

(3) المصدر السابق مقال لماذا صدرت الجريدة ص5

انتهي الهامش

ص254

ومن ثم جاء قوله بأن (الذات الشاهانية وهي الأب الأكبر لعموم المسلمين، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين، هي أجدر الناس بالالتفات الي حركة الأعداء في البلاد الاسلامية، وهي لا تألو جهدا في تعويق سيرهم واحباط أعمالهم (1)) . ولذلك فهندما بدأ السلطان عبد الحميد الثاني دعوته الي الجامعة الاسلامية وجد التأييد والعون من الأفغاني الذي رأي في السلطان عبد الحميد من اليقظة وشدة الحذر وإعداد العدة اللازمة للوقوف في وجه الزحف الأوروبي، وحسن النية والاستعداد بالدولة الاسلامية فبايعه بالخلافة والملك موقناً بأن الممالك الاسلامية في الشرق لن تسلم من براثن أوروبا إلا بالانضواء تحت راية هذا الأمير العظيم . (2)

أما المرحلة الثانية التي مر بها تفكير الأفغاني فهي اعترافه بقوة الرباط القومي بالاضافة الي وحدة العقيدة الدينية (3) ويرجع تطور تفكير الأفغاني في هذا الاتجاه الي أن سياج العزلة الذي فرضه العثمانيين علي ممتلكاتهم قد أخذ يتهاوي في اواخر القرن التاسع عشر بسبب تقدم وسائل الانتثال وانتشار التعليم بشقيه – الوطني والأوروبي – في الشرق العربي، هذا فضلاً عن أن العصر الذي كان يعيش فيه الأفغاني هو عصر القوميات في أوروبا. (4)

اتخذ تفكير الأفغاني في هذه المرحلة وجهة قومية، حيث صار يعترف بأن (اللغة عنصر جوهري في خلق جماعة مستقرة إذ أن المجتمعات البشرية التي لا تجمعها لغة مشتركة لا يمكن لوحدتها أن تكون ثابتة) (5) وتكون معرضة لأن تفقد ما هي عليه من المعرفة والمهارة بل أن الجماعة الدينية تكون أقوي اذا كانت لها لغة مشتركة.

هامش ص254

(1) محمود صالح منسي، مرجع سبق ذكره ص60

(2) المرجع نفسه ص60

(3) محمد عمارة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص (42)

(4) محمود صالح المنسي مرجع سبق ذكره ص60
(5) ألبرت حوراني مرجع سبق ذكره ص149
انتهي الهامش

ص255
(فلو تبني العثمانيون اللغة العربية دون سواها وجعلوها لغة الامبراطورية بأسرها لارتبطت شعوبها برابطتين بدل رابطة واحدة ولكانت متحدة قوية (1)) . (إذا أن رابطتهم الملية مع رابطة اللسان أقوي من الروابط الجنسية (2))
وفي الواقع فان هذا تطور مهم في حياة الأفغاني وتفكيره واتجاهه القومي، غير أنه في الوقت الذي كان يردد فيه بأنه لا سبيل لتمييز أمة عن أخري إلا بلغتها لم يتخل الأفغاني عن اتجاهه الاسلامي بل حاول التوفيق بين فكرة العروبة وفكرة الإسلام، حيث كان يري أن الإسلام كعقيدة إنما هو طريق الي التعرب واكتساب خصائص الأمة العرربية، يقول (فإن كل من دان بالإسلام او رضي بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم الي التعرب، فمصر بينما هي هرقلية رومانية ومقوقسها عامل له فيها أصبحت بعد قليل من الزمن إسلامية في الأغلبية عربية بالصورة المطلقة في كافة مميزات العرب. وهكذا القول في سوريا والعراق ... المسلم او المسيحي أو اليهودي في مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم علي نسبته العربية، فيقول عربي ثم يذكر جامعته الدينية ...
والأغرب أن التركي والشركسي والأرناؤوطي وغيرهم من العناصر يستعرب متي وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات ويمتزج في الجموع حتي يخال أنه " عربي قح ") (3)
أصبحت رابطة اللسان عند الأفغاني من أهم العوامل التي تسنخدمها الأمم المقهورة في جمع شتاتها واسترداد مالها من مجد، ولذلك أخذ الأفغاني يردد عبارة " جامعة اللسان " وأنه (لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم....
هامش ص255
(1) المرجع السابق ص149
(2) محمد عمارة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص45نقلا عن الخاطرات ص416
(3) المصدر السابق ص ص6465نقلا عن الخاطرات ص ص9798
انتهي الهامش

ص256
فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان، وهو أهم الأركان.. انه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير فحافظت علي لسانها محكومة وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر فردت ملكها وجمعت من ينطق بلسانها إليها، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم وظلوا في الاستعباد ما شاء الله) (1)
وفي هذه المرحلة من تفكير الأفغاني نجده يطالب باستعراب الأتراك وجعل اللغة العربية لغة الدولة إذ كان يقول (لو أنصف الأتراك أنفسهم لاستعربوا، وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله وجوا علي سنن الرشيد و المأمون علي الأقل، ولكانوا أعز أجانب، وأغني مملكة في دول الأرض) (2)
وعلي ذلك فلم يكن من المتوقع - إزاء ذلك – أن يستمر الوفاق بين الأفغاني والسلطان عبد الحميد الذي كانت تراوده الآمال في استخدام الأفغاني وأفكاره عن الجامعة الاسلامية في جمع شتات المسلمين حول عرشه، بينما أصبح الأفغاني – وقد رأي سياسة السلطان عبد الحميد موجهة ضد الأحرار والثوار من أجل تحقيق مصالحه – يري أن تشجيع الحركات القومية داخل البلاد الإسلامية لا يتناقض مع فكرة الوحدة الإسلامية التي كان مثلها الأعلي في نظره (إقامة حكومة واحدة تطبق المبادئ الإسلامية)، ولكن لما كان قيام تلك الحكومة أمر يصعب تحقيقه إقتصر الأفغاني علي المناداة بتقوية الروابط بين الدول الاسلامية القائمة (3) ، ولذلك اقترح علي السلطان عبد الحميد (أن
هامش ص256
(1) المصدر السابق ص ص ص666768، نقلا عن الخاطرات ص ص99 ، 104 ، 139
(2) محمد بديع شريف، مرجع سبق ذكره ص59
(3) محمود صالح منسي، مرجع سبق ذكره ص63
انتهي الهامش

ص257
يجعل من الولايات العثمانية خديويات تتمتع باستقلال ذاتي علي غرار خديوية مصر، تبقي كلها خاضعة للخلافة ويأتمر كل خديوي بأمر السلطان)، وعندما سأله السلطان عبد الحميد (وماذا أبقيت لتخت آل عثمان ؟) فأجابه الأفغاني (يبقي مولاي السلطان ملك أولئك الملوك، فإذا قويت هذه الخديويات، فإنه سرعان ما تنتظم إيران و أفغانستان والهند، ويصبح الإسلام قوة عتيدة يرهب الغرب

جانبها وتهدأ ثائرته علي الاسلام)، لكن السطان عبد الحميد لم يستجب لهذه الفكرة اللا مركزية . (1)
وإلي جانب ذلك فقد كان ثمة إتجاه دستوري في دعوة الأفغاني، فقد كان يريد أن يكون الاتحاد الإسلامي إتحاداً دستورياً، ولذلك كان يسعي إلي تحويل الممالك الإسلامية إلي ممالك دستورية، وذلك بنشر الوعي الدستوري بين الشعوب الإسلامية وحتي ترغم حكامها علي إصدار دساتير تكون من صنع الشعب مما يجعله مستعداً للدفاع عنها، لا أن تكون منحة قابلة للمنح والإعطاء – فكان يقول (لا تحي مصر ولا تحي الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً، لا مستبداً عادلاً لأن الإستبداد يتنافي مع العدالة) . وقد طلب الأفغاني من السلطان عبد الحميد تغيير نظام الحكومة تغييراً جذرياً و إقامة نظام جديد أساسه الشوري، وعندما رفض عبد الحميد ذلك يئس جمال الدين الأفغاني وإتخذ موقفاً عدائياً منه، حتي أنه طلب أن يقيله من بيعته. (2)
هذه هي دعوة الأفغاني التي كان لها شأن كبير في يقظة العالم الإسلامي عامة، والنهضة العربية خاصة، بما كان ينشره من مبادئ الحرية وبسبب إتجاهه هذا كان جمال الدين الأفغاني ظلاً ثقيلاً علي الإنجليز، وحتي علي السلطان عبد الحميد وعليه طورد الأفغاني في كل مكان
هامش ص257
(1) محمد بديع شريف مرجع سبق ذكره، ص 37
(2) محمود صالح منسي، مرجع سبق ذكره، ص ص6465
إنتهي الهامش

حيث كان يشعل نيران الثورة أينما رحل، يقول برنارد ميشيل (أينما ذهب الأفغاني كان يترك وراءه ثروة تغلي مراجلها ولسنا نعدو الحق أو نكون مبالغين إذا قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة وحركات الإنتفاض علي المشاريع الأوروبية التي نشاهدها في الشرق ترد أصولها مباشرة إلي دعوته) (1)
وجدير بالذكر أن دعوة الأفغاني الإصلاحية بصفة عامة هي في مظهرها حركة سياسية، ولكنها في جوهرها حركة إسلامية حيث أن كل أفكاره ومبادئه من الوحدة الإسلامية والأخذ بالمدنية الغربية، ومقاومة الإستعمار الأوروبي، ونقد حكام الممالك الإسلامية، ونبذ الخصومة بين الشيعة والسنة، ومحاربة المذهب الطبيعي – كل هذه الآراء كانت تصدر عن فكر ومنطلق إسلامي، ولغاية إسلامية وهذا ما جعل دعوته بمراحلها المختلفة يمكن أن يطلق عليها حركة تجديد إسلامية عصرية مستنيرة متطورة، تختلف عن الحركات الأخري كالوهابية والسنوسية والمهدية .
جمعية الشوري العثمانية:
كان من نتيجة سياسة السلطان عبد الحميد القائمة علي إضطهاد ومطاردة الأحرار العرب أن لجأ كثيراً منهم إلي مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وقد شعروا أنهم في مصر يستطيعوا أن ينعموا بالحرية التي تمكنهم من قيامهم بنشاطهم السياسي، فبعد سنة1897م بقليل تأسست أول جمعية سياسية علي أيدي زعماء من العرب المقيمين في مصر تحت إسم جمعية (الشوري العثمانية) (2)، وكان من مؤسسيها السيد محمد رشيد رضا، و رفيق العظم . غير أن الذي تولي رئاستها هو السيد محمد رشيد
هامش ص258
(1) محمود كامل، مرجع سبق ذكره ص 38
(2) زين نور الدين زين، مرجع سبق ذكره، هامش رقم 12، ص195
إنتهي الهامش

رضا (1)، وقد أسهم في فعاليتها و إدارتها زعماء آخرون من مختلف أنحاء الدولة العثمانية، من ترك و أرمن وجركس، وكان الهدف من تأسيسها الوقوف في وجه ما أسموه المظالم الحميدية، وفساد الحكم الجائر والعمل علي تغيير شكل الحكومة إلي النظام النيابي وكان للحكومة فروع في أنحاء الدولة العثمانية، وكانت منشوراتها تطبع بالعربية والتركية، وترسل إلي الموانئ التركية علي البحر الأسود مع المسافرين وبحارة المراكب الروسية، حيث يتسلمها مندوبون سريون ثم توزع في جميع أنحاء الأناضول (2).
هذه بالإضافة إلي أن مكاتب البريد الأجنبية التي أنشأتها الدول الأوروبية بمقتضي إمتيازات حصلت عليها في أراضي الدولة العثمانية – من أجل مخابراتها الخاصة بسبب عدم كفاية مصلحة البريد العثماني للقيام بهذه المهمة – كانت هذه المكاتب من أضمن الوسائل لإيصال صحف الأحرار ورسائلهم ومنشوراتهم من الخارج إلي داخل الدولة، حيث يتسلمها رسل سريون ويوزعونها علي الشعب، وقد ضاق السلطان عبد الحميد ذرعاً بهذه المكاتب، وصمم علي إخضاعها لمراقبته، فلما إجترأ عام1901علي الإيعاز بتفتيش أكياسها، تظاهرت الدول بأساطيلها أمام المواني العثمانية وأجبرت السلطان علي الإعتذار والتعهد بعدم العودة إلي مثل ذلك (3).
وقد إزداد نشاط جمعية الشوري العثمانية، وأصدرت في مصر جريدة بإسمها، وكان يتولي تحريرها حقي العظم (4) . مما أقض مضجع السلطان عبد الحميد، حتي إنه إعترف لأحد أعوانه أنه عندما سمع خبر هذه الجمعية لم ينم ثلاث ليال حتي أخبره أحد

عملائه السريين في
هامش ص259
(1) إبراهيم العدوي: رشيد رضا الإمام المجاهد، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة1964م ، ص222
(2) محمود صالح منسي، مرجع سبق ذكره، ص ص74 – 75
(3) توفيق علي برو، مرجع سبق ذكره ص52
(4) محمد عزه دروزه، مرجع سبق ذكره، ص103
إنتهي الهامش

ص260

مصر عن الأشخاص الذين أسسوها . وقد أطلق عليها عبدالحميد اسم "الجمعية الفاسدة" . وقد حَلت هذه الجمعية نفسها بعد ظهور تركيا الفتاة سنة1908م (1) .

وإننا نلاحظ أن اشتراك قوميات مختلفة منها الأتراك أنفسهم في هذه الجمعية وطبيعة الهدف الذي كانت تسعى إليه ثم اختفاؤها بعد وصول تركيا الفتاة إلى الحكم يعطينا الدليل الواضح على أن هذا النشاط العربي لم يكن بدافع قومي صرف بل انحصر الهدف في تغيير الحكومة وإدخال بعض الإصلاحات مع استمرار الارتباط بالدولة العثمانية وكان ذلك أحد الاتجاهات العربية في تلك الفترة بل يكاد يكون هو الطابع العام لهذه المرحلة من كفاح العرب .

المساعي القومية المتفرقة

الإصلاحيون العرب :

بالإضافة إلى تلك التجمعات العربية ذات الأنشطة القومية المختلفة . كانت توجد أنشطة أخرى متفرقة ذات اتجاه قومي لا يمكن تجاهلها قام بها بعض الأفراد ممن تشربوا المبادئ الدستورية عن طريق احتكاكهم بالثقافة الغربية ذات الروح القومية في القرن التاسع عشر الميلادي من أمثال : فرنسيس فتح الله مراش الحلبي . وأديب إسحاق ورزق الله حسون ، وأمين الريحاني ، وجبران خليل جبران ، وإلياس حبالين ، وشلبي شميل (2) ، ولويس صابونجي ، وخليل غانم ، وخليل سركس (3) ، وغيرهم من الذين كانوا حرباً على الاستبداد والحكم المطلق وكانوا يرون أن الأخذ بمبادئ الحرية وأساليب الحكم الدستورية واجب مطلق على الحكومات ، وإلا حيل بينها وبين التقدم والازدهار وسعادة الشعوب . وقد

هامش ص260

(1) زين نور الدين زين : مرجع سبق ذكره ، هامش رقم12، ص195 .

(2) توفيق علي برو : مرجع سبق ذكره ص 21 .

(3) محمود صالح منسي : مرجع سبق ذكره ص76 .

انتهى الهامش

ص261

رفع هؤلاء الأحرار أصواتهم في مواطنهم الأصلية وفي مهاجرهم في مصر ولندن وباريس ، فنظموا القصائد ، ودونوا المقالات . وأصدروا الجرائد والمجلات للتعبير عن تلك الآراء على الرغم مما لا قوه من اضطهاد وتغريب (1) .

ويجب الإشارة إلى أن هؤلاء الأحرار لم يكونوا كلهم يطالبون بالثورة على الدولة العثمانية والانفصال عنها ، بل كان هناك حتى بين الكتاب المسيحيين أنفسهم بعض االمعتدلين الذي -رغم كراهيتهم للحكم العثماني والإدارة العثمانية- لم يرغبوا في تحطيم الإمبراطورية العثمانية ، بل كانوا يطالبون بإصلاح شؤونها المختلفة والاعتراف بحقوق العرب في نطاق الجامعة العثمانية ، ومن بين هؤلاء : سليم تقلا مؤسس الأهرام وفارس غر صاحب ومحرر المقطم والشاعر خليل مطران صاحب جريدة الجوائب ، وجورجي زيدان مؤسس الهلال وفرح أنطون صاحب ومحرر الجمعية العثمانية (2) .

وقد كان لهذه الأنشطة المتفرقة أثرها في يقظة الشعور القومي وإن اختلف حجم ذلك الأثر قلة وكثرة لعدم وجود برنامج سياسي قومي منظم لمعظمها تسعى من خلاله لتحقيق أغراضه . لكن الأمر الواضح في كل أثر من هذه الأنشطة إيقاظ العرب من رقادهم ، وتنبيه أفكارهم إلى ضياع حقوقهم في الدولة وكان أبرز هذه المساعي القومية المتفرقة ذات البرنامج السياسي في تلك الفترة : الأول -ما قام به المفكر العربي المسيحي "نجيب عازوري" ، والآخر -ما قام به المفكر العربي الثائر المسلم "عبد الرحمن الكواكبي" .

هامش ص261

(1) توفيق علي برو ، مرجع سبق ذكره ، ص21 .

(2) المرجع السابق ، ص73 : محمود صالح منسي : مرجع سبق ذكره ، ص77 : شمس الدين الرفاعي : مرجع سبق ذكره ، ص59 .

انتهى الهامش

ص262

وهكذا يمكن القول بأن حركة القومية العربية الوليدة بدأت تحبو على مسرح الأحداث منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، ولكن كان يعوقها عن التقدم عاملان :

الأول - أثر الرابطة الإسلامية في نفوس العرب .

الآخر - أمل العرب في نجاح المساعي المشتركة مع أحرار الترك للقضاء على الحكم المطلق الحميدي ، وإقامة قواعد حكومة دستورية يجد العرب والترك فيها أمانا من الظلم وضماناً لحقوقهم المشتركة .

نجيب عازوري (تـ1916م) :

ظهرت في مطلع القرن العشرين حركة سياسية خطيرة كانت تهدف إلى تكوين دولتين في البلدان العربية من قارة آسيا :

الأولى - دولة دينية عربية إسلامية مستقلة ، على غرار الفاتيكان في روما . وتشمل هذه الدولة إقليم الحجاز ، وتكون عاصمتها مكة وتحكمها أسرة عربية ، ويلقب حاكمها باسم الخليفة وتشمل سلطته الروحية جميع المسلمين في شتى أنحاء الأرض . على أن يكون نفوذه السياسي مقصوراً على بلاد الحجاز .

الأخرى - دولة عربية علمانية ، تتمثل في سلطنة دستورية تضم بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) . ويكون رئيسها أحد أفراد الأسرة الخديوية في مصر ، تجنباً لما قد يحدث من نزاع بين الطوائف على اختيار هذا السلطان الجديد ، على أن تسير هذه الدولة على المبادئ العصرية المستقاة من الحضارة الأوروبية الغربية .

ص263

وقد تزعم هذه الحركة "نجيب عازوري" . الذي كان يمثل وجهة نظر مسيحيّ الشام القوميين (1) . الذين ترددوا في دفع فكرة القومية العربية بمعناها الشامل لمفهوم الأمة العربية ؛ خوفاً من أن تتكشف القومية العربية بهذا المعنى عن شكل جديد من أشكال السيطرة الإسلامية . لذا رأوا أن يصبوا في قالب مفهومهم للعروبة محتوى مفهومهم للبنان أو لسوريا ، فيحلموا بأمة عربية تكون منفصلة عن أساسها الديني وتضم المسلمين والمسيحيين جميعاً بدون أي وجه من وجوه التفريق . وتتمتع بحماية من قبل أوروبا الليبرالية (2) .

كان نجيب عازوري -العربي المسيحي السوري- يتولى منصب نائب متصرف القدس بين عامي1899-1904م ثم استقال من منصبه أثر خلاف وقع بينه وبين رئيسه كاظم بك متصرف القدس بسبب سوء الإدارة العثمانية .

وقام بعد استقالته بجولة في مدن الشام لمدة شهرين يدعو فيها إلى إنشاء حزب سياسي جديد أسماه "رابطة الوطن العربي" . إلا أن نشاطه أقلق السلطات التركية ومن ثم سارع بالهجرة من الشام إلى فرنسا (3) . ثم إلى القاهرة حيث بقي فيها إلى أن توفى عام 1916م

وقد بدأت دعوته في باريس سنة1904م . حيث أسس -بالاشتراك مع يوجين يونج (4)- رابطة الوطن العربي ، والتي كانت تهدف إلى تحرير الشام من السيطرة التركية . وقد وجهت هذه الرابطة نداءات حارة متتالية إلى العرب تخضهم على الثورة (5) .

هامش ص263

(1) عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ، ص ص30-31 .

(2) ألبرت حوراني : مرجع سبق ذكره ، ص331 .

(3) عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ، ص31 .

(4) أحد موظفي مصلحة الاستعمار الفرنسي السابقين .

(5) جورج أنطونيوس : مرجع سبق ذكره ، ص172 .

انتهى الهامش

ص264

وفي عام1905م نشر نجيب عازوري أفكاره باللغة الفرنسية في كتاب بعنوان : "يقظة الأمة العربية امام مصالح ومنافسات الدولة الأجنبية" . وقد أعرب في هذا الكتاب عن رأيه في وجود أمة عربية واحدة تضم المسلمين والمسيحيين على قدم المساواة . وتشمل جميع الأقاليم العربية في آسيا دون بلدان مصر وشمال أفريقيا التي كانت واقعة خارج نطاق اهتمامه كقومي عربي ؛ فمصر لم تكن في نظره عربية بكل معنى الكلمة (1) .

وقد دعا إلى استقلال هذه الأمة في نطاق تلك الحدود . كما هاجم عازوري -في كتابه- الطائفية واعتبرها خطراً يهدد الحركات القومية بالقضاء عليها من أساسها ، ورأى أن المشاكل الدينية التي تنشأ بين مختلف الطوائف ليست سوى مشاكل سياسية تثيرها الدول الأجنبية في سبيل مصالحها الخاصة . وأن المسيحيين ليسوا أقل عروبة من المسلمين (2) ، الأمر الذي دفعه إلى الدعوة إلى إنشاء دولة دينية يحكمها خليفة عربي في الحجاز ، وأخرى علمانية في الشام . وهذا -في رأيه- حل يرضي الجميع : يرضي المسلمين الذين تهفو أفئدتهم إلى نظام الخلافة الإسلامية الصحيحة بعد انتزاعها من الأتراك الذين اغتصبوها من العرب ، ويقضي على مخاوف المسيحيين على اختلاف مذاهبهم ، واليهود في الشام بعدم خضوعهم للنظم الإسلامية في هذه الدولة الجديدة التي كان يرى أن تقتصر على الشام فقط دون مصر أو العراق لأنه كان يخشى قيام وحدة سياسية كبيرة فيتحول مسيحيو الشام فيها إلى أقلية (3) . وبذلك تظهر نزعة عازوري الإقليمية السورية على الرغم من تنديده أكثر من مرة بالطائفية وخطرها على الوحدة العربية .

هامش ص264

(1) ألبرت حوراني : مرجع سبق ذكره ، ص332 .

(2) نور الدين حاطوم : مرجع سبق ذكره ، ص17 .

(3) عبد العزيز الشناوي : مرجع سبق ذكره ، ص ص31-32 .

انتهى الهامش

ص265

وقد قدّم عازوري عام1905م مذكرة إلى الدول ونشرها في صدر كتابه ، قال فيها : إن القومية العربية حقيقة واقعة ، وإن الوعي العربي قد انتشر بين العرب ، وهم يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية وتأسيس دولة مستقلة خاصة بهم . وأعلن استعداد العرب -عند قيام هذه الدولة- أن يحترموا المصالح الأجنبية وجميع الامتيازات التي منحها الأتراك ، وأن يحترموا استقلال لبنان الداخلي والأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين ، وكذلك استقلال الإمارات العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج (الفارسي) . كما أعلن أنه لا يطالب الدول الكبرى بالتدخل المسلح لتأييد تلك الحركة وإنما كل ما يرجوه منها هو مجرد الوقوف على الحياد وتشجيع العرب وجدانياً على أن يقوم العرب بتحقيق أهدافهم بأنفسهم (1) .

ولعل مما يلفت النظر اهتمام عازوري بمسألة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتنبيهه إلى خطر المطامع الصهيونية في ذلك القطر العربي ، ولعل وجوده في متصرفية القدس مدة خمس سنوات جعله يولي هذه المسألة جزءاً من اهتمامه في كتابه يقظة الأمة العربية ، وقد وعد بإصدار كتاب خاص بهذه المسألة ، غير أنه وإن لم يفعل ذلك فقد خصص فصلاً مستقلاً في كتابه عن اليقظة العربية في فلسطين (2) . ولفت الأنظار إلى أن اليهود قد شرعوا في ذلك الوقت في تأسيس مستعمرات زراعية لهم بين الخليل وحبرون والحولة (3) .

وقد ذكر في تحذيره من المطامع الصهيونية في فلسطين قائلاً : "تبرز في هذه الآونة في تركيا الآسيوية ظاهرتان خطيرتان متناقضتان على وحدة طبيعتهما ، هما : يقظة الأمة العربية . وسعي اليهود الخفي

هامش ص265

(1) المرجع نفسه ، ص ص32-33 .

(2) هذه التهمة منجافية للحقيقة . وللرد عليها انظر موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الحركة الصهيونية ، وتشدده في رفض مطالب الصهيونيية في الفصل الخاص بالسلطان عبد الحميد .

(3) عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ، ص33 .

انتهى الهامش

لإعادة ملك إسرائيل القديم على نطاق واسع إنه مكتوب لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب الواحدة على الأخرى ، وعلى نتيجة هذا الصراع الأخير ... يتوقف مصير العالم أجمع" (1) . على أن عازوري قد ألمح في وقت لاحق "إلى أن إنشاء المستعمرات والمصارف اليهودية يؤدي إلى تقوية القومية العربية بفضل مصالح أقطاب المال في العالم" (2) . وهذا يدل على مدى التناقض الفكري عند عازوري .

وقد اعتقد عازوري أن أوروبا في استطاعتها حماية العرب من هذا الخطر الصهيوني أكثر مما تستطيعه الدولة العثمانية ، كما لاحظ أيضاً أن بعض قناصل الدول الأوروبية يعملون أحياناً على تسهيل عمليات الهجرة اليهودية دون وجود هدف سياسي لهم وذلك بسبب انخداعهم بالفكرة الإنسانية التي يتستر اليهود وراءها (3) .

وفي سنة1907ك أصدر عازوري في باريس بالاشتراك مع بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين الذين استطاع أن يستميلهم إليه ، وأن يكسب تعاونهم -أصدر معهم مجلة شهرية باللغة الفرنسية اسمها "الاستقلال العربي" بهدف نشر المعرفة عن البلاد العربية وإذارة الاهتمام بقضية تحريرها . وقد ظهر العدد الأول منها في أبريل سنة1907م ثم توقفت عن الصدور حين أعلن الدستور العثماني في يوليو سنة1908م (4) .

وعلى الرغم من أن دعوة عازوري قد أثارت شيئاً من الاهتمام في أوروبا في ذلك الوقت ، ولكن أثرها فيما يختص بالحركة القومية العربية لا يكاد يذكر . ذلك أن نشاطها ومقرها كان في باريس وباللغة

هامش ص266

(1) ألبرت حوراني : مرجع سبق ذكره ، ص33 : نور الدين حاطوم : مرجع سبق ذكره ، ص ص17-18 .

(2) ألبرت حوراني : مرجع سبق ذكره ، ص333 .

(3) عبد العزيز الشناوي : الوحدة العربية ، ص33 .

(4) جورج أنطونيوس : مرجع سبق ذكره ، ص ص172-173 .

انتهى الهامش

ص267

الفرنسية ، كما أن صاحبها كان داعية للدول الغربية (إنجلترا وفرنسا) . إذ لم يخل كتابه من تمجيد لهما فكان لذلك مجلبة للشك والريبة (1) . الأمر الذي أدى إلى فقد دعوته فاعليتها ، فلم تنفذ إلى أعماق الحركة القومية إذ لم يكن أحد من الشباب العرب -كما يؤكد الأمير مصطفى الشهابي- يهتم بكتابه (2) .

على أن قيمة هذه الدعوة تكمن في أنها قدمت لنا المثل الحي على ما ترتب على التعليم الأجنبي من انحراف بعض دعاة الثورة العربية عن منبعها الأصيل ، كما مثلت اتجاهات فئة معينة من فئات الشعب العربي المسيحي في لبنان فلا غرابة أن اتفقت هذه الدعوة مع وضع صاحبها كـ "ماروني لبناني" .

عبد الرحمن الكواكبي (1855 - 1902م) :

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي كان العالم العربي يموج بتيارين فكريين متصارعين : التيار الفكري الإسلامي الذي يدعو إلى وحدة المسلمين (الجامعة الإسلامية) في مواجهة الخطر الأوروبي الزاحف عليهم . وكان الأفغاني هو روح حركة الجامعة الإسلامية ، وقد تبنى هذه الحركة وألقى عليها صبغة الحركة العملية السلطان عبد الحميد الثاني كما سبق أن ذكرنا وقد أيدها بعض المفركين والزعماء من أمثال : شكيب ارسلان ، ورشيد رضا ، ورفيق العظم ، ومصطفى كامل . والتيار الفكري القومي الذي تنادي إليه مسيحيو الشام . ويطلق عليهم القوميون المسيحيون العرب ، وقد

هامش ص267

(1) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ، ص74 .

(2) الأمير مصطفى الشهابي : مرجع سبق ذكره ، ص59 .

انتهى الهامش

ص268

تبلور هذا التيار في ظهور "جمعية بيروت السرية" سنة1875م . والتي كانت إيذانا بمولد الحركة القومية العربية الحديثة . ذلك أنها كانت أول تعبير عن الأهداف السياسية إذ دعت إلى فكرة الدولة الوطنية الحديثة المستقلة سياسياً والقائمة على أساس قومي .

وقد ظلت هذه الحركة تحبو متعثرة ولم تستطع تحقيق أهدافها لعدة عوامل من أبرزها : أنه لم يكن من المتصور أن يقود المسيحيون -وهم قلة عددية في وسط محيط إسلامي- حركة ثورية تهدف إلى تحرير العرب وتخليصهم من ربقة الحكم التركي .وانفصالهم عن السلطان العثماني الذي كان خليفة المسلمين في وقت كانت فيه المجتمعات لاتزال تحمل الطابع الإسلامي ، فكانت العاطفة الدينية لاتزال تسيطر على أفئدة الملايين دون أية اعتبارات أخرى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : كون قيادة هذه الحركة القومية مسيحية أدى إلى ظهور نعرتها الطائفية ، لأنها كانت رداً على حركة الجامعة الإسلامية . مما دفع المستعمرين الأوروبيين إلى تأييدها فأحاطت بها الشكوك من يمين وشمال . الأمر الذي جعل المسلمين ينفرون منها ويمتنعون عن تأييدها .

في تلك الفترة ظهر المفكر العربي المسلم عبد الرحمن الكواكبي -الحلبي المولد- الذي هاجر إلى مصر سنة1900م ؛ فراراً من ملاحقة المسؤولين العثمانيين له في سوريا . وفي مصر جاهر الكواكبي بآرائه وأفكاره التي كانت تنم عن إيمان عميق بمستقبل الإسلام والعنصر العربي . والتي كانت نقطة تحول في الفكر القومي العربي الحديث ، ذلك أن مفهوم القومية العربية لدى الكواكبي كان يرتكز على أمجاد العرب وتراثهم الخالد ، وينأى عن التعصب الجنسي أو الديني . فلم تكن قضية العروبة -عنده- تناقض الدعوة

إلى الجامعة الإسلامية ، ولا كانت الخلافة الإسلامية أمامه هدفاً يعاديه أو يبتغي النيل منه . بل كان جل اهتمامه أنه لم يعلق على الخلافة العثمانية مستقبل العرب .

ص269

ولا مستقبل المسلمين ، ورأى أن نهضة العرب واستقلالهم هما السبيل إلى نهضة الإسلام والمسلمين ، وعلى الرغم من كونه مجدداً إسلامياً سلفياً ، فإنه لم يكن متعصباً . فقد كانت القومية العربية التي نادى بها ومهد لها الطريق قوميةً عربية أساسها : الإيمان بالله على أي دين يعبد ، فالدين عنده لله والوطن للجميع ، ومن ثم فقد التفت الكثيرون حولها .

وقد عبر الكواكبي عن آرائه في كتابيه "طبائع الاستبداد" و "أم القرى" . ففي طبائع الاستبداد -هاجم الكواكبي الاستبداد والمستبدين ، وتعرض لأسباب الاستبداد ومساوئه ، وأبرز تأثيره الفاسد في كل القيم الإنسانية كالدين والعلم والمال والأخلاق والمجد والترقي ، حيث ربط ربطاً وثيقاً بين فساد هذه القيم وبين الاستبداد كعامل له أثره الضار والمفسد ، ورغم أن الكواكبي لم يذكر مستبداً معيناً إلا أن القارئ يلمح من خلال كتابه صورة السلطان عبد الحميد الثاني (1) .

وفي كتابه "أم القرى" حلل الكواكبي مفاسد الدولة العثمانية ، وانتقد إدارتها المركزية وأنكر على السلاطين تلقبهم بألقاب الخلافة لأنها غير شرعية بالنسبة لهم . ودعا إلى دعوة الخلافة إلى العرب . وذلك بإقامة خلافة عربية قرشية في مكة (2) . ولكن على الرغم من أن الكواكبي قد نادى -شأنه شأن الأفغاني- بجميع المسلمين بين مراكش والصين في نظام اتحادي واحد كالجامعة الإسلامية . إلا أن دعوة الكواكبي انطوت على تطور قومي عربي ، فقد أخذ يشيد بفضل العرب ، وببين حقوقهم المهضومة . وكان يرى أن نهضة المسلمين لن

هامش ص269

(1) انظر طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، المطبعة العمومية ، القاهرة1321هـ

(2) أم القرى ، المطبعة العصرية ، حلب1959م ، ص ص168، 169، 170، 228، 229، 231، 239 .

انتهى الهامش

صفحة270

تتم إلا بنهضة العرب، فهم الذين نهضوا بالمسلمين أولا، فلا عجب إذا قاموا بدورهم التاريخي والديني فى إنهاض المسلمين ثانيا(1).

وعلى الرغم من تشابه دعوة الأفغاني والكواكبي في الدعوة إلى وحدة المسلمين، فإننا نجد الأفغاني يدعو إلى وحدتهم تحت أي خليفة، بينما كان الكواكبي ينادي بخليفة عربي قرشي في مكة. وليس معنى هذا أن الكواكبي كان متعصبا دينيا أو جنسيا. بل على العكس كان يدعو إلى نبذ الخلافات الطائفية. والحصول على الاستقلال الإداري لكل القوميات الداخلة في الدولة العثمانية. ولذلك فقد كان له أصدقاء من المسلمين ومن المسيحيين ومن اليهود. وكان يعلن دائما أن الدين لله والوطن للجميع، ويسمو بذلك على الخلافات الطائفية والمذهبية(2).

ومن ثم قام الكواكبي بدور بارز في اليقظة العربية والإسلامية الحديثة، لأنه بدعوته تلك نقل قيادة زمام الحركة العربية من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين. الأمر الذي مهد لازدهار الحركة القومية العربية بعد وفاة الكواكبي في مصر سنة1902م. وكان ذلك تمهيدا للنشاط القومي العربي في عهد الاتحاديين. ذلك النشاط الذي كان يعتبر البذور الحقيقية للثورة العربية سنة1916م.

هامش ص270

(1) المصدر السابق. ص ص217.218. 219. 220. 221. 222.

(2) مارون عبود، رواد النهضة الحديثة، دار الثقافة، بيروت،1966، ص ص257 –258؛ جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، جزءان، مطبعة الهلال، مصر1922، ج 1، ص324.

انتهى الهامش

صفحة 271

الفصل العاشر

غروب شمس الدولة العثمانية

وظهور الجمهورية التركية

صفحة 273

الاتحاد والترقي يهوي بالدولة العثمانية:

كانت الحركة القومية التركية قد تغلغلت بشكل كبير في الدولة العثمانية على أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأنشأ الداعون لهذه المفاهيم المؤسسات والجمعيات التي تحمل أفكارهم. وكان من أهم هذه الجمعيات جمعية (تركيا الفتاة) التي تأسست في فرنسا، وكان لها فروع أخرى في برلين وسالونيك والآستانة والقاهرة وغيرها.

واستطاعت (تركيا الفتاة) أن تضع لها قدما في الجيش العثماني، وكان لها جناح عسكري عرف بـ "تنظيم الاتحاد العثماني"، وكان لها جناح مدني هو "الانتظام والترقي". واتفق الفريقان أن تكون جمعيتهم باسم "الاتحاد والترقي" الذي استطاع أن يمتد نفوذه في الحكومة العثمانية وفي الجيش بصورة ملحوظة.

ولم تنجح محاولات السلطان عبد الحميد بتقليص نفوذهم، بل استطاع الاتحاديون في نهاية الأمر الانقلاب عليه عام1908، ثم خلعه عام1909م ، وتعيين أخاه "محمد رشاد" المعروف ب "محمد الخامس".

تولى محمد الخامس العرش والدولة في احتضار، وأصبح الاتحاديون هم الحكام الفعليين للبلاد، أما السلطان فكان مجرد ألعوبة في أيديهم، وفي ذلك الوقت كانت بلاد كثيرة من الدولة العثمانية تستقل يوما بعد يوم، خاصة فى أوروبا،

صفحة 274

إضافة إلى ارتفاع وتيرة الحركة القومية في البلدان العربية والكردية، وإفلاس خزينة البلاد بسبب الحروب المتواصلة.

توالي السقوط:

في عام1909م، أي في العام الذي اعتلى فيه محمد رشاد العرش، سيطرت إمبراطورية النمسا والمجر على البوسنة والهرسك. وفي عام1911م لم تستطع القوات العثمانية صد القوات الإيطالية التي احتلت ليبيا.

وفي عام1912م اندلعت حرب البلقان الأولى ضد الدولة العثمانية من قبل كل من: صربيا، والجبل الأسود، واليونان، وبلغاريا. وفقدت فيها الدولة العثمانية ما تبقى لها من ممتلكات في البلقان عدا تراقيا الشرقية ومدينة أدرنة. وانسحب حوالي400000مسلم من سكان تلك البلاد إلى الأراضي التركية؛ خوفا من العواقب. ومع أنها استردت بعض الأراضي في حرب البلقان الثانية عام1913م إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام التالي أفقدها كل ولاياتها في القسم الأوروبي.

ورطة الحرب العالمية الأولى (1914 –1918م):

ورط الاتحاديون الدولة العثمانية بالمشاركة في الحرب العالمية الأولى على الرغم من أنه لم يكن لها فيها ناقة ولا جمل. وانضمت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا وحلفائها بعدما فشلت محاولات تقاربها مع بريطانيا وفرنسا. وفشلت أيضا في الحصول منهما على قروض عاجلة لدعم خزينتها الفارغة. وعزلت الدولة سياسيا بعد حروب البلقان. فقام الاتحاديون عن طريق الباب العالي بإلغاء الامتيازات الأجنبية، ملبين بذلك إحدى المطالب الرئيسية للقوميين الأتراك، ثم

صفحة 275

اتخذوا خطوة أخرى في طريق التحدي بإغلاقهم المضائق بوجه الملاحة الأجنبية. كما ألغوا مكاتب البريد الأجنبية وجميع السلطات القضائية غير العثمانية.

وقد بعثت الانتصارات الألمانية الخاطفة على الجبهة الروسية الأمل في نفوس الاتحاديين، بشأن إمكانية استعادة الأراضي العثمانية المفقودة لصالح روسيا المهزومة. فهاجم الأسطول العثماني الموانئ الروسية في البحر الأسود. فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، ثم أعلنت بريطانيا وفرنسا. وتجاه ذلك الأمر، رد الباب العالي بإعلان الحرب، ودعا المسلمين إلى الجهاد المقدس. ومنيت القوات العثمانية بهزائم فادحة في الميادين التي قاتلت فيها، سواء ضد الروس أو البريطانيين.

وحاول أسطول الحلفاء احتلال العاصمة العثمانية نفسها "الآستانة"، لكنه عجز عن اجتياز مضيق الدردنيل، وهزم طاقمه فى معركة برية بقوات تركية كان يقودها مصطفى كامل.

في أثناء اشتعال الحرب كانت هناك اتصالات سرية بين البريطانيين والشريف حسين (شريف مكة). وعليها نجح البريطانيون في خداع الشريف حسين بأن يثور العرب على الأتراك وينضموا إلى الحلفاء مقابل وعد بريطاني بمنح العرب الاستقلال في دولة عربية كبرى وإعادة الخلافة إليهم. وتنفيذا لهذا الاتفاق أعلن الشريف حسين في1916م "الثورة العربية" على الدولة العثمانية، وتم طرد القوات العثمانية من الحجاز، وواصلت القوات العربية تقدمها شمالا بقيادة ولديّ الشريف حسين (فيصل وعبد الله) لمشاركة القوات البريطانية في السيطرة على بلاد الشام، وقد كان دون أن تفي بريطانيا بوعدها للشريف حسين.

صفحة 276

حرب الاستقلال التركية (1919 –1922):

إزاء ازدياد الخطر على العاصمة العثمانية قَبِل السلطان "محمد وحيد الدين" المعروف بـ "محمد السادس" (1) هدنة مدروس في 30أكتوبر 1918م. ومع ذلك دخلت قوات بحرية مشتركة (بريطانية وفرنسية وإيطالية) القرن الذهبي، وأنزلت قواتها في الآستانة، التي حولتها إلى قاعدة لنشاط الحلفاء في المنطقة كلها. حيث سيطر الحلفاء على موانئ البحر الأسود، واقتسموا الأراضي التركية، فاحتل الفرنسيون مرسين وأضنة. واحتل الإيطاليون أنطاكية وكوشا داسي وقونية. واحتل اليونانيون القسم الغربي من الأناضول بالإضافة إلى تراقيا.

وفي المقابل رفض الأتراك الخضوع للاحتلال، فقامت احتجاجات في جميع أنحاء البلاد احتضنتها الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كمال (2)، والتي عرفت باسمه "الحركة الكمالية"، لتواجه رغبات الحلفاء

هامش ص 276

(1) تولى محمد السادس السلطنة بعد وفاة أخيه محمد الخامس في يوليو1918م. واستمر في الحكم حتى تنازل عن العرش لأخيه في أكتوبر 1922م.

(2) مصطفى كمال (1881 –1938م) الذي أطلق عليه "أتاتورك"، أي أبو الأتراك، ولد في سالونيك أكبر تجمعات يهود الدونمة في الدولة العثمانية، ولذلك رجح البعض أنه كان من يهود الدونمة؛ نظرا لأفعاله الخسيسة ومحاربته الشديدة للإسلام. وكان أحد رجال الاتحاد والترقي، وكان أحد القادة في الجيش العثماني في الشام، وكان دائم الفرار أمام جيوش الحلفاء حتى قيل إن فراره امتد من الشام إلى بلاد الأناضول في الحرب العالمية الأولى، ووجد أعداء الإسلام فيه ضالتهم لضرب آخر وشيجة يتلف حولها المسلمون.

انتهى الهامش

صفحة 277

ومحاولات اليونانيين توسيع المناطق التي احتلوها، وازدياد الثورات الأرمنية. وعقدت الحركة الكمالية مؤتمرات عديدة في طول البلاد وعرضها لاستنهاض الوعي القومي وإنقاذ البلاد من التقسيم، وتشكلت حكومة برئاسة مصطفى كامل بهدف إقامة دولة تركية مستقلة. وقامت هذه الحكومة بعدم الاعتراف بجميع القوانين والتعليمات التي أصدرتها الحكومة السابقة، بل ووضعت السلطان وحكومته خارج إطار القانون. وقد حاول السلطان القضاء على هذه الحركة، لكنه لم يفلح، فغادر البلاد منفيا.

وفي تلك الفترة، عقدت معاهدة "سيفر" أغسطس1920م (إحدى معاهدات مؤتمر الصلح الدولي). والتي مزقت أوصال الدولة العثمانية. وقد وقع عليها السلطان محمد السادس مرغما، في حين رفضتها الحكومة الكمالية.

وميدانيا تمكن مصطفى كمال من الانتصار على اليونانيين، واستعاد الأراضي التي احتلوها، وفرض على الحلفاء توقيع هدنة جديدة اعترفت فيها اليونان بانتصارات تركيا، فأضحى مصطفى كمال بطلا قوميا، وبرز في الواجهة السياسية، في حين تراجع موقف السلطان، فما كان منه إلا أن تنازل عن العرش واعتزل الحياة السياسية، وغادر البلاد على ظهر بارجة بريطانية نقلته إلى جزيرة مالطة في أكتوبر 1922م.

صفحة 278

واعتلى عرش السلطنة العثمانية عبد المجيد الثاني (1922 - 1924) آخر سلاطين وخلفاء الدولة العثمانية، لكن دون أن يكون له أي أثر، فمصطفى كمال أصبح سيد الموقف في تركيا.

ونجح مصطفى كمال في توقيع معاهدة لوزان1923مع الحلفاء، والتي تنازل بمقتضاها عن باقي الأراضي العثمانية غير التركية، ثم جرد السلطان من السلطة الزمنية وجعله مجرد خليفة، أي أشبه بشيخ الإسلام، ولكن من غير سلطة روحية أيضا. ثم أعلن قيام الجمهورية التركية التي أصبح رئيسا لها حتى وفاته في عام1938م.

ثم ألغى مصطفى كمال الخلافة في العام التالي (مارس1924م). وطرد عبد المجيد من البلاد، وطرد معه كامل أفراد الأسرة العثمانية، وصادر أملاكهم. فذهب هؤلاء ليعيشوا في المنفى، ومنعوا من العودة إلى تركيا(3).

هامش ص278

(3) في سنة1974م أصدر البرلمان التركي قرارا ينص على جواز منح الجنسية التركية للمنفيين المنحدرين من نسل عثمان الأول، وتم إعلامهم بذلك عن طريق السفارة التركية في كل بلد يعيشون فيه. يندرج ضمن قائمة المدعين بالحق في العرش العثماني. "محمد أورخان" ابن الأمير محمد عبد القادر تـ1994م. و"أرطغرل عثمان" أصغر أحفاد السلطان عبد الحميد الثاني، والذي لقبه الأتراك بـ "العثماني الأخير". وقد عاد أرطغرل عثمان إلى تركيا للمرة الأولى في1992م. وحصل على الجنسية والهوية التركية في2002م. وتوفي في2009م في إسطنبول عن عمر ناهز 97سنة. ولم ينجب أولادا. ويقول

انتهى الهامش

صفحة 279

وفي الواقع، إن دول الحلفاء لم تسمح لمصطفى كمال بأن يكون له الكلمة الطولى في تركيا إلا بعدما أدركت أن مصالحها ستتحقق على يده. وبعدما حقق لهم شروطهم، وهي:

1- إلغاء الخلافة الإسلامية بشكل تام.

2- قطع أي صلة لتركيا بالإسلام.

3- أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية في تركيا.

4- أن يحل محل الدستور العثماني دستور مدني علماني بحت بعيدا عن الشريعة الإسلامية(4).

ومن مظاهر ذلك، أن منع مصطفى كمال الزي الإسلامي للرجال باستبدال الطربوش بالقبعة، ومنع ارتداء الحجاب، وسلط جنده على النساء يجردونهن من حجابهن، وفرض كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية، وترجم القرآن باللغة التركية للحيلولة دون قراءته ودراسته باللغة العربية، كما جعل الآذان باللغة التركية، كما ألغى وزارة الأوقاف، ووزارة الأمور الشرعية، والقضاء الإسلامي، والمعاهد الدينية... إلى غير ذلك من السياسات التي توضع تحت بند: علمانية تركيا، وقطع أي صلة لها بالإسلام، دون الوقوف أمام

هامش ص 279

البعض أنه بموت أرطغرل عثمان لم يتبق أحد من المدعين بالحق في العرش العثماني من الذين وُلدوا في الفترة التي كانت الدولة فيها لا تزال قائمة.

(4) فتحي أحمد شلبي؛ الأزهر والخلافة الإسلامية في العصر الحديث دراسة تاريخية وثائقية. القاهرة، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م. ص 53.

انتهى الهامش

ص 280

مقدسات. فلا قدسية إلا لتمثال أتاتورك الذي انتشر وجوده في كل مدينة من كدن تركيا (5).

وبهذا سقطت الدولة العثمانية فعليًا بعد أن استمرت لما يقرب من 600 سنة. وانهارت معها الخلافة الإسلامية بعد أن استمرت ما يزيد عن ألف سنة (6). وأصبحت ولايتها موزّعة بين المحتلين الأوروبيين على الوجه التالي.

الجزائر: احتلتها فرنسا منذ عام 1830م.

عدن: احتلتها بريطانيا منذ عام 1839م. لتتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر الذي كان بحرا إسلاميا وقتها.

ثورة المسلمين في الهند: قضت بريطانيا عليها وأتمت على أثر ذلك احتلال الهند في عام 1857م. حيث كان المسلمون هناك يدعمون الدولة العثمانية.

ثورة الأمير شامل: قضت عليها روسيا في عام 1859م واستولت على القوقاز.

لبنان: في عام 1860م تدخلت قوى الغرب المسيحي في لبنان. وأشعلت الحرب الداخلية بين المارون والدوروز. واستطاعت أن توجد كيانا خاصا تبدأ منه حركة الغزو الفكري بالبعثات التنصيرية إلى العالم الإسلامي كافة.

هامش ص 280:

(5) للمزيد ينظر: فتحي أحمد شلبي: المرجع السابق. الفصل الأول ص 3- 68.

(6) للمزيد ينظر: مصطفى حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية- دراسة حول كتاب" النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة" لشيخ الإسلام مصطفى صبري. دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع -الإسكندرية. الطبعة الأولى 1405هـ - 1985م: عبد الباسط حسن عبد العزيز: حادث إلغاء الخلافة الإسلامية 1924م مقدماته ونتائجه. القاهرة 2001م.

ص 281

قناة السويس: تم افتتاحها في عام 1869م تحت سيطرة القوى العربية. إذ أن قناة السويس وقتها كانت تعد عنق الزجاجة في أدق موقع بين آسيا وأفريقيا وأوروبا.

تونس: احتلتها فرنسا منذ عام 1881م.

مصر: احتلتها بريطانيا منذ عام1882م.

السودان: احتلتها بريطانيا منذ عام1898م.

ليبيا: سقطت تحت الاحتلال الإيطالي1911م.

مراكش(المغرب): سقطت تحت الاحتلالين الفرنسي والأسباني في عام1912م.

دولة البلقان: أعلنت استقلالها عن الدولة العثمانية بعد حربي البلقان الأولى والثانية1912-1913م.

بلاد الحجاز: طردت الحكم العثماني في عام1916م.

بلاد الشام: تم تقسيمها بين المحتلين الغرب طبقًا لاتفاقيات(سايكس بيكو1916م، وتصريح بلفور1917م، وسان ريمو1919م، وسيفر1920م):

فلسطين: احتلتها القوات البريطانية بقيادة اللنبي عام1917م، ومكّنت للصهيونية إقامة وطن قومي فيها طبقا لتصريح بلفور الذي أصدرته بريطانيا في العام نفسه.

سوريا ولبنان: من نصيب فرنسا.

الأردن من نصيب بريطانيا.

العراق(ولايتا البصرة وبغداد): كانت من نصيب بريطانيا، طبقا لاتفاقية سايكس بيكو.

كردستان: أخذت بريطانيا الجزء الجنوبي منها وضمته إلى العراق الذي تحتله، وأخذت فرنسا الجزء الغربي وضمته إلى سوريا التي تحتلها. أم شمال كاردستان فكان من نصيب أتاتورك مكافأة له على موقفه الداعم للغرب. وبقي شر

ص282

كردستان مع إيران الذي تسيطر عليه منذ موقعة تشالديران1514م.

هذا، وقد رثا أمير الشعراء أحمد شوقي الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية بأبيات من الشعر، بعد أن خُدع قبل ذلك في مصطفى كمال عندما انتصر قواته على اليونانيين. وقال فيه قصيدة صدّرها بقوله:

الله أكبر كم في الفتح من عجيب – يا خالد الترك جدد خالد العرب

لكن بعد أن انكشفت لأمير الشعراء الحقائق، ونظم قصيدة رثاء للخلافة الإسلامية، جاء فيها:

وبكت عليك ممالك ونواح – ضجت عليك مآذن ومنابر

تبكي عليك مدمع سحّاح – الهند والهة ومصر حزينة

أمحا من الأرض الخلافة ماح؟! – والشام تسأل والعراق وفارس

وهكذا، تم القضاء على الدولة العثمانية كإمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف، وانحصرت فقط في الجمهورية التركية، القائمة على حكم علماني بحت، على سدنته جنرالات عسكرية مستبدة، أجهضت على مدى90سنة بالانقلابات العسكرية أيّ حركة إسلامية تستطيع بقوة الجماهير الوصول للحكم. حتى نجح أخيرًا حزب العدالة والتنمية(ذو التوجهات الإسلامية) بقيادة الرئيس رجب طيب أوردغان من الوصول للحكم في تركيا، واستطاع الحزب بقوته الشعبية، ومؤسساته المدنية من قصقصة أجنحة الجنرالات، ومحاسبة الفاسدين منهم ومن غيرهم، وتجفيف أماكن نفوذهم، والانطلاق بتركيا نحو دولة المؤسسات القوية(علميًا واقتصاديا وتسليحيا) في ظل العدالة والتنمية داخليا وخارجيا يطلقون دعوات التخويف مما أسموه

ص283

"العثمانية الجديدة"، أي أن حزب العدالة والتنمية يؤسس لقيام دولة عثمانية جديدة، مع أن حزب العدالة والتنمية نفسه ينفي ذلك، معلنين أن هدفهم الرئيس أن تصبح تركيا بحلول عام2023م- بمناسبة مرور100سنة على تأسيس الجمهورية التركية- من أقوى عشر دول في العالم علميًا وسياسيا وعسكريا. وسنرى في السنوات القادمة ماذا سيحدث.

ص285

الفصل الحادي عشر

ملاحق توضيحية

(قائمة السلاطين- مصطلحات عثمانية- خرائط)

ص287

قائمة بالسلاطين العثمانين وفترات حكمهم(1).

اسم السلطان: عُثمان الأوَّل

-فترة حكمه: 1288-1326م.

-بيانات: ابن الأمير أرطغول الغازي وحليمة خاتُم، 27يوليو1299م، أعلن استقلاله عن سلطنة سلاجقة الروم. وحكم حتّى وفاته.

اسم السلطان: أورخان

-فترة حكمه: 1326-1360م.

-بيانات: ابن عُثمان الأوَّل ومال خاتون، أنشأ الجيش الإنكشاريّ. حكم حتىّ وفاته.

اسم السلطان: مراد الأول

-فترة حكمه: 1360-1389م.

-بيانات: ابن أورخان ونيلوفر خاتون. حمل لقب سلطان سنة1383م. حكم حتى استشهاده في معركة قره صون.

اسم السلطان: بايزيد الأول(الصاعقة أو البرق)

-فترة حكمه: 1389-1402م.

-بيانات: ابن مراد الأول وكَلجيجك خاتون. حكم حتى مات في الأسر بعد هزيمته في معركة أنقرة1402م.

فترة نزاع على السلطة

-الفتره: 1402-1413م.

-بيانات: بين أبناء بايزيد الأول(عيسى جلبي وسليمان جلبي وموسى جلبي ومحمد جلبي).

اسم السلطان: محمد جلبي محمد(الأول)

-فترة الحكم: 1413-1421م.

-بيانات: ابن السلطان بايزيد الأول ودولت خاتون. حكم حتى وفاته.

اسم السلطان: مراد الثاني(فترة أولى)

-فترة الحكم:1421-1444م.

-بيانات: ابن السلطان محمد الأول ومنة خاتون. تنازل عن العرش بإرادته لابنه محمد الثاني.

هامش ص287:

اعتمدنا في هذه البيانات على كتب عديدة مختصة بتاريخ الدولة العثمانية، وعلى بعض المواقع الإلكترونية.

ص288

اسم السلطان: محمد الثاني(الفاتح) فترة أولى

-فترة الحكم:1444-1446م.

-بيانات: ابن السلطان مراد الثاني وخديجة هُما خاتون، تنازل عن الحكم لأبيه بعد أن طلب منه العودة لتولي السلطة.

اسم السلطان: مراد الثاني(فترة ثانية)

-فترة الحكم:1446-1451م.

-بيانات: أبو السلطان محمد الثاني.

اسم السلطان: محمد الثاني(الفاتح) فترة ثانية

-فترة الحكم:1451-1481م.

-بيانات: ابن مراد الثاني، فاتح القسطنطينية. بقي في الحكم حتى وفاته.

اسم السلطان: بايزيد الثاني.

-فترة الحكم:1481-1512م.

-بيانات: ابن محمد الثاني ومُكَرّمة خاتون، تنحى عن العرش لابنه، وتوفي بعد تنحيه بشهر.

اسم السلطان: سليم الأول

-فترة الحكم:1512-1520م.

-بيانات: ابن بايزيد الثاني وكَلبهار خاتون. حمل لقب" خليفة المسلمين" منذ عام1517م، وحكم حتى وفاته.

اسم السلطان: سليمان المشرع(القانوني)
-فترة الحكم:1520-1566م.
-بيانات: ابن سليم الأول وعائشة حفصة سُلطان. بلغت الدولة في عهده أقصى درجات التوسع والازدهار. حكم حتى وفاته.

اسم السلطان: سليم الثاني
-فترة الحكم:1566-1574م.
-بيانات: ابن سليمان القانوني وكريمة وسلطان. أول سلطان يهمل قيادة الجيش بنفسه. حكم حتى وفاته.

اسم السلطان: مراد الثالث
-فترة الحكم:1574-1595م.
-بيانات: ابن سليم الثاني وعفيفة نور بانو سلطان. حكم حتى وفاته.

اسم السلطان: محمد الثالث
-فترة الحكم:1595-1603م.
-بيانات: ابن مراد الثالث وصفية سلطان. خرج عن عادة أبيه وجده في ترك قيادة الجيش للصدر الأعظم. حكم حتى وفاته.

سنوات الركود:
-الفتره:1603-1699م.

ص289

اسم السلطان: أحمد الأول
-فترة الحكم:1603-1617م.
-بيانات: ابن محمد الثالث وخاندان سلطان. حكم حتى مماته.

اسم السلطان: مصطفى الأول
-فترة الحكم:1617-1618م.
-بيانات: ابن محمد الثالث وقُلدان سلطان. عُزل عن الحكم بسبب إصابته بعاهة ذهنية، ونصَب مكانه ابن أخيه(عثمان الثاني).

اسم السلطان: عثمان الثاني
-فترة الحكم:1618:1622م.
-بيانات: ابن أحمد الأول وفيروز خديجة سلطان. خلعته الإنكشارية في19مايو1622م، وقُتل.

اسم السلطان: مصطفى الأول(فترة ثانية)
-فترة الحكم:1622-1623م.
-بيانات: عُزل بسبب عاهته مرة أخرى، وحُبس في السراي إلى أن توفي.

اسم السلطان: مراد الرابع
-فترة الحكم:1623-1640م.
-بيانات: ابن أحمد الأول وماه بيكر كوسم سلطان. حكم حتى مماته.

اسم السلطان: إبراهيم العَصَبي
-فترة الحكم:1640-1648م.
-بيانات: أخ شقيق لمراد الرابع. خُلع بانقلاب عسكري قاده شيخ الإسلام. وشُنق في الآستانة بناء على توصية الصدر الأعظم(محمد باشا).

اسم السلطان: محمد الرابع
-فترة الحكم:1648-1687م.
-بيانات: ابن السلطان إبراهيم وتُرخان خديجة سلطان. عُزل بعد هزيمة العثمانيين في معركة موهاج الثانية. وتوفي بعدها بـ6سنوات.

اسم السلطان: سليمان الثاني
-فترة الحكم:1687-1691م.
-بيانات: أخو محمد الرابع من أبيه، وأمه صالحه سلطان. حكم حتى مماته.

اسم السلطان: أحمد الثاني
-فترة الحكم:1691-1695م.
-بيانات: أخو محمد الرابع من أبيه، وأمه خديجة مُعزز. حكم حتى مماته.

اسم السلطان: مصطفى الثاني
-فترة الحكم: 1695-1703م.
-بيانات: ابن محمد الرابع وماه يارة أمة الله رابعة كَلنُش سلطان. عزلته الإنكشارية في أحداث أدرنة.

ص290

* سنوات الأفول

1699-1792م

23- أحمد الثالث

1703-1730م

أخو مصطفى الثانى . خلعته الإنكشاريه . وتوفى بعدها بـ6سنوات.

24- محمود الأول

1730-1754م

ابن مصطفى الثانى وصالحه سبكتى سلطان . حكم حتى وفاته .

25- عثمان الثالث

1754-1757م

أخو محمد الأول من أبيه، وأمه شاة سوار سلطان. حكم حتى وفاته.

26- مصطفى الثالث

1757-1774م

ابن أحمد الثالث وأمينه مهرشاة سلطان. حكم حتى وفاته .

27- عبد الحميد الأول

1774-1789م

أخو مصطفى الثالث من أبيه، وأمه رابعه شرمى قادين سلطان.حكم حتى وفاته.

* سنوات الانحلال

1792-1922م

28- سليم الثالث

1789-1807م

ابن مصطفى الثالث ومهرشاة سلطان .خلعته الإنكشاريه رفضا لإصلاحاته فى الدوله. وأغتيل بعد سنه من خلعه.

29- مصطفى الرابع

1807-1808م

ابن عبد الحميد الأول وباش إقبال نزهه زادة خانم أفندى.خُلع فى عصيان الإنكشارية. وأعدم بعدها بثلاثة أشهر ونصف.

30- محمود الثانى

1808-1839م

أخو مصطفى الرابع من أبيه،وأمه نقشديل سلطان .غرف عهده بالإصحلات، ونجح فى القضاء على الإنكشاريه عام1826م. وحكم حتى وفاته.

ص291

31- عبد المجيد الاول

1839-1861م

ابن محمود الثانى ويزم عالم سلطان . حكم حتى وفاته.

32- عبد العزيز

1861-1876م

أخو عبد المجيد الأول من أبيه، وأمه حسنه سلطان . خلعه وزراؤه ، وبعد خمسة أيام عثر عليه ميّتا (مقتولا أو منتحراً).

33- مراد الخامس

ثلاثه أشهر فقط (30مايو – 31أغسطس1876م)

ابن عبد الحميد الأول وشوق فضة سُلطان . عُزل عن الحكم لإصابته بالجنون . وُضع قيد الإقامة فى قصر جيرغان حتى وفاته 1904م.

34- عبد الحميد الثانى

1876-1909م

أخو عبد الحميد الأول من ابيه، وأمه وتير مُجكَان سلطان .خلعه الاتحاديون فى انقلاب1909م. وحددت إقامته حتى وفاته1918.

35- محمد رشاد (محمد الخامس)

1909-1918م

ابن عبد المجيد الأول وكَل جمال.حكمه كان صوريا حتى وفاته.

36- محمد وحيد الدين (محمد السادس)

1918- 1922م

أخو محمد الخامس من أبيه، وأمه كَلستان منيرة. غادر الآستانة، وتوفى فى منفاه بإيطاليا عام1926م، ودفن بدمشق تنفيذا لوصيته.

37- عبد المجيد الثانى (آخر الخلفاء)1922-1924م

ابن عبد العزيز وخيران ديل قادين أفندى. نفى بعد إلغاء الخلافة، وتوفى بباريس عام1944م، ودفن بالمدينة المنورة بناء على وصيته.

* بعض المصطلحات العثمانية التى تدولت فى البلدان العربية

- المصطلح : الدوله العلية

- مقصوده: الدولة العثمانية أسسها عثمان بن أرطغرل من1299-1924م .

- المصطلح : الباب العالى

- مقصوده:السلطان العثمانى او السلطة المركزية أو الآستانة.

- المصطلح : الصادر الأعظم

- مقصوده: رئيس الوزراء

- المصطلح : باد شاه

- مقصوده: السيد الأعظم .

- المصطلح :إيالة

- مقصوده:ولاية تابعة للدولة العثمانية.

- المصطلح :الديوان

- مقصوده:الوزارة.

- المصطلح : فرمان

- مقصوده : قرار او المرسوم السلطانى. ويقال "فرمان همايونى".

- المصطلح : باش

- مقصوده: رئيس أول

- المصطلح : باش كاتب

- مقصوده: رئيس الكتاب.

- المصطلح :مهردار

- مقصوده:حامل الأختام.

- المصطلح :روزنامه

- مقصوده: روز بمعنى يوم او نهار. بمعنى سجل.فيكون المعنى: سجل الأحوال اليوميه.

- المصطلح : كتبخانه

- مقصوده:دار الكتب(المكتبة).

- المصطلح : باشدفتر

- مقصوده: رئيس الكتاب. وهو مساعد الخزناجى.أو الخزندار مسؤول المالية.المنصرف فى ودائع الخزينة. ومراقبة سك العملة.وتحديد قيمتها.يساعده مجموعة من الموظفين والكتبة والمستخدمين.

- المصطلح :المكتباجى

- مقصوده: من مساعدى الخزناجى. مكلف بسجلات الدولة.

- المصطلح : بيرق

- مقصوده: عَلَم- لواء- راية.

- المصطلح: بيرق الحرب

- مقصوده: العلم الإمبراطورى.

- المصطلح: بيرق دار التفكجية

- مقصوده: حامل لواء الرماة

- المصطلح :سَرعسكر

- مقصوده: سَر بمعنى:الرئيس.فيكون المعنى:رئيس العسكر. وأحيانا تكتب: سارى عسكر.وصارى عسكر.

- المصطلح :الآغا

- مقصوده:قائد الجيش أوضابط القوات البرية.

- المصطلح :ترسخانه

- مقصوده:دار الأسلحة.

- المصطلح :الزردخانه

- مقصوده:السلاح أو خزانة السلاح.

ص293

- المصطلح : تفكجيه

- مقصوده: قناصه- رماة- الجنود حملة البنادق.

- المصطلح :الخاصكجية

- مقصوده:الحرس الخاص للسلطان(الحرس الجمهورى أو الملكى حاليا)

- المصطلح : بلكات

- مقصوده:الحاميات العثمانية.

- المصطلح : باش دمانجى

- مقصوده:ضابط الأشرعة.

- المصطلح : بلطجى

- مقصوده:جلاد وسياف.

- المصطلح : أونباشى

- مقصوده: مسؤول عسكرى يرأس عشرة جنود أى(أون).

- المصطلح : يوزباشى

- مقصوده:مسؤول عسكرى يرأس مائه جندى أى (يوز). وهو النقيب حاليا

- المصطلح : بكباشى

- مقصوده:المسؤول عن ألف جندى أى(بن).

- المصطلح :نوبتجى

- مقصوده:غفير.وتنطق حاليا فى مصر:نَبَطشى.

- المصطلح : الطوبجى

- مقصوده:كلمة تركية بمعنى المدفعجى. لأن الطوب تعنى المدفع.والطوبجى تعنى القائم بإطلاق المدفع.وكان للطوبجية أميرالاى أو قائد المدفعجية.

- المصطلح :الطوبخانه

- مقصوده:مخزن مدافع الجيش

- المصطلح :الجبخانه

- مقصوده:المكان الذى يُودع فيه الاسلحة والذخائر.

- المصطلح :أورطة

- مقصوده:فرقة عسكرية.

- المصطلح :أوده- أوضه

- مقصوده:كلمه تركيَة تعنى الغرفة. وينتشر استخدام هذه الكلمة فى البلاد العربيه. وكانت الأوضة العسكريَة أكبر اتساعاً من غرف المنازل. وكان يقال للمسؤول العسكرى عن الغرفة (أوضه باشى). وكانت كل أوضة تضم (أورطة) أى فرقة عسكرية.

- المصطلح :الرايس

- مقصوده:قائد سفينة البحر

- المصطلح :قائد المرسى

- مقصوده:المسؤول على الميناء وشرطته والمخازن والمراكب الداخلة والخارجة من الميناء.

- المصطلح : قبودان رايس

- مقصوده:قائد السفينة أو أمير البحر(القبطان).

- المصطلح :باش رايس

- مقصوده: نائب أول للقبطان.

- المصطلح :صوصو رايس

- مقصوده: نائب ثان للقبطان

- المصطلح :رايس العسلة

- مقصوده: مفتش المركب والمشرف على صيانته.

- المصطلح :الكاهية

- مقصوده: يتولى حفظ أمن المدينة. بمثابة القائد الأعلى للشرطة المدينة.

- المصطلح :السباهين

- مقصوده: فرقة عسكرية عثمانية من الفرسان. تأتى فى الدرجة الثانيه بعد الإنكشارية. كانت تتشكل أساسا من الإقطاعيين المتحصلين على أراضى من الدولة تعهدهم بغمداد الدولة بالفرسان عند الحاجة.

ص294

- المصطلح :الدّرك

- مقصوده: رجال الشرطة

- المصطلح : الططر

- مقصوده:رسل من قبل الباب العالى يأتون بالأخبار والبشارت بالمناصب.

- المصطلح :قابجى

- مقصوده:رسول السلطان عن طريق البحر

- المصطلح :البيتمالجى

- مقصوده:يتولى إدارة أموال الأوقاف. ويرث من لا وريث له. ويسمى بقاضى بيت المال . كما يسجل العقود والمواريث.

- المصطلح :الخَزنجى

- مقصوده:مسؤول المالية. ويشرف على مراقبة أمور السكة.

- المصطلح :الخازندار

- مقصوده:ما يشبه وزير التموين والزراعة حالياً

- المصطلح :الدفتردار

- مقصوده:المكلف بتسجيل مصادر خزينة الدولة.أى ما يشبه وزير المالية حالياً

- المصطلح :أمين السكة

- مقصوده:العّيار أو الوّزان

- المصطلح :أرسلان

- مقصوده:أسد باللغة التركية.

- المصطلح :خان

- مقصوده:لفظ تركى قديم معناه السيد

- المصطلح :خاتون/ قادين

- مقصوده:السيدة

- المصطلح :الباش- الباشى

- مقصوده:كلمة تركيّة تعنى الرئيس أو المسؤول مثل (باش كاتب) او (باش مهندس). وتاتى أحياناً فى آخر الكلمة مثل (بك باشى)و (حكيم باشى). وهكذا.... وقد اشتق من هذه الكلمة لفظ (باشا) وهو من الألفاظ الشائعه أيضاً.

- المصطلح : البازار

- مقصوده:فارسية الأصل. دخلت اللغة التركيّة وتأتى بمعنى السوق . ومنها سوق البازر. وكان لهذا السوق (بازار باشى) وهو نقيب من نقباء السوق التجارى أو عنيداً له.

- المصطلح :تنبل

-مقصوده:الكسلان البليد.

- المصطلح :الخوجة

- مقصوده:الكاتب الذى يضبط مايحمله المركب من الامتعة والذخيرة.

- المصطلح : باش جراح

- مقصوده:الطبيب الجراح المرافق لمعالجة المرضى والمصابين.

- المصطلح :الكراغلة

- مقصوده:أطفال يولدون نتيجة الزواج المختلط بين العرب والأتراك.

- المصطلح :الخانات

- مقصوده:الفنادق.

- المصطلح :الطبلخانه

- مقصوده:اسم لعدة من الطبلات والدفوف وآلالات الموسيقى. ورئّيسها يسمى "المهتار" أو أمير الطبلخانه.

- المصطلح :أميرآخور

- مقصوده:ناظر الاصطبلات

- المصطلح :المارستانات

- مقصوده:المستشفيات

ص295

- المصطلح : الدهليز

- مقصوده:الخيمة

- المصطلح :الأسطى- الأسطه

- مقصوده:أصلها (أستا) وهى فارسية دخلت اللغة التركّية والعربّية. وتعنى الأستاذ. كما تعنى فى أساسها الحرفى الماهر الذى أتقن صناعته. وقد انتشر هذا المصطلح فى والمدن الشامية والمصرية. كما حملت بعض الأسر العربية هذا اللقب اسماً لها.

- المصطلح :أفندى

- مقصوده:كلمة تركية استخدمها الأتراك منذ القرن الثالث عشر.وكانت لقباً لرئيس الكتّاب الذى يقال له (رئيس أفندى) ولقاضى استانبول(إستانبولى أفنديسى) أى أفندى استانبول. كما كانت لقباً لرؤساء الطوائف الدينية والضابط والموظفين. وقد استخدم هذا اللفظ فى البلاد العربية بشكل واضح.

- المصطلح :الدوادار

- مقصوده:ماسك الدواة

- المصطلح :البشمقدار

- مقصوده:ماسك نعل السلطان. أى خادم نعله.

- المصطلح :أسماء المهن والألقاب

- مقصوده:قهوجى. بوسطجى. قومسيونجى. سفرجى. باطونجى.ديوانجى.مشكلجى. سبقجى.

- المصطلح :كار

- مقصوده: مهنة.

- المصطلح : بخشيش

- مقصوده: العطيةأو الهبة من المال(بقشيش).

- المصطلح : بقسماط

- مقصوده: نوع من الخبز الجاف.

- المصطلح : سلاملك

- مقصوده: مكان الضيوف فى البيت.

- المصطلح :الحرملك

- مقصوده:مكان الحريم فى البيت.

- المصطلح :جزمة

- مقصوده:الحذاء.

- المصطلح :البيادة

- مقصوده:المشاة.

- المصطلح :الكنبه

- مقصوده:الكنبه.